
النبوءة
رواية
كريم مجدي
دار الرشيدي للطباعة والنشر

النبوءة

نهر الضباب

رواية

كريم مجدي

ASIN: B085PTDNZY

دار الرشيدي للطباعة والنشر

النبوءة "نهر الضباب"

المؤلف: كريم مجدي

kareemjebril@outlook.com

نشر في 2020

تصميم الغلاف: إسلام محمود

جدول المحتويات:

(1)

فتنة النبوءة ومؤامرة الملكة

استيقظ الملك شنوات من نومه مذعورًا، وهو يصرخ قائلا: ائتوني بالمفسرين.

لأول مرة في حياته حلم بما لا يحلم به دائمًا من أعناب ونخيل، وجوارٍ حسان يمرحن بجنته الخاصة التي وعده بها إلهه، فجيء بكل سحرته على الفور، واصطفوا أمامه في خشوعٍ وترقب مهيب، فقال الملك: إني أرى.. ثم توقف وابتلع ريقه، وأكمل مخفيا جزء كبير من رؤياه: إني أرى نجميْن يضيئان عرشي وأنا منزوٍ خلفهما في الظل، وكاهنًا يتعبد وسط معبده، فأفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون.

أطرق السحرة أجمعين، وأخذ بعضهم ينظر إلى بعضٍ قلقين متحيرين، ثم اشرأبت أعناقهم متطلعين إلى كبيرهم لعله ينقذهم من قلقهم وحيرتهم، تلجلجت معرفة كبير السحرة لأول مرة، ولم يهتدِ إلى ما وراء رؤيا الملك فيجلي انزعاجه، فقال ينجي نفسه من هذا المأزق:

- أضغاث أحلام يا مولاي، لابد أنه قد أثر عليك الاحتفال وطول السهر ليلة البارحة.
- ماذا تقول؟! لقد رأيت الحُلم بتفاصيله من قبل، لكني في المرة الأولى كنت جالسًا فوق عرشي.

- يا سيدي عن أي عرش تتكلم! أظن (ولا تغضب علي) إذا كنت تقف خلف العرش، فقد حكمت بغير عدل.

فازداد وجه الملك شنوات قتامة وقال بنبرة ارتعدت لها فرائص كبير السحرة:

- أتقول بأني ملك ظالم وأنا أحكم باسم الآلهة.
- حشاك يا سيدي، إنما أقصد طمأنتك، وما أظنها إلا أضغاث أحلام.

وكان على كبير السحر أن يموت، لا لأن الملك يخاف من تفشي سر رؤياه إن صح تأويل كبير السحرة، بل لأنه تطاول عليه واتهمه بالجوْر، فقطع رأس كبير السحرة بيد الحراس ولم تفلح محاولات كبير السحرة في استعطاف الملك كي يبقي على حياته.

لم يطمئن الملك شنوات لتفسيرات السحرة، وازداد حيرة واضطرابًا كأنه قطعة لحم تمور في قدر شواء طوال سبع ليالٍ، وفي الليلة السابعة رأى الحلم ذاته، فتحول غضبه لنار تحرق ما حولها، وذهب إلى المعبد، وهناك سأل كبير الكهنة كاعبر: أفتني في رؤياي: إني أرى... وكاهنًا يتعبد وسط معبده.

فنظر الكاهن كاعبر لعيني الملك شنوات، وقد خالجته الظنون بأن الملك يدبر مكيدة للتخلص من الكهنة، وقال يبتغي مرضاته:

- أيها الملك الخالد، إن أعمالك مجيدة وعظيمة مثل النجوم الساطعة في السماء، وانقذت مملكة النوبات من الظلم والجور الذي حكم سنوات طويلة قبل اعتلائك العرش بعد موت أخيك سورابي، وما الضوء على العرش إلا تخليدًا لأعمالك إلى الأبد.

استبشر الملك شنوات بتفسير كاعبر وسُر به، لكنه تذكر الجزء المفقود من التفسير فقال:

- وما الكاهن المتعبد؟!
- ما الكاهن إلا كناية عن ازدهار العبادة في حكمك ورضا الآلهة عنك يا مولاي.

اطمأن الملك لتفسير كاعبر، ثم تجولا معًا داخل المعبد، وزارا غرفة الآلهة المقدسة المحرّم دخولها إلا على كبير الكهنة والملك الذي يُعَدُّ من طبقة الآلهة ويحكم باسمهم، وفي نهاية الجولة وهب الملك شنوات -كبير الكهنة- كاعبر قطعة كبيرة من الأرض عند مصب النهر الأوسط.

وإن كان الملك شنوات قد اطمأن لتفسيرات كاعبر، فإن كاعبر قد تملكته الحيرة والقلق مثل غيمة أحاطتها دوامة من الغموض، وسعى جادًّا لمعرفة التفسير الحقيقي للرؤيا، وبعد تفكير عميق لم يجد على وجه الأرض أعلم من كبير العرافين (متاح) كي يستعين به، إنه العراف الذي تحققت كل نبوءاته السابقة وتفسيراته للرؤى وسطعت كالنجوم الزاهرة في ليل

أصحابها الداجي، فقد تعلم الكهانة في مدرسته طفلًا عند الشلالات قبل إغلاقها بأمر من الملك شنوات، لكن متاح اعتزل الناس منذ أعوام داخل صومعته فوق جبل النور المقدس بأرض السيوات التي يسكنها أعداء الملك شنوات. كاعبر يعلم أن الطريق إليه ليست ممهدة، وأن المسير إليه يشبه المسير في دروب ملتوية وسط الجحيم.

لكن كاعبر انشغل بخطر آخر أعظم من قسوة سيوف السيواتيين، إنه نهر الضباب المغلف بضلال كثيف لا يكاد يدرك فيه المرء نفسه، وتمرح فوق مياهه الأرواح الشريرة والوحوش التي تبتلع آلاف الأرواح الشاردة كل عام، فإن نجا من النهر ووحوشه، فسوف يجد نفسه في أرض مملكة السيوات، وعليه أن يسلك الأودية ويعتلي الجبال إن أراد الوصول إلى هدفه.

أخذ متاعه وزادًا يكفيه، وانطلق بصحبه خادم المعبد، تحركا في جنح الليل بسرية تامة، والخادم لا يعلم وجهتهما، يظن كاعبر أن زمن الرحلة لن يتعدى خمسة عشر يومًا، وإن أسرع بالمسير سيقصر الزمن، فيعود قبل أن يشعر أحدٌ بغيابه الطويل، فلم يعتَد الناس غياب كبير كهنتهم أكثر من عدة أيام. جلب معه دابة هزيلة من زرائب المعبد لحمل متاعه، وقد انتقاها هزيلة لأنه سيتخلى عنها عندما يقطع السهل ويبلغ نهر الضباب.

توسطا طريقهما بين الحقول يتجنبان العيون الساهرة وعيون الملك التي ترصد كل شاردة وواردة، فمنذ تولِّي الملك شنوات الحكمَ بمساعدة الكهنة وهم لا يغيبون عنه قط، وازداد ارتيابه منهم وشكُّه فيهم بعد رؤياه، وخاصة من كبيرهم كاعبر.

لم يلقَ صعوبةً في اجتياز السهل، لكن ما أزعج الكاهن تخفِّيه بالنهار واضطراره للراحة قليلًا ليلًا؛ مما أبطأ تقدمهما، واستمر مع خادمه حتى طالعا مشارف مرتفعات السهل بعد ثلاثة أيام، وتجلَّى النهر أمامهما بساتره الضبابي، فتملكتهما الرهبة، جلس كاعبر يتلو الصلوات، والخادم يراقبه وقد امتلأ قلبه رعبًا حتى بدأ يفكر بالفرار.

المجهول الذي ينتظرهما بين ضفتي النهر ليس أكبر مخاوفهما، فعبورهما إلى الضفة الأخرى يعني خروجهما عن طاعة الإله وعن طاعة الملك، ودخولهما حدود مملكة السيوات التي تتحصَّن في الجبال وتُعادي الجميع، وتؤثرُ مملكة النوبات بالنصيب الأكبر من العداء، فإن عُثِر عليهما في ذلك المكان، سيُحكَم عليهما بأنهما من الجواسيس، وستُقطَع أيديهما وأرجلهما من خلافٍ، ثم تُقطع رقابهما وترسلان إلى الملك شنوات.

هكذا لعبت بكاعبر الظنون، وماجت الأرواح الشريرة داخله لتجد لها مرتعًا رحبًا، وتذكَّر الأيام الأولى لغزو السيواتيين وهم ينسلون من كل حدَبٍ

وصوْبٍ، يتجشؤهم الضباب حيث يريد كنمل أتعبه السيل، وتذكّر إحراقهم القرى القريبة من نهر الضباب كأنها منبعٌ للأوبئة والشرِّ، توالت عليه ذكريات القتل والتشرد، فأصابته حُمّى مجهولةٌ، أعراضها الصمت والتصلب، يعلم أن آلهته لن تنفعه خلف النهر، فتضرع للنهر خاشعًا، ولاذ به كي يُبلِغَه ضفة الأمان.

أمر كبير الكهنة خادمَه باتباعه، فجبُنت قدمُ الغلام وفرَّ بعيدًا، فوجد كاعبر نفسه وحيدًا وسط الضباب يحكُّ جسده به، فاتخذ الضباب والنهر إلهًا له، وذبح الدابة قربانًا لهما، ظانًّا أن الضباب سيحمله آمِنًا إلى ضفة السيوات.

التقطت عيونُ الملك الغلامَ، وأجبروه على الاعتراف بوجهة سيده، لكنه لم يكن يعلم غير أنه يريد عبور النهر، وبعد اعترافه بما يعلم، حمله أَشدُّهم وذبحه، ثم رجعوا إلى الملك ليخبروه.

تتوفر القوارب الصغيرة عند ضفتي النهر لكثرة ما ابتلع من أرواح أصحابها، ولم يخلُ منها يومًا، فخافه الناس أكثر وقدسوه، وزاد السيواتيون على ذلك وعبدوه، تعثر كاعبر بالضباب بحثًا عن قارب، وتمسك بالقارب بيد مرتجفة، رغم أن نظراته وهيئته توحيان بأن قلبه لا يعرف الخوف، لكن نهر الضباب يُرهِب الجميع بخرافاته ومجاهله. وتذكر كلمات سيده متاح: "إذا أردت أن تجدني، اركب النهر واتبع النور"؛ فجدَّف بهدوء والسماء متوارية خلف

الضباب جاهلًا المخاطرَ التي تحيق به، ومصيرَه الذي ينتظره وقد أصبح من المغضوب عليهم لدى الملك شنوات.

سكون النهر وقتامته تزيد رهبته وقساوته، وتكسبه مزيدًا من الهيبة، ورغم الخوف استمر كاعبر في التجديف حتى ارتطم القارب بيابسة، لكنه لم يدرِ إن كان قد وصل إلى الضفة الأخرى أم أنه اصطدم بجزيرة؛ فالظلام حالك، فأكمل المسير كي يتأكد حتى أضناه التجديف، فقرر النزول، وتوغل في الأحراش. السكون أشد ما يقلقه، فقد سمع حكايات عن قدرة السيواتيين على الرؤية في الظلام، ومع كل خطوة يخطوها كان ينتظر سيفًا ينغرز في قلبه أو يدًا تبطش به، وتحول الضباب إلى عيون تشي به، قدمه تكاد تزل وتخونه حتى ابتعاده عن حدود النهر وانجلاء عتمته، وانفلاج الصبح من الضباب. صادف سهلًا طينيًّا أحمرَ تحفُّه الجبال من خلفه، فالتفت حوله كي يتأكد من خُلوِّ الطريق، ورغم أنه يجهل أرض السيوات فإن جبل النور تجلَّى له من بعيد بقامته البيضاء الناصعة (كما كان دائمًا، يترأس سلسلة من جبال حمراء) فدله على الطريق، أُعجِب بمنظره ووقف يتأمله مبتسمًا، ثم تقدم إليه.

اشتاق لرؤية سيده متاح وهو على بعد أميال منه، ذكر أيام طفولته التي قضاها في حضرته عندما تتلمذ على يديه بمدرسة الشلالات بالإقليم

الأوسط، ولَعِبِه تحت مياه الشلالات مع الأطفال الآخرين، وكيف كان متاح رقيقًا معهم، فازداد شوقُه إليه.

وصل كاعبر سفح جبل النور، فتخلَّى عن متاعه قبل رحلة الصعود، ونظر إلى الجبل يستصعب تسلُّقَه، وانطلق خاوي العزيمة، لكن ما من سبيل للعودة الآن، كاد يهوى مرات كقطرات العرق التي تتساقط منه وتتفتت فوق الصخور الحمراء، وكلما مرَّ على صخرة كبيرة جلس عليها يستريح، ولما شارف القمة كان التعب قد هدّه وكبر سنه قد أضناه.

فوق قمة الجبل وفي حيز ضيق يُقام معبد صغير، مكوَّن من حجرتيْن وصحن ضيق ينبع من أوسطه عين ماء شحيح، وصومعة هي امتداد لكهفٍ داخل القمة البيضاء أكسبها رحابة لم تكن لتحوزها لولا وجود الكهف، والمعبد محاط بسور حجري منخفض بُنِيَ لحماية الزوار من السقوط، ظن كاعبر أنَّ أحدًا سيكون باستقباله، لكنه وجد المكان خاليًا كأنه مهجور منذ سنين، هتف بأعلى صوته فلم يُجِب أحد، فخلع نعليه واقتحم المعبد، لكنه لم يعثر على أثر للحياة، وعلى باب الصومعة استقبلته رائحة أعشاب مملكة النوبات الطيبة التي طالما أشعلها سيَّده متاح في مدرسته، فأحسَّ بالألفة، وانشرح صدره واطمأن لوجود سيِّده.

توغل داخل الكهف الأبيض، فوجد كبير العرافين يجلس فوق كرسي من خشب أسود كلَوْنِ ملابسه، قطع كل هذه المسافة وما تحمله من صعاب ولم يستعدّ جيدًا لهذا اللقاء، ذُهل كاعبر من عبث الهرم بسيده وهو يعهده رجلا قويًّا، بادره بالتحية، فبادله متاح الترحاب.

وقبل أن يبادر كاعبر بالكلام، قال متاح:

- دعك مما تريد قوله إذا كنت تريد المعرفة.
- عذرًا يا سيدي متاح، فما جئت إلا لأمْرٍ جَلَل إن كنت قد علِمْتَه.
- لقد أتعبك الملك برؤياه يا كاعبر.
- سيدي متاح لقد تحمّلتُ من المشقة الكثير كي آتي إليك، وعبرتُ النهر وجئتك وحدي فأحسني القول.
- إنها فتنة عظيمة يا كاعبر، سوف تزهق أرواح كثيرة، فإن أردت النجاة فامكث معي.
- لست أخشى من بطش الملك سوى على المعابد والكهنة.
- ستُبنى المعابد وستزدهر العبادة يا كاعبر، فلا قلق بشأنها.
- لقد رأى الملك شنوات في منامه.

فقاطعه متاح قائلًا:

- أنت الذي تصلي خلفه.

- لكن الملك لم يحددني.
- خانتك فطنتك وكياستك يا كاعبر، ولم تشكّ في دهاء شنوات يومًا.
- إذا كنت أنا من رآه فلماذا كتم الخبر عني؟
- خشاك يا كاعبر، وأراد أن يحط من قدرك.
- وما تفسيرك للرؤيا يا سيدي متاح.
- سوف انبئك بتأويل الرؤيا، سيكون لك دور كبير خلال هذه الفترة.
- أنا!
- نعم، لكن كل شيء بقدر. فدعني أخبرك...

غيبت النبوءة كبير الكهنة كاعبر عن واقعه المتخم بالأحداث، وأثقل كاهله كثرة الاحتمالات، فأُسرِي به إلى عالم تزدهر فيه النجوم وتحلق الأفكار بالأذهان، وتخطَّفه الطير إلى كل زمان سابق ولاحق، فشاهد كل المعالم المعمارية والمقابر الشاهقة التي لم تُبْنَ بعد، وعندما رجع ظن أنها نهاية الحياة، واستصعب طريق العودة، لكنه فضّل العودة لمعبده بأرض النوبات معرضًا حياته للخطر، مقتنعًا بصدق تعبير متاح لرؤيا الملك. لم يشعر بطول المسافة إلى الضباب، وفوْرَ عبوره النهر قبض عليه حراس الملك، واقتادوه مقيدًا مجرديه من مكانته ومهابته الدينة في نفوسهم، وأُدخل على الملك شنوات ذليلًا، وكان الملك يجلس على عرشه فانتصب غاضبًا، فانتظر كاعبر توبيخ الملك لحراسه، لكنه لم يفعل، بل نهره بسؤاله:

- كيف تجرؤ على خيانتي؟!

- أعتذر منك يا سيدي الملك شنوات، أنا لم أفكر بخيانتك.

- إذًا فلماذا غادرتَ المملكة سرًّا وعبرت الضباب دون إذنٍ مني؟

- أعتذر منك يا سيدي الملك، لقد اشتقت إلى سيدي متاح فشددت الرحال إليه.

- كاذب! ألا تستحي وأنت كبير كهنتي، اصدقني القول وسوف أتركك حيًّا.

كاد كاعبر أن يكفر بدينه، لكنه آثر الصمت، وإن أراد البوح فبماذا يبوح وكل النبوءة سوء للملك، وإن باح بها حتمًا ستُقطع رقبته جزاءً له، فكرر الملك شنوات سؤاله، فاضطر كاعبر لكشف جزء من النبوءة، وأخفى دوره خوفًا من عقاب الملك، فاهتز العرش وتزعزع من تحت شنوات، وزاغ فكره وبصره، كيف يضيع الملك منه وقد توارثته عائلته منذ مئات السنين؟ وانتزعه من أخيه بالقوة، وجذب كاعبر من قميصه وهو عظيم البنيان، وهمس بأذنه: "إن حدّثت أحدًا عن هذه النبوءة سأقتلع رأسك وأهدم المعبد فوقها"، ثم تركه يغادر سالمًا. أحسَّ شنوات بدوار فاتكأ على العرش وتمسك به، واستسلم لواقعه المرير بأنه بلا وريث.

كانت جارية حورحور زوجة الملك تتنصت عليهما، وذهبت تقصُّ على سيدتها ما سمعت، فخافت حورحور على مكانتها، وفكرت بوضعها المذبذب الذي أصبح على شفا حفرة من النسيان، خاصة بعد فشلها كل

السنين الماضية في إنجاب وريث للملك، فأصابها هاجس إنجاب طفل ولو اضطرت لشرائه، ودسِّه داخل أحشائها كي تفاجئ به الملك فيعود طوعها، ولم تفكر جديًّا في شفاء عقمها.

تزوج الملك شنوات من حورحور لأنها تنحدر من سلالة ملكية عريقة، فهي ابنة ملك الإقليم الأوسط قبل أن يستولي على حقها في الحكم بعد موت أبيها، أراد لأطفاله أن يكونوا من نسلٍ ملكي خالص، إلا أنه مُنيَ بالحرمان من هذه الميزة، ويئس منها وهي من أقنعته طيلة حياته أنه عاقر، وهو يريد الوريث لعرشه من بعده كي لا يضيع ملكه ويندثر ذكره، واليوم يضيق بها ذرعًا بعدما خشِيَ على ملكه، فعزم على الزواج كمحاولة أخيرة للفكاك من ورطته، وإن كان ذلك سيزعج حورحور، ويطلق الفتنة.

استبعد هذه المرة الدم الملكي البارد الذي أتعبه، وفكر في فتاة من عامة الشعب، الأمر الذي لم يُقْدِم عليه أحد من الملوك السابقين الذين حافظوا على الدم الملكي نقيًّا، فذهب للمعبد لمشاورة الآلهة، وفي الطريق لمح فتاة ملامحها دقيقة، جمالها عادي فأعجبته، ورغم نَهَمه بالحسناوات فهو لا يدري لماذا اختارها، ربما من شدة يأسه أو من لهفته على رؤية وريث يحفظ مُلْكه من الضياع بعد معرفة سوء طالعه، ولم يكن متأكدًا في قرارة نفسه من نتيجة قراره المفاجئ، لكن لم يكن بيده شيء آخر يفعله، وقد

قدّم القرابين للإلهة وشيّد لها المعابد من أجل أن تعطيه طفلًا وحيدًا يرث عرشه الذي كافح من أجله، وتعب حتى أمَّنَه له، لكنَّ آلهته لم تستجب له.

في خضم هذه الخواطر عاد من حيث أتى، وأمر حراسه بإحضار أبا الفتاة إلى القصر، فدخل الرجل عليه مجلسه وفرائصه ترتعش، فلم يسبق أن طلب الملك شنوات أحدًا من العامة إلا لقطع رأسه، لم يستطع الرجل الوقوف على قدميه، وسجد للملك يرجوه أن يحفظ حياته، فأخبره شنوات أنه لم يجلبه لإزهاق روحه البائسة، وسأله عن ابنته؛ فعلم الرجل بما يدور في خَلَدِ الملك ولم يُحِرْ جوابًا، لكن شنوات لم يذره كثيرًا وأخبره برغبته الزواج من ابنته، فخشي الرجل على ابنته أن يعتصرها ثم يتركها، وأحسَّ أن العالم مهدَّم تحت قدميه. أخبر الملك شنوات الرجل أن الزواج سوف يكون بالغد، وأعد القصر والمملكة للاحتفال الكبير.

وفي ليلة العرس نظر شنوات للعروس، وجه نوباتي أصيل، بلون تربتها يشع نورًا، تفوح منه رائحة الأرض ونبتها، ذكّره بذاك الشعب المنسي الذي يحكمه منذ سنين، فأحسّ بندم على ما فاته، وسأل العروس عن اسمها، فنظرت إليه وقالت بجرأة كمن يتحدّى الموت:

- نوبة.

وكانت نوبة عند حسن ظن الملك، وأظهرت أنها تُحسن الدور الذي أُدخلت القصر من أجله، وقضت على كل آمال حورحور، وحملت من الشهر الأول، فسُرّ الملك شنوات، واقتنع أن الآلهة رضيت عنه وباركته بطفل، فنثر المكافآت والعطايا على الشعب، وأمر بالاحتفال في كل ليلة بكل أرجاء المملكة، فكانت نوبة سبب سعادة المملكة بأسرها، وأحبها الناس حبا شديد.

انتُزِع الاطمئنان من قلب حورحور مذ تزوج الملك، وأصبحت نوبة هاجسَها الوحيد الذي يهدد مركزها المتذبذب، تفكر بطريقة للخلاص منها قبل أن تنتزع منها مكانتها، خاصة وأنها ستكون أمًّا لوريث الملك. رفضت حورحور الاستسلام ولم تعترف بهزيمتها، واختَلَت بالملك شنوات ودست بعقله السم: "كيف يكون نسلك من العامة وأنت إله؟ لن يوقروهم"، فطاحت الفكرة داخل عقل الملك وتركته يتخبط بها، كيف يكون نسلِي من العامة وأنا إلههم؟ وفي خضم تصارع أفكاره قرّر الاستجابة لحورحور وإنساب أطفال نوبة لها، لكن حورحور لها رأي مغاير أخفته في نفسها، ووضعت خطة للتخلص من نوبة وطفلها قبل أن تلده، كي تنفرد هي بكل شيء.

وجدت نوبة نفسها وسط جزيرة من الخبثاء يلفها بحر الخداع، بوضع يهدد حياتها وحياة طفلها، فالبقاء في القصر للأشد مكرًا، فلا يأمن أحد على نفسه، الشك في الآخرين السمة السائدة داخله، كأنه حصن يشارك أسراه الحكم،

فلا تجد أحدًا إلا ويتآمر على الآخر، إما للحفاظ على وظيفة أو للقضاء على غريم، وهي ليست بأقل من حورحور ذكاء، فدافعت عن زواجها رغم أنها كرهت هذا الزواج منذ البداية، ودافعت عن مكتسباتها التي استحقتها عن جدارة، لكن الملك شنوات قرر سابقًا من منهن ستكون صاحبة الكفة الراجحة وتطيح بالأخرى. وعلمت نوبة بما يدور في خَلَد الملك فخافت على نفسها وجنينها وفكرت بالهرب، لكنّ كل العيون تراقبها، وحورحور تتربص بها الدوائر، فتربصت نوبة بنفسها حتى تحين فرصة، وغابت تلك الفرصة حتى جاءها المخاض فأنجبت ذكريْن، وانتظرت بعد هذه البشرى ميل الملك إليها وتحديد مكانتها الجديدة.

أحس الملك شنوات أنه سليل الآلهة بالفعل، لم يفرح بأولاده قدر فرحه بقرب تحقيق حلمه الأكبر، وقد أصبح لذكره امتدادٌ يكذّب تعبير كبير العرافين متاح للرؤيا، شعر بالراحة فوق العرش، شعور غريب لم يشعر به منذ جلس فوقه، فازدادت عظمته وجبروته. وأصدر حكمه في نوبة، لكنه أجّل التنفيذ حتى فطام التوأمين، ولم يشفع لها عنده إنجابها ذكريْن شديديْن يشبهان في كل شيء شعبه الذي يدّعي حبه في كل مناسبة، أراد لهما أن يكونا غير الذي فُطِرا عليه، وأن ينسبهما إلى جنس أخر لن يتعايشا معه، لكن نوبة سيكون لها كلمة أخرى، سوف تجعله لا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس.

تمنت نوبة النجاة بطفليها من كل هذا الشقاء الذي يحيط بها، والعالم الذي يبغضها وينبذها دون جريرةٍ سوى أنها من عامة الشعب، لم تفرح يومًا من حياتها منذ دخلت القصر، فلم يشعِرها أنها تنتمي إليه، مجرد جدران جامدة تشع برودةً تحبس أنفاسها فتكاد تختنق، القصر لها سجن بحديقة أنيقة وأسوار واطئة، كرهته أكثر بمن فيه بعدما علمت أن الملك شنوات يريد انتزاع طفليها منها وضمهما إلى حورحور منافستها على الحياة، رغم أن نوبة حظيت بقليل من التعاطف داخل القصر، لكن هذا التعاطف مرهون بالمصالح الشخصية ممن يتوقعون نجاة نوبة واحتلالها مكانة الملكة حورحور.

أراد شنوات تشييد مقبرة عظيمة عند الشلالات بجوار أجداده، تكون شاهدة عليه بعد موته، لكنه عند تنفيذها اختار موقعًا آخر متقدمًا عن الشلالات بالإقليم الأوسط ليثبت ملكيته له، وانشغل في بنائها، فسنحت الفرصة لنوبة بالهرب بعيدًا عن العالم الذي عذّبها، وذات صباح تحججت بالخروج لزيارة المعبد وأخذت طفليها معها، على باب المعبد حملت طفليها واستبقت الخدم والحراس بالخارج كي تختليَ بمعبودها، شاهدت الخوف يتراقص على أعمدة المعبد، والشمس تساقط عليه الحزن، تلاشى جلال المعبد وعظمته التي أحست بهما حينما دخلته للمرة الأولى وهي طفلة، أحست بأنه مجرد بناء متواضع من الحجر، كل النقوش تراقبها وتتندر عليها وتَعِد

بفضح مخططها، وتنذرها بعقاب الملك شنوات الأليم، كلما خطت خطوة زاد خوفها فتضم طفليها إليها أكثر.

انتابت كاعبر الحيرة بسبب حمل نوبة من الملك، وتخبط بعقله في مجاهيل سوء الظن، شكَّ في البداية في نسَب الطفل، وبعد شهوده ولادتها ورؤية سمات الملك في وجوه الطفلين زال شكه وازدادت حيرته، فوجود ورثة للملك شنوات يدحض مزاعم كبير العرافين متاح باندثار ملكه، لكنه علَّل ذلك بأن الطفلين لن يعيشا، وفكر بالذهاب مرة أخرى إلى جبل النور والتحدث مع متاح، لكنه تراجع خوفًا من عقاب الملك، واليوم يشاهد نوبة تأتي إليه حاملةً الطفلين في أحضانها، والخوف يملأ عينيها كأن الموت يلاحقها، فعاد وصدَّق بالنبوءة، لكنه أحسَّ أن الفتنة قد استيقظت، وأن دوره قد حان.

بينما نوبة تسير وقلبها يرتجف من همسات الريح الداخل، فاجَأَها كاعبر فصرخت واستنجدت، فطمأنها كاعبر وعرَّفها بنفسه، ثم قادها إلى غرفة الأسرار المحرَّم دخولُها إلا على كبير الكهنة والملك بصفتهما امتداد للإلهة على الأرض، ولم تأمن نوبة كبير الكهنة على نفسها لأنها تعلم أنه مقرّب من الملك شنوات وكاهنه الأكبر، فأخْفتْ عنه نواياها الحقيقية وراء زيارة المعبد، وكلَّمته بتحفظ ممزوج بالهيبة، قرأ الكاهن ما يدور برأس نوبة فحاول تخفيف توجسها منه، وسألها عن رؤيا الملك، فلم يكن لديها فكرة

واضحة عنها، فحدثها كاعبر عن الرؤيا وأخبرها بجزء من تفسير متاح. فأصابت نوبة رجفة نقلت قلقها المتزايد لطفليها فبدآ بالبكاء، فحمل كاعبر الطفل الأكبر سورابي، وداعب الطفلين حتى سكتا، وهي تراقب الأحداث في قلق وجزع، ثم نظر إليها قائلا:

- ما حمل الملك شنوات على الزواج منك هو إنجاب هذين الطفلين ليرثاه؛ مما أوغر قلب حورحور عليه وعليكِ.

فوجدت نوبة مبررًا أعظم لإحساسها بالخوف على طفليها، وانتابتها رغبة بالاعتراف بمخاوفها من فقد الطفلين، ونواياها لكاعبر بعدما وثقت به كي يساعدها، وشاركها كاعبر مخاوفها ومشاعرها، فنبوءة كبير العرافين متاح تسيطر على عقله، وقرر أن عليها النجاة بطفليها، وأنه لا يأمن عليهم إلا فوق جبل النور برعاية متاح، فأبقاها بالمعبد حتى غربت الشمس آخذة معها الضوء الذي يرعبها من غدها، وتوارت النقوش التي تجسِّم مخاوفها فتذكِّرُها بمصيرها المنتظَر.

كانت قناعات نوبة راسخة عندما قدِمت إلى المعبد لبدء رحلة تيهها بأنه سيكون بوابتها الحقيقية لهروبها من قصر الملك شنوات، وزيد عليه مساعدة كاعبر المؤمن بألوهية الملك، وجدته طاقة نجاة تنفرج أمامها وتعطيها وطفليها وجهة للأمان، فتحوَّل ظلام الليل لأسوار تحرسها من الظلم، وأحست أنها بأمان رغم أنها ما تزال بفوَّهة الخطر. تنكرت بزي

الفلاحات، واصطحبها كاعبر مع طفليها إلى ردهة طويلة اقتادتهم إلى الفناء الخلفي للمعبد، ومعهما كاهن شاب انتُدِب ليكون دليل نوبة في رحلتها، وعلى مبعدة من المعبد وفي جنح الظلام ودعهما كاعبر الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده، وكلَّف الشاب بحمْل سورابي، ثم أمرهما بالإسراع لِئَلَّا يُفتضَح أمرهما، ونصحهما بعدم التوقف للراحة إلا بعد عبور نهر الضباب، حيثُ يصبحان في مأمن من بطش الملك وحورحور.

سارت نوبة تحمل طفلها الأصغر يوحب خلف الكاهن الشاب، وكلما ابتعدت توقفت ونظرت خلفها تشاهد أضواء مشاعل المعبد كي تستمد منه الطمأنينة، وكلما فعلت يحثها الكاهن على المسير فتسرع الخطى متناسية الماكرين بها. تضم يوحب إليها خائفة عليه وخوفها على ابنها الأكبر سورابي أشد وهو على بعد خطوات منها، اختفى ضوء المعبد وكل الأضواء، وسكنت الأصوات؛ فلم تعد تلتفت خلفها، مرة تسبق الكاهن، ومرة تتخلَّف عنه تحرس طفليها، نسمات الليل بارده تخدِّر أطرافهم وتجعل عقولهم منتبهة، ومع السكون بدا كل شيء هادئًا وأمن.

عندما عاد الملك شنوات إلى القصر وعلم بذهاب ورثته إلى المعبد، اشتاط غضبًا مثل فيل ضل طريقه، وأرسل تاضوس قائد حرسه لجلب نوبة، عندما وصلوا المعبد كان كاعبر ينتظرهم مستعدًّا لملاقاة مصيره على يد الملك، لم يرتجف من الحراس ضخام الأجسام غلاظ القلوب كما يرتجف غيره، لم

يهابهم كاعبر يومًا، مما أثار حفيظة تاضوس الذي يكْفُر بآلهته ضده، فاستغل غضب الملك واقتحم المعبد عابثًا بكل المقدسات والموروثات، وعندما لم يجد نوبة والطفلين أهان كاعبر، وأرسل قواته لتقتفيَ أثرهم.

جُنّ جنون الملك بعد علمه باختفاء ورثته، وغضب غضبة لم يغضبها عندما اجتاح السيواتيون ضفته من النهر، واقتنصت حورحور الفرصة وأوغرت صدر الملك على نوبة، فأرسل خلفهم فرقة كاملة من الجيش للإتيان بولديه سالميْن، ولا يهمه إن جاءت نوبة ورأسها مقطوع.

بينما حرَّضت حورحور تاضوس لقتل نوبة وهي تعلم بميله إليها، ووعدته بمكافأة تفوق ما يتمناه إن أحسن صنعًا.

جَدَّ الحراس في البحث حتى عثروا على آثار أقدام نوبة والكاهن، فأعلموا تاضوس بالأمر، لكن تاضوس أخفى الخبر عن الملك، وجمع باقي الحراس وتتبع آثارهم، كانت الآثار تشير إلى اتجاه النهر فأخذ تاضوس نصف رجاله وأسرع نحوه، وترك النصف الآخر يتتبعون الأثر. حواف خيولهم تضرب الأرض بحقد مميت، وصوت ركضها يفزع السكون الوادع، فجبروت فرسانها يجبرها على شق الريح بعنف، فتخيف أشباح الليل، وترعب القلوب الفرحة، لا يتوانى تاضوس لتحقيق أمنية حورحور الأولى بالتخلص من نوبة، وكذلك أمنيته بحرمان الملك من ورثته، فيؤول الأمر بالنهاية إليه خالصًا.

سمعت نوبة المستفزة حواسها صوت الخطر القادم، ففرت إلى الضباب علّه يُنجيها، فتبعها الكاهن لا يعلم من أي شيء تفر، حتى بلغا قمة مرتفع فشاهدا الضباب وادعًا جاثمًا على صدر النهر، ولم يتوقفا حتى وارتهم الأحراش، ونقيق الضفادع يدوي كطبول الحرب، والطفلان يشتد بكاؤهما تحسُّرًا على أمهما، فقعدت نوبة وضمت الطفلين إلى صدرها ترضعهما، وخافت عليهما، فحثَّها الكاهن على الرحيل، وانتزع سورابي منها، فتبعته مهرولة، فلما بلغا الماء أوقفها، وذهب يبحث عن قارب يعبران عليه، وفؤادها يراقب الطفل حتى ابتلعهما الضباب.

شعرت نوبة بروح غريبة مسكونة بالشر يحملها الريح، وسمعت تكسر العيدان تحت حواف الخيل، ففرت إلى الاتجاه الذي سلكه الكاهن وهي تكتم فم الطفل بيدها، فلمح تاضوس سوادها، فترجّل عن فرسه وجرى وراءها حتى أمسكها، فصرخت صرخة خلعت قلب الكاهن، فجدَّ في البحث عن قارب وركبه هاربًا بسورابي، طوَّق تاضوس عنق نوبة وأحكم خناقها، وهي تتمسك بيوحب، وهو عازم على قتله وحرمان المملكة من أميريها، لكنّ عددًا من الجنود تجمّع حوله فخشي إن قتل الطفل أن يشي به أحدهم عند الملك، حاول جنديٌّ انتزاعَ الطفل من يد نوبة فتشبثت به مثل حياتها، فلطمها تاضوس على وجهها فسقطت أرضًا، واستل سيفه وغرسه

في خصرها، فلفظت أنفاسها الأخيرة وهي تحتضن يوحب كأنها تهبه بقية روحها، وتوصيه على أخيه.

أمر تاضوس جنوده بالتفتيش عن الطفل الآخر، والكاهن يجدّف بكل ما أوتي من قوةٍ، وتيار النهر يجرفه حيث لا يدري، وشَتْ به آثاره المطبوعة على طين الضفة، فأمرهم تاضوس بالنزول في القوارب وجلْبِ الطفل، لكن وسط هذا الضباب الكثيف الجاسم فوق صفحة المياه تنعدم الرؤية تمامًا كأنهم يبحرون في سراب، لما خاف تاضوس ضياع الطفل الآخر من بين يديه أمر جنوده برمي السهام بعشوائية، فتنصتوا حركة المياه، وأخذوا يطلقون السهام باتجاهها بغزارة، فأصاب سهمٌ صدرَ الكاهن فابتلعه النهر تاركًا سورابي يرقد ببطن القارب وحده.

سمع الحراس صوت ارتطام الكاهن بالمياه، فتوجهوا بالقوارب نحو مصدر الصوت، لكنهم لم يعثروا على شيء، والتيار يجرف سورابي إلى الجهة الأخرى من النهر، الجهة الأخرى حيث أعداء أبيه، فعادوا من حيث أتوا لكنهم نزلوا بعيدًا عن قائدهم، فخرجوا من الضباب وانتظروه على الطريق، فلما طلع إليهم أخبروه بما حدث، فأمر بعض رجاله بعبور النهر خلف الطفل، ورجع بالبقية إلى القصر.

رأته حورحور لحظة دخوله القصر من شرفة جناحها يحمل الطفل فانزعجت، ورمقته بنظرة تجرِّده من كل امتيازاته الملكية، وتعِدُه بحرمانه من مكافأته التي وعدته إياها، لكن سرعان ما سيتعدل مزاجها للأحسن عندما تعلم بموت نوبة واختفاء سورابي.

لم يشعر الملك بالحزن أو بالأسف على موت نوبة، ولم يفكر إلا في وريثيه، فلما أخبره تاضوس أمر الطفل الآخر وعبور الحراس خلفه، تغيَّر وجهه إلى وجهٍ آخَر أشد تجهما وقسوة، وصبَّ جامَّ غضبه عليه، كأنه فَقَدَ مُلكًا قد كان، وعاد يهذي باختفاء خلفائه وضياع ذكره واندثاره، وجذبه بكاء يوحب على فراق أمه فنزل عن عرشه، وحمل الطفل متحيَّر الفكر، دخلت عليه حورحور فحملت يوحب وأقسمت بإحسان مثواه، ثم ابتعدت لما رأت اطمئنان الملك، وهو يراقبها وهي تسير مبتعدة يثق في برها بقسمها، وبعدما اختفت في ردهات القصر، صرخ الملك مناديًا عليها، فرجعت إليه فتفقَّد الطفل وقال:

- إنه ابني يوحب.

ثم التفت إلى تاضوس وأمره بنظرات لن ترحم إخفاقه:

- اعثر على ولي العهد قبل الصباح، ولو اضطررت للبحث عنه داخل قلاع السيوات.

- أمرك أيها الملك، سأبحث عنه بنفسي، وسوف أحضره سالما لك.

لكن تاضوس آثر البقاء على ضفة النهر وجبُن، خاصة وهو مشهور بجرائمه ضد سكان السيوات ووجهه معروف لديهم، وانتظر عودة جنوده الذين عبروا في حصن قديم مهدّم وخاوٍ على حافة الضباب.

وانتظرت المملكة عودة أميرها المفقود، وأمر الملك بعبور حراس آخرين ثم عبور جواسيس، وانتشر السحرة على طول مجري النهر، وطالت مدة الانتظار أيامًا طويلة، لكن أحدًا لم يعُدْ من الضباب، فعظُم الحزن في نفس الملك ولزم الفراش، وحورحور تطربها الأحداث، ودخلت على الملك تلاطفه:

- شنوات، لقد وعدتني أن تهب الطفل لي، لماذا لا تبَرُّ بقسمك؟
- ماذا تقولين يا حورحور؟ الطفل على صدرك!
- ما قصدت هذا يا شنوات، أعلِنْ أنني أم الطفل، فأنا أشرف له من الخادمة وقد ماتت.

فرَقَّ الملك لها وهو عازم على أنساب الطفل إليها مع الاحتفاظ بخوفه عليه منها، وجاء تاضوس الملك صباحًا بقميص سورابي، وقال له بإيعاز حورحور: لقد عثرت عليه طافيًا في النهر، فقال: وأسفي على سورابي، وأعلن الملك بعد أيام موت التوأمين، وأنّ الإلهة استجابت لدعائه وعوضته بولد أخر من زوجته حورحور، وقد أسماه يوحب على اسم ولده الراحل، وكافأ تاضوس

وعيَّنه كبيرًا لقادة الجيش، وعيّن بدلًا منه في منصب كبير الحراس قائدًا شابًّا يثق به يُدعى حاتبتي، ويحظى بتأييد كبير الكهنة كاعبر.

تحت جُنح ليل خانق يشبه السراب اصطحب الملك شنوات حاتبتي، وذهبا سرًّا إلى المعبد لمقابلة كبير الكهنة، فتلقَّاهم كاعبر بوجهٍ كئيب حزين لموت نوبة وفقْدِ الطفل، فأحزن ذلك الملكُ، فقال:

- مالي أرى لونك متغيرًا؟
- لا شيء يا سيدي الملك غير أني أعاني الأرق.
- لم نعثر على سورابي يا كاعبر، وقد أتاني تاضوس بقميص كذب له.
- قلبي يحدثني أنه حيّ.

فانفرجت أسارير الملك، وقال:

- يا بشرى، هل لذلك علاقة بالرؤيا يا كاعبر؟
- لا أعلم يا مولاي، فما حدث ينافي تفسير كبير العرافين لرؤياك.

وسكت الاثنان، وتجولا داخل المعبد وحاتبتي يتبعهما صامتًا، ثم قال الملك كأنه تذكّر شيئًا:

- لم تعد تهمني الرؤيا ولا نبوءة متاح، فأنا أريد العثور على ابني.
- سيدي الملك شنوات لا يوجد أمامنا الآن غير متاح، فهو الوحيد القادر على مساعدتك وإيجاد مكان الأمير سورابي.

- اذهب إليه يا كاعبر، ولا تتوانَ، ولا تخبر أحدًا، فإني أشكُّ أنّ تاضوس وحورحور لهما يد في كل ما يحدث، وأخاف على سورابي إن كان حيًّا.
- لا تخفْ يا سيدي، سأسارع إليه وآتيك بالنبأ العظيم.

ثم اختلى شنوات بنفسه داخل حجرة الأسرار المقدّسة، وذكر ربه الذي في السماء، ودعاه متضرعًا كي ينجي سورابي ويرجعه إليه سالمًا، تمنى لو يبكي حتى تبتل لحيته، لكن ضنت عيناه بالدموع، وقلبه لم يحنُ، لم يشعر بالقشعريرة تضرب جسده ولا بسريان الطمأنينة، فيئس من الدعاء وقام، فكانت زيارته الأخيرة لهذا المعبد.

طفا القارب بسورابي إلى آفاق مختلفة سابحًا بين الضباب والوحشة، وسورابي يبكي طوال الرحلة، الأمواج جرفت القارب وقذفته على الضفة الأخرى من النهر، حيث أعداء أبيه يتربصون بالنوباتيين الدوائر، بالقرب من حصنٍ بناه السيواتين على عجل على ضفة الضباب لمراقبة النهر، سمع الحراسُ فوق الأبراج المشرفة على النهر صراخ سورابي، فظنوه من الوهلة الأولى فخًّا نصبه النوباتيون للإيقاع بهم، فأشعلوا نار الخطر لتحذير بقية الجنود كي يتأهبوا للهجوم، فاستُنفرت القوات، واستُدعيَ القائد سنورع قائد الحصن، فأرسل أحد الجنود لمعرفة حقيقة ما يجري، حتى عثر أحد الجنود على سورابي يشبُّ من القارب يحاول الخروج، والمياه تتسرب للقارب حتى كادت أن تغرقه، فحمله إلى قائدهم الذي كان يتابع الموقف

من فوق الأسوار. فلما استقر سورابي بين يديه قال سنورع: إنه طفل نوباتي، فضحك الجنود وتراخت عضلاتهم المشدودة.

هبت ريح باردة، ثم أمطرت السماء فاختفى سنورع داخل حجرته، وأطال النظر إلى سورابي وهو يداعبه، والطفل لا يتوقف عن البكاء، فحنَّ له قلب سنورع وقبَّله، ارتاح للطفل فظن أن الآلهة رضيت عنه ووهبته الطفل، إذ قدَّم لها قربانًا عند مذبح معبد سيو عاصمة السيوات. وقال لزوجته أحسني مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، ومن حسن حظ سورابي أنْ كان لديهم طفل رضيع يُدعى خابي في مثل سنه، فأخذته الأم وأرضعته، فالتقف ثدييها وكاد أن يجففهما من شدة جوعه، رضع حتى شبع واعتدل مزاجه، وشعر بحنانها منذ الوهلة الأولى، فأصبح وادعًا بين يديها يلثم وجنتيها مبتسمًا، وكأنه نسي أمه الأولى، فازداد حنانها، وأحبّت الطفل، وبادلها سورابي المشاعر نفسها وقد رأى أمًّا مثل التي فقدها الليلة الماضية. قالت زوجة سنورع له: ما اسم الطفل؟ لأول مرة ينتبه سنورع أن الطفل مجهول النسب، ففكر قليلًا، ثم قال لزوجته: فلتسميه أنت. فحضر الاسم فورًا على خاطرها وقالت: "نارمر"، فأُعجب سنورع بالاسم، وراح يردده "نارمر" حتى حفظه.

بعد عدة أيام مات قائد جيش السيوات، فعيَّن الملك "يونسي" سنورع في المنصب، وجاءه النبأ وهو يتعبد في سيو، فاستقبله كأنه هدية أخرى أُنزلت

عليه من السماء، فقدَّم المزيد من القرابين للآلهة، وأوقف مساحة من الأرض للمعابد، فأثنى عليه كبير الكهنة وشكره واعدًا إياه بالمزيد من رضا الآلهة عليه وعلى أسرته. ونسب سنورع الفضل لما يحدث له إلى نارمر، وأوْلاه رعايةً خاصة، وميزه عن ابنه، فتعجبت زوجته من فعله وقالت له: لما تؤثر نارمر على ولدك؟ فأجابها بأن الآلهة تتفضل وتمنُّ عليه مذ رأى نارمر عند النهر، ووهبت السعادة لأسرتنا، فلماذا لا نحسن إليه؟! لكنّ زوجته لم تقتنع كثيرًا بما قال إلا بعدما سكنت القصر الذي أعطاه الملك لقائد جيشه الجديد، وفي ردهة القصر حملت نارمر وقذفته لأعلى تهدهده وتمدحه وتشكره على ما رُزقوا من المنصب والقصر والمال، وخابي معهما.

فنشأ نارمر في قصر سنورع مع أخيه الجديد خابي، ولم يشعر بالتفرقة بينهما في المعاملة، فلما كبرا نمتْ شخصياتهما وتبلورتا أمام سنورع، التربية واحدة والنشأة واحدة، لكن الشخصين مختلفين فالجد مختلف.

أصيب سنورع بخيبة الأمل؛ فقد ساءه سوء أخلاق خابي، وتصعلكه مع الهمل وحماقاته المتكررة معهم التي كثيرًا ما توقعه في المشكلات، وأظهر بلادةً في التعلم إلا في حماقاته المتكررة وميله للعنف، وبدلًا من أن يكون خابي خليفة لوالده في الشجاعة والعظمة جاء على النقيض من ذلك، في حين أن نارمر يثبت كل يوم حبه للعلم بمختلف ألوانه، ولديه مقدرة فذّة

على الفهم والاستيعاب للدروس التي يتعلمها، بجانب احترافه استخدام السيف.

الدم النوباتي المحبُّ للعلم والفن والعمارة يجري في عروق نارمر، فقد ورث عن أمه الطيبة والذكاء والحلم، وورث عن شنوات الحزم والشدة والشجاعة، وكل تلك المورثات جعلت منه شخصًا مختلفًا عن أقرانه في العلم والفضل، فأحب السيواتيون نارمر لأخلاقه الحسنة التي لم يألفوها في أبنائهم، وشعر نارمر بالاختلاف عمن حوله في كل شيء، وبأنه صُنع من طينة مختلفة غير التي خلقوا منها رغم حبه الشديد للسيواتيين وانتماؤه إليهم، ولم يخْفَ عن سنورع إحساس نارمر، فهو الآخر يكنُّ نفس الشعور، وكان سنورع يرى أن نارمر يحمل هيبة الملوك وعزّتهم، فيزيد ذلك من اهتمامه به ويعمل على إكساب خابي تلك الصفات التي جُبِل عليها نارمر أو تعلَّمها منه، لكن خابي خيب كل آمال أبيه لإصلاحه، فصبَّ جُل اهتمامه على نارمر؛ مما زاد من حقد خابي على كليهما، ورفض كل شيء يمت لهما بصلة، حتى إنه تعمَّد إيقاعَ أبيه في المشكلات انتقامًا منه.

اليأس الذي ينتاب خابي وشعوره بالغيرة من نارمر يشوِّه تفكيره، ويملأ عقله بالخزعبلات التي تجسِّد له نارمر في صورة شيطان مارد، انتزع منه حب أبيه ووسوس له بكراهيته ليتربع وحده في قلبه؛ مما سوف يدفع خابي لاحقًا لارتكاب خطأ فادح، أكبر حماقاته في حياته القصيرة.

على كبير الكهنة كاعبر أن يقطع الطريق إلى جبل النور للمرة الأخيرة، حَنَثَ بقسمه بألا يخوض غمار هذه الرحلة مرة أخرى، لكنه وجد نفسه مضطرًا أمام انزعاج الملك شنوات وقلقه على مصير سورابي. انتقى هذه المرة دابة سمينة كي يقدّمها هدية للنهر، وانطلق وحيدًا خفيف المتاع، ووضع تحركاته طيَّ الكتمان كما أمره الملك.

كاعبر الذي ظلّ طوال حياته لم يخَفِ الليل خاف الليل!، كأن الموت يتربص به خلف زروع الحقول والأشجار التي يمر عليها، ويهاب النجوم الساطعة كأنها عيون هذا الموت، فلم تغِبْ عيناه عن الترقُّبِ منذ أن خرج من المعبد يتخفى في رداء الخدم، أحسَّ أن الطريق إلى النهر طويل وموحش، فلما بلغ النهر سارع بالاختباء من عيون تاضوس بين الضباب، وانتظر يدًا تمتد إليه فتتخطف روحه فيشقى جسده في قعر النهر مع الضائعةِ أرواحُهم، لكنَّ تلك اليد لم تطَلْه، فعجّل بتقديم قربانه للنهر كي يدَعَه يعبر بسلام مثل المرة السابقة، وهمّ بذبْحِ الدابة، لكنه لم يجد ما يذبحها به، فتطيّر منها وفكر بالعودة إلى معبده، فهمست في أذنه توسُّلات الملك، وسمع بكاء سورابي ملقى وحيدًا يحتاج مَن يحِنُّ عليه، وتذكّر نبوءة العراف متاح؛ فأحجم، فما حدث جعله يكفُر بآلهته كي يعرف الحقيقة، فترك الدابة تأكل من حشائش النهر، وإن شاء النهر قبولها فليبتلعها كما يبتلع غيرها.

اهتزّ به القارب بعد ابتعاده عن الضفة بقليل كأنه فوق ظهر مارد عابس، وجرفه التيار معه فظن أنها نهايته المؤجلة، فجدَّف بقوةٍ محاولًا منع القارب من الغرق، ثم عاد النهر لهدوئه المعتاد، ولم يعلم إنْ كانت فترة جنونه طالت أم قصُرت، تمسَّك كاعبر برشده، وولّى وجهه تجاه جبل النور فلم يجده، فجدَّف دون كلل مسلمًا أمره للأقدار تتقاذفه حيث تريد.

إن أشد ما يخشاه أن يحُطَّ في مكان مجهول وبعيد عن وجهته، وهذا ما حدث بالفعل، ووجد نفسه في مواجهة مخاوفه، نزل ببقعة موحشة شمال النهر بعيدًا عن جبل النور بعشرات الأميال، تتساوى فيها جميع الاتجاهات كما تتساوى جميع ضفاف النهر فلا يعلم أيّ جهةٍ تصِلُ به إلى حيثُ يريد، استحضر الشجاعة المطلوبة منه، وسار بكل اتجاه حتى انقشع الضباب فجأة وصفا الجو، وجد نفسه أمام بحيرة مترامية الأطراف، مياهها حمراء مالحة تتصاعد منها الأبخرة، ولا أثر ظاهرًا لجبل النور حتى يعرج إليه، ما درسه من تضاريس الأرض لم يُفِدْه في الخروج من ورطته، وقبل أن تلعب به الظنون وييأس، عاد إلى الضباب يحن إليه، وبلغ ضفة النهر وقعد يفكر، خانته السماء المعتمة وأوهمته بالسير شمالًا بمحاذاة النهر وهو يظن أنه يتجه جنوبًا.

وبعد يوم وليلة غاب عنهما الضوء بلغ كتنّينٍ مريض أرضًا أخلاها جنود السيوات، اقتلعوا الأحراش واجتثوا الحشائش، وسكنوها لبناء هيكل

جهلهم، فتسمَّرت قدماه في الأرض للحظات، واعتبر نفسه فريسة تواجه قبيلة من السباع، جميعهم مشغولون بالعمل ولم ينتبهوا له وهو يهرب داخل الأحراش مبتعدًا.

هل وجد مفتاح اللغز؟ السر الذي حيرهم لسنوات كثيرة عندما عبرت قوات السيواتيين النهر مجتمعة، وجثموا فوق أجساد قُرى النوبات في محاولة لبسط نفوذهم على بقية الأراضي، لولا تصدي الجيش النوباتي لهم بقيادة شنوات وقف ليحول دون ذلك، تحت حكم أخيه الأكبر سورابي الذي تولّى الحكم بعده.

اقترب كاعبر مرة أخرى من مستعمرة السيوات، ومع ضجيج العمال وصياح الجنود زحف على الطين، واقترب مسافة كافية يراقبهم منها ولا تفضح تخفيه، بقي يراقبهم أثناء عملهم، ولم يتبين شيئًا عن طبيعة هذا العمل أو هدفهم منه، وقد أُشعلت حفر نيران كثيفة على مسافات متباعدة لتجلو عتمة الضباب، وأشعلت السرج والمشاعل ليدور بها الجنود في أرجاء المكان، يطمعون أن تسقى النيران غبش الضباب صفاءً وضياءً، والمطمع خارج الرؤية، يتعثر بين الضباب ويسقط في النهر كلما اقترب السيواتيون من تحقيقه، فبدت حركاتهم مثل بريق شُهُبٍ تطارد الشياطين، خيالات تظهر لتختفي، وللسيواتيين قدرةٌ عجيبة على الرؤية بالظلمة والضباب أدهشت النوباتيين، حتى ظنوا أن الظلام يخدم السيواتين مكافأةً لهم على

إخلاصهم في عبادته، ورغم فشل كاعبر في تحديد ماهية العمل الذي يقومون به هنا فإن لذة الاكتشاف أنْسَته ثقل مهمته.

ارتفع صوت بوق خافت ومزعج ملأ قلب كاعبر رعبًا، ترك على أثره العمال أدواتهم وغادروا المكان مع ضحكات تترامى هنا وهناك لا يدري من أي ناحية تصدر، كأنها أشباح تتخاطف الضحكات من بعضها البعض، والجنود قائمون على حراسة الضباب، فلم تختفِ خيالاتهم رغم خفوت الأصوات. تساءل كاعبر في نفسه: ما الشيء الذي يخافون عليه؟ وفاضَلَ بين محاولة معرفة إجابة سؤاله معرِّضًا مهمته للخطر وإكمال مهمته لمعرفة السر الذي عبر النهر لمعرفته ثم العودة ليخبر الملك شنوات بما شاهد، فاختار مهمته وتراجع زاحفًا للوراء، وركض مبتعدًا فأخفاه الضباب مما يخافه ويهرب منه دون أن يدري، فلما خرج من الضباب وجد البحيرة مازالت أمامه كالسراب، وقد زادت كثافة الأبخرة المتصاعدة منها، والسماء معدومة النجوم. أيَّ إله يدعوه الآن كي ينجيه من محنته؟! وأيَّ قربان يقدمه له وقد فقد متاعه؟! عاد حتى بلغ النهر، وسار في اتجاه معاكس بمحاذاة النهر كي لا يضِلَّ الطريقَ مرة أخرى.

قطع مسيرة ليلة دون أن يشعر، وفي آخر الليل بانت نجمة فتداخل على كاعبر الليلُ والنهار، فلما تعب تجلَّتْ له قمة جبل النور البيضاء وغيمه، فلمعت أسنانه وسط الضباب فرحًا لعثوره على وجهته الضائعة، فولَّي

وجهه شطر النور، فانطلق كأن العراف متاح يفتقده. بعد مسيرة استراح بالقرب من طريق مُدَّ حديثًا، أوله عند البحيرة وأخره حيث لا يدركه الضباب، بعد قليل مرَّت عدة عربات يحرسها جنود، تحمل صخورًا تبرق ببريق الذهب، ففطن إلى أن هذه الصخور محمولة إلى ذاك المكان عند النهر، لكنه فقد الاهتمام به كأن الأمر لم يعد يعنيه، وتعجّل بالمسير قبل أن يَفضَح أحدٌ أمرَه.

خلع نعليه قبل الدخول في حرم جبل النور، كي لا يكون بين قدميه وأرضه حاجز، وتسلّق الجبل وقواه لا تساعده، لكن ما من ذلك بد، وعلى بعد خطوات من القمة ضربته الشمس فتراءت له خيالات وأشباح تتخطفه، فكاد ينزلق ويهوي بسببها إلى السفح، فعاودته الحُمّى، حُمَّى خفيفة مفعولها جيد، وبعد ساعات من المعاناة مع لسعاتها الحارقة، سكِرَ كاعبر بلحظة تجلٍّ فاستوعب عقله الكون كأنه أحجية فكّ رموزَها، فوجد معنى الأشياء، وعرف حقيقة ما فاته، وأدرك للحظة عابرة أنه لن ينقذ سورابي من مصيره مهما حدث، وفي غمرة هذيانه وقبل أن يغيب شاهد يدًا تمتد إليه وتنقذه قبل السقوط.

حمله كبير العرافين متاح فوق ظهره، وكاعبر يهذي حول سورابي وخيالات الجند ونهر الضباب ولمعان الذهب، وأشباحٌ وديعة تتخطفه فتهوي به في قعر الجحيم، أنامَه متاح فوق فراشه داخل الصومعة، وخرج ينتقي بعض

الأعشاب التي تنمو فوق جبل النور، ثم فركها بكفيه حتى تحولت معجونًا متماسكًا، ودخل الصومعة فوجد كاعبر يقف على قدميه مستلًّا سيفًا من سراب، يقاتلُ به تنانين هيّأها عقله، فسقط إثر ضربة ذيل تنين جامح، فهرول متاح إليه قبل أن يحرقه التنين وأعاده إلى الفراش، ثم سقاه وأطعمه من النبات المهروس بين يديه، ودهن بها جبهته العريضة حتى غطَّ كاعبر في نوم مذبذب.

بقي كاعبر الليل كله على أعتاب الهذيان يصارعه، ومتاح يسهر على راحته، استجاب كاعبر للشفاء ببطء مع مطلع الفجر، ثم انخفضت حرارته مع الشروق عائدًا إلى واقعه، بينما متاح يتلو صلوات غريبة ويدعو بهمس مُبهَم، فلما وقعت عين كاعبر عليه شاهده جسديْن يلتحمان فقال:

- ماذا حدث لي يا معلمي؟!

فأجابه متاح وهو مستمر بمزاولة طقوسه الغريبة دون التفات إليه:

- أصابتك حمى طيبة فَضَحَتْ مخاوفك ووساوس أفكارك.
- أقلتُ شيئا يُخشى إفشاؤه؟
- لا شيء ذا قيمة في هذه الحياة! الآن أخبرني ماذا حدث لك في طريق مجيئك إليّ؟

اعتدل كاعبر في جلسته، وأغمض عينيه عاصرًا ذهنه علَّه يتذكر، ثم قال:

- لقد واجهت الضباب بمفردي، وجدفت والنهر غاضب حتى كدت أغرق، واختبأتُ من الجن تحت الأحراش وهم يعملون على ضفة النهر في الضباب، ثم جئتك مهمومًا فاستقبلَتْني أشباحٌ، واختطفتني إلى جحيم الآخرة، وأنت أنقذتني منها.

اقترب منه متاح دون أن يتفوه بكلمة، ولقَّمه حفنة من المعجون في فمه، فمضغها كاعبر على مضض وحلقه يمتلئ بالمرارة، ثم خرج متاح آمرًا إياه باتباعه. بينما نسمات الصباح تلفح جباههما ببرودتها، فيطرب كاعبر ويُوهَبُ الصفاءَ والاطمئنان، نظر إليه متاح وقال:

- هل تظن أن ملِك الجان يقبل العمل بين طيات الضباب؟ أنت مخطئ يا كاعبر حتى الجن تخاف نهر الضباب.
- لكني رأيتهم بعيني يعملون تحت إمرة الجنود.
- خدعَتْك عيناك! إنهم بشر وليسوا من الجن.
- وماذا يفعلون؟
- الملك يونسي يُعِدُّ العدة لغزو مملكة النوبات وسكنى قصر شنوات، والبداية فوق ضفاف النهر، قربانٌ من ذهب تعبر عليه قواته مجتمعة.
- عن أي قربان تتحدث؟
- جسر من ذهب؟
- هذا يفسر ما رأيته عند النهر وما رأيته لاحقًا على الطريق.

وقع الخبر على كاعبر أشد عليه من عذاب جحيم حُمَّاه، ومحاربة التنانين، فرقد في الفراش يظن أن النوم لن يقدر عليه، لكنه غفا، ورأى سورابي راكبًا فرسه وخارجًا من بين الضباب، شاهرًا سيفًا مزدوجًا، ينشر السلام على القرى المطلة على النهر من كلا الجانبين، وكل القرى والمدن البعيدة، وسَجَد عند عرش أبيه، وقبل أن يلتقي الابن بأبيه أخرجه متاح من منامه، فجلس كاعبر وقلبه مازال معلقًا هناك فوق العرش.

- سامحك الإله، لماذا أيقظتني؟! كنت أشاهد حقيقة ما أُخفي عنّا.
- أعلم ما رأيت يا كبير الكهنة، وعليك أن تعود الآن.
- ولما العجلة؟ أريد البقاء بجوارك بضعة أيام وتفسير رؤياي؟
- لا وقت لديك لذلك يا كاعبر، يجب أن تكون قريبًا من الملك كي توقف غيَّه علك تأخر نهايته.
- نسيت أن أسألك عن شيء: اختفى الابن الأكبر للملك شنوات، ولا يعلم أحد مصيره، فدُلَّنا على مكانه.

فامتنع متاح عن الجواب لجهله بالإجابة، خانته بوصلة نجمه فتعثر بها، وتحت إلحاح كاعبر أجابه:

- ربما اختطفه الجان، أو ضاع بين الضباب وسقط بالنهر. قد تكون واحدة من هذه، لكني لا أراه أمامي، وإن هذا لشيء غريب!

- وما تفسير ما رأيته في منامي منذ قليل؟ لقد انتابني نحو رؤياي شعورٌ متضارب بالرضا والخوف.
- انسَ ما رأيت في منامك يا كبير الكهنة، فبعض القدر يجب ألّا يُفشَى، ولا تخبر شنوات برؤياك.
- لقد فسرت رؤيا الملك من قبل، فأنجب ذكريْن وتوطّد ملكه مخالفا لما ذكرته.

فقاطعه متاح بنفور:

- التفسير صحيح، لكنك أسأت فهمي، وقد اقترب الوقت. وسأخبرك شيئًا يجب أن يظل سرًّا آخر بيننا.

لم يشعر كاعبر بمشقة حقيقية في طريق العودة، انبسطت الأرض تحت قدميه كأنها بساط يحمله حيث شاء، بلغ الضباب في زمن قصير أثار دهشته، وجد القوارب عند الضفة متراصَّةً تنتظره بلهفة عاشق محروم، فركب القارب، وفي منتصف النهر اصطدم القارب بجيفة يجرفها التيار، ترتدي الزي العسكري لجنود الملك شنوات ملامحها ممحوَّة، فطن أن حورحور لم تتوانَ عن تدبير مكائدها لإفساح الطريق أمام طموحاتها وأطماعها، يعاونها تاضوس الذي وجد في حورحور نعم النصير ليحقق هو الآخر طموحاته العطشة للمجد والخلود، فشُغل كاعبر بالتفكير في المدى الذي وصل إليه كلٌّ من حورحور وتاضوس عن واقعه المتخبط. بلغ حاضرة

مملكة النوبات والشفق يختنق، وستائر الأسف والبؤس تلفح المملكة مذ قُتلت نوبة واختفى سورابي، فتوجه إلى المعبد ليرتاح قليلًا ويستعد لمقابلة الملك شنوات في الصباح.

وجد رجلًا آخر غير الملك يقف أمامه محطمًا وميؤوسًا منه، ينهشه الحزن على فقد خلَفِه، فبادره كاعبر بالحديث: "أيها الملك العظيم خُلِّد اسمُك في السموات والأرض وفي الدارين"، فقال الملك بروح مهزوم: "آتِ ما عندك يا كاعبر، فوجهك يوحي بإخفاقك في مهمتك"، فأجابه كاعبر بطريقته المعهودة مع الملك بأدب مضاعف يتوخى غضبه: "جئتك يا مولاي بما يقر عينك ويشرح صدرك"، فاعتدل الملك في جلسته، وتحفّزت حواسُّه لسماع كاعبر ولم يتفوه، فأردف كاعبر: "عند الضفة الأخرى من النهر وجدتُ السيواتيين يبنون صرحًا لم أتبيَّنه، تبَّأَني من أمره كبير العرافين متاح، وأخبرني أنه قربانٌ من ذهب على هيئة جسر يقدِّمه الملك يونسي للنهر كي يسمح لجيشه بعبور النهر مجتمعين"، فضحك شنوات وقال: "ألم يكْفِه ما لاقاه أيام حكم أخي سورابي من خيبة"؟! فلم يعجبه تصرف الملك وقال: "الأمر هذه المرة جد خطير، فمملكة السيوات أعدَّت جيشًا كبيرًا لإخضاع مملكة النوبات والإقليم الأوسط"، فأخفى الملك شنوات سُخطه واستياءه، بالجملة تأتيه المصاعب فنأى بجانبه عنها، واقترب من كاعبر وهمس في أذنه:

- وسورابي؟

- سورابي بخير يا سيدي، لكن لا يدري كبير العرافين مكانه.

- أيكذب هو؟

- لا يا سيدي الملك، لن يكذب عليّ معلمي. وأوحى إليّ الإلهُ في منامي عجبًا: رأيت الأمير سورابي يحظَى بمكانة عظيمة عند النوباتيين والسيواتيين.

- وما دخل السيواتيين بأمره؟!

- لست أدري يا سيدي، لكن الأمير سورابي سيكون له شأن كبير.

فصرف الملك كاعبر، واستدعى قائد جيشه تاضوس، وأخبره باستعدادات السيواتيين، فطمأنه تاضوس بأن الجيش قادر على صد هجمات السيواتيين إن حاولوا عبور النهر، ففرض الملك ضرائب جديدة مخصصة لترميم الحصون المطلة على نهر الضباب، وبناءِ أخرى أشد تحصينًا، وقد أعجبه بناءُ جسرٍ ذهبيٍّ فوق نهر الضباب، وليهدي بريقُ الذهب السائرين على الجسر، وأحب أن يكون أول العابرين عليه.

ضمت حورحور يوحب إلى صدرها، وفكرت في قتله، لا تحبذ أن يكون خلَفُ زوجها الملك من امرأة أخرى غيرها وهي عقيم، وكادت تنفِّذ مؤامرتها لولا خوفها من عقاب الملك شنوات، ورغم أن الطفل ورقة رابحة في يدها فإنها رأته خطرًا عليها يهدد بقاءها في منزلتها كملكة واحدة للمملكة لا ينازعها

منازع، وبدلًا من إحسان مثواه عسى أن ينفعها قررت قتله لتنفرد بالملك وحدها، وأرجأت الأمر إلى حين. وطلبت من تاضوس مقابلتها سرًّا داخل القصر الأبيض بالإقليم الأوسط المسلوب منها.

أن يحوذها كل ما يفكر به تاضوس هذه اللحظة، وقد أصبح شغفه بحورحور مفضوحًا بينهما، واستعد الاثنان لتقديم التنازلات بعد وضع البنود التي تخصه أولًا قبل عقد الصفقة. رغم أن عينيْ تاضوس تشع منهما الرغبة في امتلاك جسدها المهيب، وأشد من رغبته بامتلاك عرش مملكة النوبات فإنه حدثها على استحياء وحذر، ولم يُبْدِ لها بادئ الحديث نواياه الحقيقية تجاهها وتجاه زوجها الملك، فكانت هي أذكى منه وحدّثته بوضوح، في موقف أصبح فيه التلميح تخاذلًا والتخمين عجزًا، وقالت:

- تاضوس، أنا أعلم ما تفكر به، والأمر يزداد كل يوم، من الشجاعة أن تتحدث الآن أو لتصمت إلى الأبد.

بخُبث أجابها:

- وبأي شيء أفكر؟
- عيناك تفضحانك، أنت متيم بي، ويوحب ينازعك على عرش المملكة، وربما يعود سورابي في أي وقت وينحيكما أنتما الاثنين جانبًا، أليس هذا صحيحًا؟

- وما الذي تريدينه أنتِ يا حورحور؟
- أريد مثل ما تريده أنت، أريد عرش النوبات، أريد الإقليم الأوسط إقليم أبي الذي سرقه مني شنوات.

أفصحت حورحور عن رغبتها فشعرت بإحباط تاضوس، وبما يتخبط في عقله فأردفت:

- يمكننا سويًا تقاسُم الحكم.
- أحب أن أكون الحاكم المطلق لمملكة النوبات.

فسكتت حورحور قليلًا ثم قالت:

- إذا فلتُعِدْ لي الإقليم الأوسط الذي كان لي بعد أبي.
- لكِ هذا يا حورحور، لكن تحكمين كزوجة لي.

واقترب منها ببطء وعيناها تشع بالمتعة، فقدمت حورحور تنازلها الأول، وأعطت نفسها له هدية لهذه الصفقة العفنة. لكن الملك شنوات ليس ممن يُخدعون، وداهية يجيد حَبْك المؤامرات وكشْفها، وفاتحٌ عينيه يراقب الجميع.

لقد زاد خوفه على يوحب بعد اجتماع حورحور بتاضوس من خلف ظهره، فنزعه من بين مخالب حورحور، وأشرف على تربيته بنفسه، وعيَّن له حرسًا خاصًّا يرأسهم قائد حرسه حاتبتي، فلما بلغ يوحب أشده، وبلغ السابعة

عشر برع في استخدام السيف، وأظهر حُبّه للقتال عكس أجداده الملوك المحبين للفن والعمارة، وحورحور لصيقة به تتابعه عن كثب، ودبرت لقتله أكثر من مرة، لكنها أخفقت في كل مرة، وجاء يوم الاحتفال باعتلاء الملك شنوات عرش المملكة، فظنت حورحور أن الفرصة سانحة، فادعت أن هناك جواسيس سيواتيين عبروا نهر الضباب، وطلبت من يوحب القبض عليهم وعدم إخبار الملك بذلك كي لا يفسد احتفاله، فحذره حاتبتي وحاول منعه من الذهاب، فرافقه تحت إصراره على الذهاب ليصنع مغامرته الخاصة، وقد يعلم يوحب أن حورحور تكيد له للتخلص منه، انطلقا مع بضعة من الفرسان بخيولهم يشقون السهل الخصيب، والخيول مرحة تستمد الفرحة من يوحب، وتتجاهل عمدًا مخاوف حاتبتي.

كانت فرقة من جنود تاضوس تنتظرهم داخل الحصن القديم، وحورحور وتاضوس حول الملك شنوات يحتفيان به، مهمة قتل يوحب ومَن معه تبدو سهله لتفوّقِ جنود تاضوس في العدد، فلما اقترب يوحب استعد الجنود لرشق يوحب ومَن معه بالسهام المسمومة من فوق أبراج الحصن شبه المهدّمة.

وفي غمرة الحماس الذي ينتاب يوحب كاد يقتل لولا أن منعه حاتبتي من الاقتراب من الحصن لما هجره أهله، وأرسل أحد الحراس أولًا ليتفقد الحصن فلم يعد، وخرجت فرقة من الفرسان تزيد عن الخمسين تطلبهم،

فتوارى حاتبتي ويوحب ومَن معهما خلف أستار الضباب، وأمرهم حاتبتي بتعرية رؤوسهم وصدورهم وتلطيخها بالطين، والتخلِّي عن خيولهم وسيوفهم، واستلُّوا الخناجر وتمركزوا بالقرب من بعضهم البعض.

فرقة تاضوس المتغطرسة مثل قائدها ظنت أن لن يقدر عليها أحد، ودخلوا الضباب فوق خيولهم يمتطون صهوة التكبر، فحوصروا بين كماشة الضباب والأشباح التي تتصيدهم فردًا فردًا كغول غاضب مُكشِّرٍ عن أنيابه. وبين الخوف ورجاء النجاة فرَّت القلة الباقية، فنادى يوحب على حاتبتي، فعرفه وخرجا إلى الضوء فرحيْن، وتصايح الجنود صيحات النجاة والنصر.

كشف عدو يوحب بالقصر عن نفسه علانية له، وعلم يوحب أن حورحور تضمر له الشر عكس ما تدَّعي من حبه، وتبجحها بذلك في كل مناسبة أمام الملك، نصحه حاتبتي بعدم إعلام الملك بالحادث كي لا يثير حفيظته، فالملك متيَّم بحورحور، وهما لا يمتلكان أدلة كافية تثبت تورط تاضوس وحورحور، فدخل يوحب على الملك وحورحور وتاضوس جالسون، فاتسعت حدقتا حورحور غير مصدقة أنهم نجوا من القتل، كأنها تنظر إلى أموات يسيرون في بلاط المملكة أو أشباح أرواحهم جاءت من الحياة الثانية تطاردها، تماسكت وتظاهرت بالتجلد والهدوء وداخلها يشتعل، وتاضوس يجلس باهتًا يظن أنها نهايته. لم يذكر يوحب شيئًا عن الحادث، ومضي سعيدًا يشاركهم الاحتفال كأنّ شيئًا لم يحدث؛ مما أثار حفيظة حورحور

وضاعف قلقها، فعجزت عن تحمُّل الموقف، وغادرت الاحتفال إلى جناحها والظنون تكاد تقتلها، تفكر كيف تخرج من ورطتها التي أوقعت نفسها بها، وكيف تلقى اللوم على تاضوس وتتهمه بخداعها وتضليلها بأخبار كاذبة عن الجواسيس لاستدراج الأمير يوحب إلى الخلاء لقتله، فلم تحتَجْ لاحقًا لكل تلك المبررات الساذجة للنجاة، فقد التزم يوحب صمته ولم يفشِ الخبر، كذلك فعل الجنود، ولم تعاود حورحور ذكر الجواسيس أو التحدث مع يوحب عن نتيجة المهمة قط، وانتهى الأمر عند ذلك الحد.

ومثلما أصبح ليوحب أعداء وجد نارمر عدوا هو الآخر من أهل بيته الجديد، أراد خابي طرد نارمر من جنة أبيه وإثارة سخطه وغضبه عليه، فلما ذهبوا لزيارة الجسر دبّر خابي للهجوم على مناجم الذهب عند منطقة البحيرة التي تُدار باسم الملك ومستودع خامات مواد بناء الجسر الذهبي، واستدراج نارمر في نفس التوقيت وقتله داخل المنجم لاتهامه بسرقته، فإن هو أفلت من القتل لن يفلت من السجن. وشرع بتنفيذ جرمه بالاتفاق مع صعاليك من شيعته آمنوا به لتدنيس منطقة البحيرة المقدسة التي تُعَدُّ امتدادًا لجبل النور المقدس عند السيواتيين، ولم يصدف طوال تاريخهم أن حدث بها جريمة واحدة أو خُدشت حرمة المنطقة، لذلك يقل بها الحراس، ويندر وجود الجنود حولها، وفي الليل اقتحم خابي ورفاقه المنجم، وقتلوا كل من وجدوه، وخربوا المعدات، وعاثوا فيه فسادًا، وسرقوا أحجار الذهب، ثم

استغاث خابي بنارمر وأرسل إليه أن ينقذه عند المنجم، وأبلغ حراس الملك بالحادث، فقبضوا على نارمر بالقرب من المنجم، وأُدخل السجن.

خلف خابي عهده مع شركائه، ورفض اقتسام الذهب معهم، فوشوا به في جلسات سمرهم، وفُضح نبأ خابي في المدينة حتى علمه الملك يونسي، فغضب غضبا شديدًا، وأخرج نارمر من السجن، وأصدر الملك أوامره بالقبض على خابي وكل مَن ساعده وقطْعِ رؤوسهم. فلما رأى سنورع الكفة تطيح بابنه تشفع له عند الملك للعفو عنه، فغضب الملك وقال: كيف لمجرم تجرّأ على مناجمنا الملكية وقتل جنودي أن نصفح عنه! ورفض شفاعة سنورع وتفسيره للحادث، وصم أذنيه عن مطالب رجله المخلص الذي دافع عن حدود مُلكه طوال حياته على امتداد سبعة قرون، فنشب نزاع بينهما، وهمَّ الملك بعزل سنورع من منصب قائد الجيش. ورفع الحادثُ مكانة نارمر لدى الملك يونسي، وازداد نارمر قربًا منه حتى ولاه الملك على حصن الغابات المجهولة على حدود مملكته، وأُبعد عن القصر وما يُحاك فيه من مؤامرات ودسائس.

وجد خابي خطة بديلة للنجاة من عقاب الملك، خطة ليست أقل جرمًا من الأولى، وفكر باللجوء إلى الملك شنوات، ولم يشكّ لحظة بأن شنوات قد لا يقبل حمايته، وربما يقدّمه قربانًا للنهر، وانتظر حتى حلَّ الظلام وسكن الناس، ثم انطلق، يعلم جيدًا أنه ما من سبيل للعودة، وأنه بعبور نهر

الضباب يقضي على كل الآمال في العفو عنه، ورغم ذلك اختار عبور الضباب والفرار من مخاوفه بدلًا من مواجهتها. سار بفرسه في الظلام وقصد النهر، لم يفكر طوال الطريق بالعودة، ولم يصبر على طول الطريق ومصاعبه، تنتابه مشاعر متنافرة ومتضاربة تجاه والديه والمملكة، ويضمر الكره والشر لنارمر، فمذ دخل حياته وهي تمضي إلى أسوأ، فأصبح حُلمه وهاجسه الوحيد التخلصَ من نارمر ودفْنِه بقعر الجحيم. وحشة الطريق تنصحه بالعودة، لكن ما من أفئدة تعقل، لا يأبه إلا بمقابلة شنوات والركوع بين يديه لقبوله خادما عنده، يظن أن ألد أعداء ملك السيوات سوف يرحب به ويقبل مساعدته لمجرد أنه منشق عن السيوات وجيشها أذاقه طعم الهزيمة والخذلان.

تسرب الضباب بين فرائص الفرس؛ فتوقف الفرس وخاف المسير، فالخيول لا تقترب من ضفة نهر الضباب قط، فهي أذكى من البشر في هذه الممالك وتعلم أن الضباب لا يذر، ولا يواري إلا الضياع والموت، ضرب خابي فرسه لحمله على المسير، لكنه أبى، فتخلي خابي عنه، وتقدم وحيدًا ببطء شاهرًا سيفه في وجه مجاهل أفكاره وعبثها بعقله، تعثرت قدماه في النهر دون أن يشعر، فسقط في المياه، لكنه قاوم الغرق حتى تمسك باليابسة، وبرودة المياه تكاد تقتله. ثم بحث عن قارب، وبعد عناء وجده بجوار جثة متعفنة طافية تبحث عن قبر يواري سوءتها، فقفز في القارب، وجدّف وسط

الضباب موليًّا ظهره جبل النور مسلمًا أمره للآلهة وهو من عَبَدة النهر، فرفع سيفه في الهواء وألقاه بالنهر تقربًا إليه، ودليلًا على قدومه بسلام كي يعبر بسلام. جرف التيار القارب إلى مكان منعزل ومنزوٍ بعيدًا بين أحراش طويلة مثل النخيل على الضفة الاخرى، وجد خابي صعوبة في تجاوز هذه الأحراش، فندم عن تخلِّيه عن سيفه لربه، وبشق الأنفس استطاع الخروج من الضباب، وبلوغ ممر طيني ضيق ممتد أمامه على مد بصره قاده بعيدًا عن النهر، ونام ليلته في العراء، والتحف بالسماء، واستعد للميعاد غير المنتظر مع الملك شنوات.

وعلى غير المتوقع من الملك شنوات الترحيب بمبعوث من قِبَلِ السيوات، وهي سابقةٌ من نوعها أن يأتيهم شخصٌ من مملكة السيوات ويطلب مقابلتهم، استدعى الملكُ الأميرَ يوحب، واستقبل خابي ورحب به وأجلسه بالقرب منه بعدما عرَّفَ نفسه، وعلم شنوات أنه ابن سنورع، وأن سنورع أصبح قائدًا لجيش السيوات، فسمع منه باهتمام، وكلما مضى خابي بالحديث ازدادت حدقتا الملك اتساعًا؛ مما أغرى خابي بسرْد المزيد وكشْف بعض أسرار مملكة السيوات وخبايا قصرها، ونسي وهو في غمرة حماسه أن يساوم الملك على ما لديه، ويوحب يراقب الموقف صامتًا. التقف الملك شنوات كلمات خابي، وانتظر بصبر حتى فرغت جعبته، وسأله:

- لماذا هجرتَ أباك؟

- أيها الملك الخالد شنوات، تنازعتُ مع أبي بسبب وغد فضَّله عليّ، فهربت منه إليك لأعيش تحت حكمك.

فابتسم الملك ابتسامة لا تخفي احتقاره لخابي وأبيه، ثم قال:

- وما الذي يجعلني آمَنُ جانبك وأنت ابن عدوِّي؟

- إن لم يكفِ كل ما قلتُه لك لقبولي، سوف أساعدك في معرفة مواقع حصون السيوات وتجهيزاتها.

- الحصون ليست بعيدة عنا؛ لذلك لسنا في حاجة لمساعدتك.

- أيها الملك، لطالما استعصى عليك حصن النهر وكبّدك خسائر فادحة، وأنا قضيت سنوات طفولتي به، وأعلم كل شبر فيه، وأعلم نقاط ضعفه.

فخرج يوحب عن صمته مقاطعًا:

- إن جيشنا اليوم أقوى من جيوش الأمس، ويستطيع عبور النهر وإغراق الحصن دون صعوبة.

فتضايق الملك شنوات من تدخُّل يوحب غير المرغوب فيه، وقد أوصاه بالاستماع والصمت فرمقه موبخًا، والتفت إلى خابي وقال مُنهيًا اللقاء:

- سوف أفكر فيما تقول.

وأشار إليه بالخروج، فاصطحبه حراس الملك إلى مكان إقامته، وبعد مغادرته قال يوحب غاضبًا:

- لما أذِنتَ له أيها الملك؟

- لا تمسه بسوء، فهو ورقة رابحة في أيدينا.

- ربما نصَبَ لنا السيواتيون فخًّا.

- لن يجازف سنورع بإرسال ابنه إلينا.

يخطط الملك شنوات للاستيلاء على حصن النهر، أخطر معاقل السيواتيين عند الضباب، والانطلاق منه للاستيلاء على بقية الأراضي السيواتية، فلمّا ظهر خابي أمامه فجأة ظن أنهم علموا شيئًا عن أفكاره، وفكّر فيما يفكر به الأمير يوحب؛ لذلك أبقى خابي قريبًا منه حتى تكشف الأيامُ عن نواياه الحقيقة، وأمسك نفسه عن قطع رقبته وإرسال رأسه إلى سنورع فيحطم فؤاده، ونحَّى الفكرة جانبًا ريثما يتأكد من صحة شكوكه أو يستخدم خابي سلاحًا يُشهِره في وجه سنورع متى أراد.

(2)

بول الشياطين وجسر الذهب

بدأ شنوات إعداد العُدة لملاقاة السيواتين؛ إذا ما عبروا جسر الذهب، وأمر بتشييد الحصون بمحاذاة حدوده مع نهر الضباب، وذلك لتحصين دفاعاته من جهة وحماية ظهره من جهة أخري؛ في حال عبر لأرض السيواتين، ورغم أن تاضوس أحب الدعة والراحة وكرِه هَبة الحرب؛ إلا أنه امتثل –في الأخير- للأوامر مُرغمًا، فجنّد الشباب والرجال من جميع أرجاء المملكة، وأدخلوا مدارس شتى تدربهم على فنون القتال، خافين عنهم السبب الحقيقي وراء تجنيدهم، فيما شُيدّت مصانع لتصنيع الأسلحة، ولم يكتفي شنوات بذلك بل طلب من المهندسين ابتكار أسلحة جديدة رادعة لبأس الجنود السيواتين، ومتحدية للضباب ومجاهله.

هذه المواجهة المرتقبة لم تكن الأولى في الصراع، فقد حاول شنوات الاستيلاء على حصون السيواتين –من قبل- وباءت كل محاولاته بالفشل، وذلك بسبب نهر الضباب العقبة الطبيعية الوحيدة التي تقف عائقًا عن تحقيق كل مملكة لأطماعها في المملكة الأخرى، وقد كانت أرضهما في قديم الأزل أرضًا واحدة، ولم يستطع أحد منهم عبور النهر بنجاح إلا مرة وحيدة استطاع فيها السيواتين العبور مجتمعين وخفي السبب، ولما جاء كبير الكهنة كاعبر بنبأ الجسر الذهبي فرِح به شنوات واعتبره الخلاص، وعزم

هذه المرة على إنجاح العبور، وهدم قصر الملك يونسي فوق رأسه وضم مملكته إليه، والسيواتين يظنون أن الملك شنوات غافلًا عما يدبرون.

مرت السنوات؛ والجسر في طور البناء، ولم يسل دم القربان بعد لتقديمه للنهر كإله، ازداد النوباتيون خلال تلك الفترة قوةً وبأسًا، ودرِّب على القتال كل ذكر قادر على حمل السيف، وانتظر النوباتيون ما ستسفر عنه الأيام من أقدار مُمِيتة، ناتجة عن قرارات يتخذها الملك شنوات، إذ لم يكن طبيعيًا ما يُعدُّ له في مملكة النوبات المحبة للفن والعمارة، ولم تهتم يومًا كل هذا الاهتمام الكبير بإعداد جيش بمثل هذا الحجم، ومع اعتلاء شنوات العرش بعد الموت المفاجئ لأخيه سورابي، الذي لم ينجب إلا بنتًا واحدة تغيرت عقيدة النوباتين الحربية.

وكلما يتباطأ السيواتين في مد الجسر يزداد جنون شنوات بخطته، فعجّل ببناء مقبرته التي تناطح السماء في العلو قرب الشلالات بالإقليم الأوسط، وكان هذا خروجًا عن المألوف، حيث اعتاد أجداده بناء مقابرهم الملكية بالقرب من مدينة قُصر عاصمة النوبات، لقد أسرف شنوات في بناء مقبرته وزخرفتها إلى ذلك الحد الذي لم تكفها موارد المملكة، ففرض ضرائب إضافية على الشعب سماها ضريبة المعابد واقتطعها لمقبرته، وكان كلما أحس بمللٍ زار موقع المقبرة وأشرف على تشييدها بنفسه.

في يوم من الأيام أشار عليه كبير الكهنة كاعبر ببناء معبدٍ فريد بالقرب من المقبرة والشلالات يكون آية في الجمال والحسن، ويكون قصره وحديقته في الحياة الثانية بعد أن تفيض روحه، فوافق شنوات على المُقترح بعد اقتناع كي يخلد المعبد اسمه في الحياة الدنيا، واختار جزيرة صغيرة أمام الشلال لبناء المعبد عليها، ورفع ثمن الغِلال للإنفاق على بناء هذا المعبد، وهكذا ولِدت فكرة بناء معبد الجزيرة الذي أثار سخط الشعب وزاد من تجويعهم، وكلّف مهندسين من الإقليم الأوسط ببنائه، مهندسين معروفين بتصاميمهم الجميلة البديعة المتناسقة مع الطبيعة. واقترح بصفته إله أن يبنى صرحًا شاهق العلو عله يصله بالسماء، فصمم المهندسون مسلة نحتت من الجرانيت، كانت الأطول ارتفاعًا في زمانه، فبدت وهي مزروعة بالأرض كأنها تنكز السحاب فيتبدد.

وكلما مر على مقبرته زار المعبد، ووقف أمام المسلة طويلًا يتأمل عظمتها، ويباهي بها الإلهة التي لم تستطع بلوغ إنجازاته، ويتذكر أجداده الملوك العِظام الذين عجزوا عن ترك أثر يخلد أسمائهم في الحياة، وكلما مرت على عقله هذه الأفكار يزداد إعجابه بنفسه، فيُسرِف أكثر على المقبرة والمعبد، حتى أصبحا زينة للناظرين، فيما الشلالات من خلفهم تنثر رذاذ الماء في الأجواء الحارة.

ولم يلهه الأمل بتخليد اسمه؛ عن حلمه الأكبر بضم مملكة السيوات إلى ملكه، وكان ينشر رجاله ليتجسسوا على الجسر وظل يترقب بفارغ الصبر انتهاء السيواتين منه، وود لو ساعدهم في بناءه للفراغ منه.

عاش النوباتيون أسوأ أيامهم تحت حكم الملك شنوات، فقد استأثر الملك وحاشيته بالتجارة واحتكروا السلع، وكل هذا البذخ المُبالغ فيه كلّف المملكة أموالًا طائلة دفعها الشعب من قوته، ولما رُفعِت أثمانُ السلع أضعافًا مضاعفه كسدت التجارة وندر الذهب، فضرب الفقر القري مما أنذر بقدوم مجاعة لن تجد ما تأكله. والملك شنوات لا يبالي بالناس طالما لا يؤثر ذلك على أعماله وتحقيق أطماعه الكبرى. فجاءه كاعبر بعد تفاقم الأوضاع يسأله تخفيف معاناة الناس، وقال له:

- أيها الملك الخالد المعظم أصيبت المملكة بالقحط، حيث احتكر بعض الرجال التجارة فشحت الغِلال وكثر الجوعى والمحتاجين، فأسألك تخفيف معاناتهم ومساعدتهم. فتعكر صفو الملك واسود وجهه، وتحول هدوؤه إلى سوط عذاب يجلد به ظهر كاعبر وصرخ به:

- وماذا تقترح علي؟ فتح المخازن الملكية التي أطعِم منها أهلي لإطعامهم وهم كسالي؟

- لا يا سيدي الملك! لكن التجار احتكروا قوت الناس، وضاعفوا أثمان البضائع، مستغلين تفاقم الحاجة، أسألك يا سيدي درأ يد تجارك.

- ما كان لي أن أتدخل في بيعهم وقد كفلت لهم حرية التجارة في مملكتي، ورجالي يراقبون حركتهم فلا يجرئون.

- لكنهم فعلوا يا سيدي الملك! واستضعفوا الناس، وأضف إلى ذلك الضرائب التي فُرِضت لتكوين جيش كبير وتسليحه ولإكمال بناء المقبرة والمعبد.

- أتريدني أن أترك مملكتي بدون جيش أو أسلحه والسيواتين يستعدون لغزونا؟! ألم تُشرِ عليّ أنتَ ببناء معبد الشلالات وسعدِت بضريبة المعابد؟!

- بلى لكنني لم أكن أدري أن عواقب هذا الأمر ستكون هكذا!

- أن كنت تخاف على الناس فأفتح لهم مخازن المعابد وأطعمهم منها فهي ملئ.

عنادُ الملك شنوات سوف يكلفه الكثير؛ خاصة وجسر الذهب شارف على الانتهاء، وجاء الجواسيس يبشرونه بنزول العمال السيواتين على ضفة النوبات ليلًا حيث يعملون في صمت على غرس جذوع الأشجار في قاع النهر،

تمهيدًا لرص ألواح الذهب فوقها، فرح الملك بيومه المنتظر، واستدعى كبير القادة تاضوس للتشاور معه وتاضوس يرفض فكرة عبوره النهر إلى السيواتين، بل يرفض فكرة الحرب من الأساس، فقال الملك شنوات:

- أحببت الدِعة وجبنت؟ وقد حاربت في معارك كثيرة.

- كلا يا سيدي الملك لكنني أخاف دخول الجيش إلى أراضٍ مجهولة له، وبأس السيواتين –كما تعرف- شديد.

- لقد أنفقت على الجيش طوال العشر سنوات الماضية، ولم أبالي بنفاذ خزائني أو بجوع الناس استعدادًا لهذا اليوم.

- استبقه إذًا يا سيدي لحمايتك، ولا تُرهقه في حرب مضت وعرفت نتيجتها.

- ويحك أيها الجبان! لقد أفسدت الشيخوخة عقلك، فانهزم اليوم ولم نكن بمثل هذه القوة ولا هذا العتاد من قبل؟

فأظهر تاضوس موافقته تحت ربكة إصرار الملك على الغزو، ولحاجةٍ في نفسه يدبرها مع حورحور، سوف توفر هذه الحرب الظرف والغطاء المثالي لها.

أكمل السيواتين بناء الجزء المتبقي من الجسر من الضفة النوباتية بحرية، واستنزفوا ذهبهم في الجسر اعتقادًا منهم أن نهر الضباب سوف يصبح نهر سيواتي خالص لهم، ومع انتهاء البناء بدت الحرب وشيكة الوقوع، وكل الأطراف مُستعدة لمعركة حاسمة أخيرة إما النصر أو الفناء.

وجمع شنوات قادة جيشه لوضع خطة الحرب، وحضر كبير الكهنة لمباركة خطواتهم فكان أول المتكلمين:

- إن الإلهة أمرتنا بالحرب كما أمرتنا بالسلام، وتباركنا اليوم أن كنا مضطرين للقتال.

فوقف الأمير يوحب قائلا:

- سوف تتسع مساحة أرض الإلهة؛ بالتأكيد تباركنا.

فأومئ الحاضرون بالموافقة رغم أن بعضهم غير مقتنعٍ كليَا، وقال الملك شنوات:

- دعوكم الآن من الإلهة فهي لن تهبط عن عروشها لتقاتل معنا.

فاستنكر كاعبر كلام الملك، فأسكته الملك بإشارة من يده وأردف:

- طوال عصور خلت؛ فعل السيواتين بإخلاص ما لم يخطر على عقولنا، وعلينا أن نكون أول العابرين على الجسر نحو العالم الآخر المستعصي علينا فتحه، فيا أيها الملأ أفتوني في أمري؟

قال تاضوس:

- لقد بنو الجسر لغزونا؛ فدعهم يعبرون النهر ثم نباغتهم عند السهل ونبيدهم.

قال قائد الحرس الملكي حاتبتي:

- لا نأمن عبورهم إلينا وربما تتأذى القرى، فلنعبر نحن إليهم ونقاتلهم فوق أرضهم.

فأجابه تاضوس باستخفاف مشوب بشيء من الحنق:

- نحن نجهل أراضيهم، ولا نُجيد القتال إلا فوق أرضنا.

فانزعج الملك منه، ومن تلميحه الذي ذكّره بأحداث ود لو نسيها.

وقال قائد إحدى الفرق:

- نعم الرأي رأي القائد تاضوس.

عندما احتدم الجدال قال الملك ليوحب الذي يستمع لآراء الحاضرين بتفحص:

- بما تشير علينا يا أمير يوحب؟

- ما قاله حاتبتي صحيح يجب قتالهم بعيدًا عن ديارنا، ولتكن تلك الديار ملجأً لنا إن لم يحالفنا الحظ وخسرنا المعركة، وما قاله تاضوس صحيح أيضًا فنحن نجهل أرضهم ونجيد القتال فوق أرضنا.

فقاطعه تاضوس ساخرًا:

- هل تقترح علينا أن يكون النهر ساحة المعركة؟

فاعتدل الملك وقال:

- ولما لا يا كبير القادة؟!

ثم التفت إلى يوحب قائلًا:

- أكمل يا يوحب فإني أسمعك.

- نتربص بهم بين الضباب وننتظر عبورهم، ثم ننقض عليهم وهم في غفلةٍ ونمزقهم كل ممزق.

فقال حاتبتي موجهًا كلامه ليوحب:

- نعم الرأي هو.

وأثني الملك على يوحب، وأُعجِب الحاضرين برأيه باستثناء تاضوس الذي أخفى انزعاجه، وقال:

- وكيف سنراهم خلال الضباب؟ ربما قاتلنا أنفسنا!

فقال حاتبتي:

- نحرق الحِراش بهم، ونتصيدهم بسهامنا كما نتصيد طرائدنا.

فأعُجِب الجميع برأي حاتبتي ومن بينهم تاضوس، وقال كاعبر:

- كيف سنوقد النار وأرض الضفة رطبة؟

فقال يوحب بسرور:

- نستخدم بول الشياطين.

فانتفض كاعبر غاضبًا وقال بحزم:

- إن منابع بول الشياطين ملعونة، ملعون من يقربها.

فقال الملك:

- اهدأ يا كبير الكهنة، هذا السائل الأسود الملعون سريع الاشتعال ولا يوجد أمامنا بديلًا غيره، فإن كان ثمة حل آخر فهاته إنا إليكَ لمستمعون.

- لكن يا سيدي الملك ستصب علينا الإلهة جام غضبها.

- كما قلت لك لن تقاتل معنا الإلهة، فدعك من إرضاءها الآن، وقدّم لها القرابين فيما بعد.

واعتمد المجلس اقتراح الأمير يوحب والقائد حاتبتي كخطة للحرب ثم انفض.

وتوجه تاضوس على الفور إلى القصر الأبيض لمقابلة حورحور التي كانت في انتظاره، فلما رأها قال يبشرها:

- لن تسنح لنا فرصة أفضل من تلك.

- أنا خائفة يا تاضوس! شنوات ليس سهلًا كما تظن.

- أعلم؛ خاصة في وجود يوحب وحاتبتي، لكن غزو السيوات سيكلفه موارد إضافية، ومن ثم يثور الشعب ضد إفقاره، وسوف يضعه كل ذلك في موقف العاجز.

- لا أطيق صبرًا لأسترد أملاك أبي التي أخذها شنوات مني عنوةً!

- سوف تستردينها وتحكمين باسمك من داخل قصرك هذا، أنا أعدك بذلك.

فنظرت إليه حورحور مُشككة ثم قالت:

- علك تَصدُقُ يا تاضوس، فما كنا نخاف منه وكان ضعيفًا بالأمس، أصبح أقوى بكثير، وكَبُر يوحب وأصبح يتصرف في أمور المملكة.

- سوف تكون معركة الجسر آخر معركةٍ يخوضها يوحب وحاتبتي وستكون ساحتها مقبرتهما.

- ماذا تنوى أن تفعل؟

- سوف أقتلهم فيخلُ لنا الطريق.

سنورع دائم التردد على الجسر، يخاطب العمال والجنود ويوزع عليهم الهدايا، وينثر عليهم المديح، ويتنقل بينهم حتى المساء، يصارعون العوامل الطبيعية والضباب والزمن للانتهاء من تشييد الجسر، وعندما حطت أقدامهم على شاطئ النوبات لم يُشعِلوا نارًا ولم يُصدروا صوتًا، وزِيد عدد العمال الماهرين الذين عمِلوا في الليل فقط.

يحلم سنورع كما يحلم ملكه باليوم الذي يعبُر فيه الجيش ويغزو النوبات، ونارمر صاحب الدم النوباتي الخالص يشاركهم الحلم، فأصبح هدم حصون النوبات والقضاء على جيش شنوات هاجسًا، في وقت يشتد فيه العداء بين المملكتين أصبحت كل الأهداف الحربية مرتبطةٌ بهذا الهاجس. رغم حرص سنورع بإخفاء أمر الجسر عن النوباتين اكتشفه كاعبر صدفةً عندما ضل الطريق إلى جبل النور، ولم يعد الجسر سرًا، وبينما سنورع جالس يخطط

لمفاجأة شنوات، يستعد شنوات لمهاجمتهم واستئصال شأفتهم، ويحتفظ بخابي كأسير عنده؛ وكل المقادير تنتظر النفاد.

تأهب الجيش السيواتي مع اكتمال الجسر، وانتظر أمر الملك يونسي بالعبور، فتباطئ يونسي في إصدار القرار فقلبه يحدثه بالتقاعس وعدم العبور بجيشه، رغم ما عُرِف عنه من الشجاعة وجرأة كبيرة على الموت، وكان أبوه الملك السابق للسيوات يلاحق النوباتين أينما وجدِوا، وبعد تردد مريب من الملك؛ استدعى سنورع وقادته، وأحضر نارمر على عجل من حصن الغابات، فيما الأخير يزهو كالعادة بهيئته.

وقال الملك:

- تلك اللحظات عصيبة! أفتوني ما كنت قاطعًا أمرًا حتى تشهدون.

فكان سنورع أول المتحدثين:

- سيدي الملك يونسي لقد انتظرت هذا اليوم طويلًا، وقدمت قربانًا من الذهب لنهر الضباب كي يحملك إلى أعدائك فتبيدهم جميعًا، وأعددت جيشًا قويًا لهذا اليوم، لذا سوف ننتصر عليهم بمباركة الإلهة.

- لكن يا سنورع كل المحاولات السابقة لاختراق حصونهم باءت بالفشل الذريع يجب ألا نتسرع.

- بلى يا سيدي لكن هُزمنا بسبب الضباب والنهر، فحصونهم هشْة بُنيت لتخيف الظلام فقط.

قال نارمر:

- وفيما العجلة! ستكون الجولة الحاسمة بيننا وبينهم، فوجب التخطيط لها جيدًا وبتأن.

ارتاح قلب الملك يونسي لرأي نارمر، فيما انزعج منه سنورع فأجابه بانفعال شديد:

- وفيما العجلة؟! تحملنا الكثير من المشقة وواجهنا الكثير من الصعاب من أجل هذا اليوم، ونستعد له مُنذ عشرات السنين، وقد استعد له جيدًا كل فرد في هذا المجلس، منذ كان بعضهم مجرد فارسٍ صغير، ففيما العجلة؟! .. إما اليوم أو لا.

فصاح كل القادة بالموافقة، وعلا اللغط فانزعج الملك وأمرهم بالهدوء، وقال مُنهيًّا الاجتماع:

- سأعلمكم بقراري عندما أقضى في الأمر.

فور خروجهم عاتب سنورع ابنه نارمر بشدة، لموافقته الملك في خوفه، وقال: ماذا تعرف أنتَ عن الحروب لُتدلي برأيك؟ كان يجب عليك أن تقف

بجانبي! لا تجعلني أكره هبة الإلهة! وبينما يُضيّق عليه الخناق تعجب نارمر منه، فما غضب أبيه نصف هذا الغضب طوال حياته، فلما همّ سنورع بالمغادرة لحقه نارمر وعيناه ترقرق بالدموع وقال: إنك عندي يا أبي أكبر من أن أُغضِبك. فقال سنورع: لا تُخزِني يا نارمر فقد نشأت على بُغض النوباتين! كذلك كل القادة، ونحن على أتم استعداد لملاقاتهم والملك يُحجِم؟ فقال نارمر: يا أبتي إنّ بدء حربٍ كبيرة ليس بالأمر الهين؟ فأجابه: ستنشب الحرب يومًا ما لا محالة؛ فيجب أن نباغتهم نحن بالهجوم كي تكون يدنا هي العليا. ثم قال: هلم بنا يا نارمر نتجول في حديقة القصر سأقص عليك حكاية. كشف سنورع في الحديقة عن كتفٍ بها أثر جرح قديم، وتحسسه قائلًا: من النوباتين. وأردف "عبَرت فرقة من النوباتين النهر وتجمعوا عند المستنقعات وهاجموا قريتنا، كنت يومها طفلًا لا أتجاوز السابعة لكن الحادث ظل محفورًا في ذاكرتي، حيث قتلوا أبي وأمي، وحين حاولت الدفاع عنهم جُرِحتُ في كتفي، لا أدري لماذا لم يقتلوني وتركوني أتجرع غصص الفقد واليُتم؟ إنهم بحق مجرمون، لقد أبادوا حينها القرية بأكملها، فأقسمت منذ ذلك الحين أن أشب وأكبر، لا لشيء إلا لأقتص منهم، وأخذ بثأر والدي واسترد أرواحهم وجميع أرواح أهل القرية التائهة في الملكوت" أشفق نارمر على سنورع لكنه يؤمن بأن التسرع داء، والخطأ في هذه الحالة سوف يُكبدّهم خسارة لا تعوض، خسارة ربما يفقدون بها

مملكتهم وحريتهم، فأخبره أن التخطيط الجيد للمعركة يكفل له النصر وهذه مهمته فهو أجدر قائد بالجيش.

هبت ريح خفيفة عصفت بالأوراق المتساقطة، فتطايرت بين الأرجل كسرب طيور غاضب، يتأمل نارمر السماء وسنورع يتأمله ويتذكر خابي، فلم تُفلِح الذكرى في كسر شوكة قلبه، يتأمل من رباه وليدًا، فتنتابه مشاعر متناقضة، يحبه ويغار منه قليلًا، يغبطه على حب الملك يونسي له، ويخاف أن يُفضّلهُ الملك عليه، ورغم تلعثمِ عواطفه ود لو يبقى نارمر بجواره يشهد انتصاراته، ويشد عضضه به. قلبُ سنورع ليس بالقاسي ولا بالرحيم، إنه رجل فقد أباه وأمه منذ طفولته، فلم يعد يعرف للحياة طعمًا ولا معنى، فنشأ على بُغض النوباتين ولم ينس لهم أنهم قتلة. والملك يونسي يدري بما يدور في ذهن قائد جيشه، وقد غرس داخله هذا الشعور وعظّمهُ، عله يأتي يومًا فيجني ثماره ويزيد من رقعة ملكه، وبالمثل نشأ الملك شنوات وقادته على بُغض السيواتين. أطماع تحكمها أطماع، فلا الأطماع تتحقق ولا النفوس ترتاح.

مع برودة الطقس تفجّر في نفس سنورع حنين عميق لدفيء جبل النور والتحدث مع كبير العرافين، لم ينتظر كثيرًا واصطحب نارمر معه ومضى يقول: سأعرفك بالمكان الوحيد الذي لم أذكره لك، هناك ستجد كبير

العرافين، الذي سيحدثك عن الغيب كأنه رأي العين، وربما يُحدثك عن ماضيك، فالماضي ليس بأقل أهمية من المستقبل.

ذهبا وحدهما وبدون حراسة، المسافة الفاصلة بين العاصمة وجبل النور طويلة لكنها ليست شاقة، لذلك أمضياها في تبادل الحديث، تجتاح سنورع حالة غريبة بالإفصاح عن مكنونات صدره لشخص يثق به، فعلم نارمر كل ما جهله طوال عمره عن سنورع أثناء نهار واحد، فتأصلت معرفته به كأنه لم يعرفه من قبل.

خلعا نعالهما في حرم النور، وترجلا صاعدين الجبل، شعر سنورع بعظامه تتمزق وأنها ما عادت صلبة مثل السابق، فتمسّك برغبته في الانتقام قبل فوات الآوان. والجبل صامت يكسوه وقار الحكمة، ويود لو أنه ينطق ليقص قصص كل من اعتلوه وعاد بعضهم فرحين، ومذ سكنه كبير العرافين متاح والدموع نضبت وانعدم الحزن من قلوب الهابطين. أصبحت النسمات لطيفة، وتزداد كلما بذلوا جهدًا، وعندما وصلا القمة وقف نارمر يتأمل الأفق المترامي على مد بصره، فقال سنورع: الآن ستشاهد أغرب مكان قد تراه في حياتك معبد النور الملكي.

وجد نارمر المكان بسيطًا متواضعًا، لا يستحق كل تلك المشقة للوصول إليه، لم يبهره المعبد كما أبهر غيره من العامة، لكنه تعجب من غاية أحدهم ببناء مبني كهذا فوق هذه القمة الشاهقة ذات الحيز الضيق!

أدي سنورع طقوس العبادة بالترتيب، وقلده نارمر دون اقتناع وتمني لو يرجع من حيث جاء، ثم انتابه الفتور والسأم حتى وهو وسط هذا الخضم من المشاعر المتبادلة بينه وبين سنورع، خرج متاح لاستقبالهم في رداءه الديني الأسود وتصلبت عيناه على نارمر، ونارمر صامتٌ يتأمله بدوره. فبادره سنورع بالتحية فرد عليه متاح التحية وهو لا يشيح وجهه عن نارمر وقال:

- أطلتَ الغياب هذه المرة يا سنورع.

- أعتذر منك، هذا نارمر الذي حدثتك عنه.

- أعلم من يكون هو.

ثم صمتا فأشار متاح إليهما بالدخول، فجلسا داخل الصحن وأخذ نارمر يرتشف الماء من العين ويروي ظمأه، فقال متاح:

- يا سنورع إن أقمارك مظلمة ونجومك باهتة.

- أهناك ما يسوؤني؟

- كلا، لكني أحذرك من مغبة عِنادك، والضغينة التي يحملها قلبك الرؤوف.

كرِه نارمر كلام متاح، واستوحش قلبه المكان بساكنيه، فلا تسعه الأودية الحمراء برحابتها، ومتاح يراقبه بتوجس مريب، يحاول أن يستشف باطنه ليعرف فيما يفكر. قال له متاح كي يكسر جبل الجليد بينهما:

- هل أنت بخير؟ هل أتعبك الصعود؟

- لا! سئمت الجلوس بلا حراك.

- تجول في المكان فهو لك، واحذر أن تذل قدماك فتسقط.

- شكرا لك، إني أفضل البقاء مع أبي.

فقال سنورع مُتلهفًا معرفة الجواب:

- جئت بعد تأهب الجيش لعبور النهر وغزو مملكة النوبات، فاستطلع لنا الغيب وأخبرنا لمن تكون الغلبة؟

- أتشك في منطق الكون! منذ بدء الخليقة والغلبة تكون لمن أحسن الاستعداد، النصر حليف الأقوى.

- دعك من هذا الآن يا متاح فيجب أن أعود على الفور، وأنبئني بالطالع!

- يمكنك الإجابة على سؤالك، فأنت من أعددت الجيش، وقائده.

- طوال عشر سنين ونحن نستعد جيدًا، وسخّر الملك موارد المملكة لخدمة هذا الهدف وأعد جيشًا كبيرًا يكتسح به ظلم العالم.

فقاطع نارمر حديثهم وقال:

- إن قوة الجيوش تعتمد على مستوي القوة الذي وصل إليها الخصوم، فحسبه أن يكون هو الأقوى بينهم كي لا يفاجئه العدو بما يسوؤه.

فقال متاح:

- صدقت يا نارمر، إنك تتمتع بحكمة أمك.

فقال سنورع مرتابا:

- هل فاتني شيء يا متاح؟

- كلا! لكن يجب ألا يفوتك شيء عن عدوك.

- عيوننا لا تغفل عنهم فجواسيسنا منتشرة بكل إقليم.

- وهل نفعوك؟

- علمنا أن شنوات يُعدُ جيشًا قويًا وينفق على إعداده ببذخ، لكن ما الفائدة! فكلنا نعلم أن النوبتين يُعدون الجيوش القوية طوال تاريخهم، ثم يحاربون بها أنفسهم فتكون حسرة عليهم.

- احذر هذه المرة يا سنورع، فقد كَبُر جنون شنوات وازدادت أطماعه في حكم الأرض.

- لم يعد شنوات قويًا كالأمس، إنه يعجز عن إخضاع زوجته فكيف ينجح في إخضاع الأرض كلها؟!

- أنت مخطئ فشنوات لم يفقد مهارته ويمتلك قادة أكفّاء.

قال نارمر:

- تحركات النوباتين هذه المرة مريبة، فقد أعادوا ترميم الحصون على طول النهر وشيدوا حصون جديدة أشد مَنعة، لابد وأنهم يُدبرون لأمر ما يجب أن نعرفه قبل فوات الآوان لهذا زارك أبي، فأرنا ما تقول دون مُراوغة.

صمت الجميع في انتظار الجواب، فدخل متاح صومعته ورفع يده إلى أعلى فانزلقت عباءته، تأمل سقف الكهف المجهول ثم أغمض عيناه يرتل تراتيل بلغة غير معروفة، وانتظراه بالخارج بصبر.

السماء صافية والقمر بازغٌ يُبشر بسلام دائم، والنسمات الباردة تُخفف من لهيب الثأر المشتعل بقلب سنورع، حاول نارمر من شدة خوفه عليه إطفاء جذوة هذه النار فأخفق، خاف عليه الهزيمة في آخر أيامه فيلحقه العار، وقلق من شيء جهله يتخفى خلف الحرب القادمة، فقال وسنورع متأملًا ببصره في الأراضي البعيدة: يا أبتي ما سبب العداء بيننا وبينهم؟ فأجابه سنورع بعفوية: في الحقيقة لا أدري! العداوة بيننا ضاربة في القدم. سخر نارمر من السذاجة التي أصبح فيها العالم، حرب لا يدري من أشعلها يصر المتألمين منها على إيقاد نارها بأرواح جنودٍ وأبرياء لا ناقة لهم فيها ولا جمل، فوبخ أطراف الحرب في نفسه وحقرهم، وغاب في ملكوت آخر ينتشر فيه الأمن والسلام، عكس المتواجد به، قال سنورع:

- أين ذهبت؟!

- في حياة أخري فيها يأمن الناس على ممتلكاتهم وأرواحهم.

- هذا محال يا نارمر، لطالما تواجد في كل الأزمنة طمع وجشع يشبه ما عليه النوباتين.

- أنت تبالغ! إنهم أُناس مثلنا تمامًا، وبماذا يصفونا هم؟ لابد وأنهم يصفوننا بمثل ما تصفهم أنت.

- أتقترح علي أن أمُد لهم يدي بالسلام بعد كل ما فعلوه؟!

- ولما لا إن جنحوا هم للسلم، فما فعلوه فات وانقضى عهده.

- فقدت رشدك يا نارمرا! لن يرجع شنوات قبل الاستيلاء على مملكة السيوات.

- هذا مُحال، كما الاستيلاء على أرضهم محال، والأخذ بثأرك أيضا مُحال، كل هذا ضرب من الخيال، لقد فرّقت الإلهة بيننا بالنهر وحفته بالضباب كي تعصمنا من جشع بعضنا البعض.

فغضب سنورع وطاش عقله:

- الأخذ بالثأر ليس جشعًا، والإلهة راضية عن الملك وتبارك تحركاتنا.

خرج متاح من خلوته وقال مقاطعًا:

- الإلهة تنصر الحق، والحق يحدده الأقوى.

- أرأيت يا نارمرا! النصر ليس مرتبطًا بالخير أو بالشر بل النصر مرهون بالقوة.

- إن كانت هذه إلهتكم فأنا أكفر بها! القوة تُستمدُ من الحق، والنصر حليف الحق.

فقال متاح بهدوء:

- الحق مرهون باعتقادك! أنما الحق فهو العدل. فإن قلت لك أنك سوف تنتصر وأنت الباغي هل ستحجم؟

- أتنكر الحق وأنت كبير العرافين وتتعبد للإلهة؟

فقال متاح:

- اهدأ يا نارمر! هذه ليست طريقة للنقاش لقد أورثت اندفاع النوباتين.

- لا اعتقد أن النوباتين بهذه الغِلظة والجَلف كما تخيلون لي.

أدارت كلمات متاح ذاكرة سنورع، فعادت الأحداث والذكريات القديمة إلى السطح، تذكر يوم التقى بنارمر طفلًا رضيعًا يبكي بقعر قارب قادمًا من المجهول، طوال عمره وهو يشكك في نسبه وأصله وتضنيه التكهنات، بعدما أخبره متاح أنه لا يدري أصله، الآن تأكد له أن الدم النوباتي يجري في عروقه رغم انتمائِه الخالص لمملكة السيوات، فأراد الصراخ في وجهه بقوله أتحن إليهم! ولقد لفظوك وربيناك فينا وليدًا! وقبل أن ينطق أحجم لسانه، وقال:

- لما كل هذه الجلبة يا نارمر؟ لماذا تدافع عنهم؟

- لا أفعل! إني أحب الخير لسيواتين والخير في السلام.

- وهذا ما أريده أيضًا، لكن ما دام النوباتين فيها فلن يعم السلام أبدا فكلما انطفأت نارًا للحرب أوقدوها.

وعم الصمت المكان، وعلتهم رزانة الملوك القُدامى العِظام، وبعد قليل من الصمت قال نارمر لكبير العرافين:

- أعندك شيء لتقوله قبل مغادرتنا؟

- الحرب نار لا تحرق إلا الباغون. وسوف يعتدي عليكم شنوات وجُنده فلا تخافوهم فإني رأيت السلام يعم المملكتين، والناس تتنقل بين الضفتين آمنة، وقد زال مُلك شنوات وجلس على عرشه ملوك عُدّلٌ يحكمون بين الناس بالقسط.

فغادرا جبل النور وكلمات كبير العرافين تتردد في عقولهم، وتجد لها صدي مُفرح في قلوبهم، وقد اطمئنوا لنصر قريب.

الملك يونسي يتحرق شوقًا لمعرفة ما يحمله سنورع إليه من متاح، فلما وقف سنورع بين يديه ووجهه متبسما استبشر، وعلم أنه قد أتى ببشرى النصر، فبادره بالسؤال:

- بما عُدت يا سنورع؟ إني أراك فرحًا.

- عدتُ بالبشرى يا مولاي، تنبأ لك كبير العرافين بالنصر على شنوات.

- أهذا ما قاله بالتحديد يا سنورع؟

- نعم يا سيدي! ما كُنت أخُفي عليك أمرًا يُحزنك، وقال أن السلام سيعم أرجاء المملكتين وأنبأني بهزيمة شنوات وموته.

- ائْتِنِي به يا سنورع في الحال.

خشي سنورع عندما يلتقي الملك يونسي متاح أن يتراجع عن قرار الحرب، لكنه امتثل لأمر الملك كي لا يُثير غضبه، متمنيًا أن يرفض متاح القدوم كما رفض كل الدعوات السابقة، وأرسل جنده على مضض ليأتوا به إليه ليقابله أولًا وذلك إذا قبل المجيء معهم، وبعد بضعة أيام حضر كبير العرافين فأنذره سنورع، ألا يخبر الملك بشيء يجعله يتراجع عن الحرب.

ووقف متاح أمام الملك فمدحة وأثني عليه فقال الملك يونسي:

- أويتك في أرضي بعدما طردك شنوات، ولبثت فينا من عمرك سنين.

فقال متاح مُبتسما:

- هذا فضل ومنة منك يا مولاي.

- فأصدقني القول إذن، تعلم أنني سوف أخوض حربًا ضروسًا مع شنوات فبما تتنبأ لي؟

- مولاي يونسي؛ دائما والإلهة راضية عنك، ولم تكف أنت يومًا عن تقديم القرابين لها فكيف تُهزم والإلهة معك.

- وشنوات؟!

- لن يكون شنوات موجودًا على ظهر الأرض في المستقبل وسوف تشقى روحه مع الأشقياء.

- أتقول أنه سوف يموت قريبًا.

- أجزم لك يا سيدي الملك يونسي أنه سوف يُدفن قريبًا مثل الغرباء.

فحلقت الأطماع في عقل يونسي آمنة وديعة، واشتهى سُكنى قصر شنوات الجميل، فتلاشي تردده في الفضاء وأراد أن يسارع ويعلن حربًا أخيرة ينتصر فيها انتصارًا حاسمًا، يتحرر بعدها كل العالم من ظلم شنوات وورثته، وأمر بتجهيز الجيش للتحرك.

أصيب سنورع وقادته بعدوى الحرب الفتاكة، وتحول سنورع إلى شُعلة نشاطٍ متقد، ودار بين فِرق الجيش يتأكد من عزيمتهم وجهوزيتهم للقتال، وعند مدخل الجسر وقف وخاطب الجسر: احمِل جنودنا بسلام إلى الضفة الأخرى، وسوف يكون لك نصيب من العبادة.

وفي ليل ساكنٌ عبر سنورع النهر برفقة نارمر وبعض الفرسان والقادة، تحركوا بهدوء واخترقوا الأحراش والأوحال، فيما الضباب يحفهم من كل اتجاه، فلما جاوزوه وسطع نور القمر في أعينهم؛ استطلعوا الوادي الفسيح، وجواسيس الملك شنوات تتابعهم عن قرب. العيون غافية والطيور آمنة في سربها، والدواب مُستلقية في حظائرها، كل شيء في الوادي يدل على السكون والدعة وعلى غفلة النوباتين وسباتهم العميق، وتسآل سنورع في نفسه؛ وما يدريهم بالجسر؟ وقد عمِلنا في الظلام مثل الشياطين؟! ومن بعيد خلف مرتفع صغير ترابط فرقة نوباتية.

اطمئن سنورع وقال مخاطبًا نارمر:

- كل شيء يبدو طبيعيًا!

فلم يجبه نارمر وقال أحد الفرسان:

- ترى أعلِمَ النوباتيون شيئًا عن الجسر؟

فأجابه السراب، وتأمل نارمر السهل المُنبسط أمامه كصفحة بحر منسي، يحمل هم اجتياحه بجنده دون غِطاء على الأطراف، ثم نظر إلى سنورع وقال:

- أتدري أنّ قلبي يتوجس خِيفه!

- لا تخف فشنوات لا يدري عن الأمر شيئًا.

- ربما يعلمون بالجسر ويخططون لشيء ما.

- إنهم يهابون الضباب والنهر ولا يقربونه بخلافنا نحن السيواتيون، وإذا كان ما تقوله صحيحًا؛ فلن يقدر شنوات وجيشه على صد الجحافل التي ستأتيه من بين يديه ومن خلفه. ألم تسمع بنفسك نبوءة كبير العرافين!

- أنا لا أثق في هذا المنجم، أن نظراته غريبة، ومخيفة تخفى شيئا ما.

- دعك منه الآن، وركز في عملك.

- لقد حدثتني من قبل عن دهاء شنوات ومكره.

- شنوات أصبح مُسنًا يُخرِّف بما لا يَعقِل، وفقد قدراته ومهاراته.

- أتمني أن أكون مُخطئا في ظني.

اطِمَئنوا فظنوا أن لا أحد سيعترض طريقهم إلا على أبواب مدينة قُصر وقفلوا راجعين أدراجهم، فانسلّ الجواسيس وذهبوا إلى الملك شنوات ينبئونه بما حدث، فلما أنبئوا الملك شنوات اجتمع بقادته وصمت الجميع في انتظار أن يبدأ الملك الحديث. فقال:

- سوف يعبر السيواتين النهر في القريب العاجل، ويجب أن نكون في استقبالهم بكامل طاقتنا.

فقال تاضوس:

- ومتى الموعد يا سيدي الملك؟

- عبر سنورع وبعض قادته إلى ضفتنا الليلة، وتفقدا الوادي، لابد وأنهم يجهزون للعبور قريبا.

فقال حاتبتي:

- يجب ألا ينجحوا في عبور الوادي، لأنهم إن عبروا سيكون من الصعب التخلص منهم.

فقال يوحب:

- إذا فلنُنَفّذ خطتي التي اتفقنا عليها من قبل.

أشار الملك إلى تاضوس وقال:

- أشْرِف أنت بنفسك وحاتبتي على تجهيز الجيش والاستعدادات، لا أريد أن يُفلِتَ جُندي سيواتي واحد من الحَرق.

فقال يوحب:

- وأنا أيها الملك الخالد؟

- سوف تقوم وجنودك بنقل بول الشياطين من المنابع، وتغمروا به ساحة المعركة، اغمر كل شيء! الضفة، الأحراش، السهل، ولتسامحنا الإلهة.

وفي الليل زار تاضوس وحاتبتي السهل، وتدارسا أي المواقع أفضل لتتمركز فيها الفرق؟ كما تشاورا في خطة القتال ثم ذهبا إلى منابع الشياطين يتفقدا العمل هناك.

تتواجد منابع الشياطين وسط الصحراء بعيدًا عن النهر، يصدر عنها سائلًا أسودًا قذرًا سريع الاشتعال، ولذلك اعتقد النوباتيون بأنه بول الشياطين ولعنوه، استعففت الجنود النزول فيه، فنهرهم الأمير يوحب فنزلوا يغترفون منه ويملئون أواني فُخارية عِملاقة، نُقلت هذه الأواني –لاحقًا- إلى الجسر وحوله، وساحة المحرقة المرتقبة، يفرغونها في الليل ثم يملئونها بالنهار ويعاودون الكرة، واستخدم يوحب ألفي جندي للعمل لهذا الغرض، واستطاعوا بعد أيام قليلة غمر آلاف الأمتار وزادوها، فحياه الملك شنوات ورفعه إلى رتبة قائد فرقة عسكرية بالجيش تقديرًا لجهوده.

اعتمد سنورع في خطته على عنصر المفاجأة، خطة بسيطة وناجعة إن تحقق شرطها، لا يدري أن شنوات يعلم بخطته هذه منذ أعوام، ويخطط لاستخدامها ضده فيقضي علي الجيش السيواتي -الذي حيّرهُ سنينًا- بضربة

قاضية. وفي الوقت الذي انتظر فيه النوباتيون عبور السيواتين الجسر، كان السيواتيون على أتم استعداد، وصفوف جيشهم مكتملة.

واجتمع الملك يونسي بقادته في قصره قبل التحرك بساعات، فقال سنورع الذي يعيش أفضل أيامه بسبب إقدامه على الأخذ بثأره:

- مولاي الملك يونسي، احتشد جيشك وينتظر أوامرك بالسير لملاقاة عدوك والانتصار عليه.

- سنبدأ التحرك بعد الغروب، ولتحذَر منهم فإنهم ماكرون.

- سيحيق مكرهم بهم يا سيدي، ويولونا الدبر.

- أتمني ذلك فلتبارك الإلهة خطواتنا.

- إذن أصدِر أوامرك بتحرك الجيش.

- ولما العجلة يا سنورع فليس سهلاً إزجاء حرب ضارية، تأنى سوف أقود الجيش بنفسي وضع نارمر قائدًا لمُقدمة الجيش.

فسُرّ سنورع وقال نارمر:

- أشكرك على ثقتك الكبيرة بي يا سيدي الملك.

- أنت قائد حكيم وشجاع يا نارمر وسوف يكون لك شأن عظيم.

قال سنورع وقلبه يتألم من مصابه القديم:

- أنا لا أتعجل الحرب يا سيدي لكني لا أجد داعٍ لتأخيرها وقد طال الانتظار.
- حان الوقت لتحقيق مُرادك، ولن أرجع إلا بعد قتل شنوات والمبيت في قصره.

بدأ الجيشان التحرك، وتأهب الملكان لاقتحام قصور الآخر والمبيت فيه، لا أحد يدري أي قصور ستهجر ويغيب عنها أهلها وأي قصور ستبقي عامرة. واختبأ الملك شنوات بجيشه خلف التلال المُحيطة بالوادي ينتظرون قدوم الجيش السيواتي ليوقدوا به النيران، وقسم جيشه البالغ عدته سبع عشرة ألفًا إلى ست عشرة فرقة، جعل يوحب في المقدمة على رأس أربع فرق، فرقتين من الخيالة وفرقتي مُشاة بمجموع أربعة آلاف جندي، وتاضوس مع تسعة فرق خمسٌ من الخيالة وباقي الفِرق من المُشاة بمجموع عشرة آلاف، ووضع حاتبتي على فرقتين من الرُماة، بمجموع ثلاثة آلاف على جانبي الجِسر خارج حدود مُستنقع البول، وذلك من أجل إشعال النار في الجيش السيواتي بعد اكتمال عبوره ثم قنصهم بالسهام، وأمره ألا يبرح مكانه ويباشر مهمته مهما حدث حتى وإن رآه يُهزَم.

سار الملك يونسي بجيشه قاصدًا أرض مملكة النوبات لإخضاعها، ثم تشييد قصر عظيم على ضفة النهر يحكم منه شطري الأرض. قسّم الملك

يونسي جيشة البالغ عدده إحدى عشر ألفا إلى عشرة فرق، أربعٌ من الخيالة وستٌ من المشاة، جعل فرقتي خيالة في المقدمة بإمرة نارمر والفرقتين المتبقيتين معه في قلب الجيش برفقة ثلاثة فرق من المشاة، وسنورع على ثلاثة فرق مشاة في المؤخرة.

وتحركت كل الأطماع فوق عجلات تحميها الدروع وأرواح جنود لا ذنب لهم، خُلِقوا تحت حكم ملوك جائرين تألهوا عليهما.

تجمّع الجيش السيواتي أمام القُربان الذهبي، عبر نارمر أولًا بفرقة واحدة وترك باقي الجيش وراءه، الجسر هادئ والذهب داكن مطفأ خلال ضباب رقيق لأول مرة منذ ثلاثين عامًا، والنهر وديع رغم أنه يحوي جميع الأرواح الشريرة، فسارت الخيول بصبر وأناءة ونسمات العِشاء تهبُ السلام لمن يجنح للسلام، داهمتهم روائح مُختلِطة من الضفة الأخرى، اقشعرت منها أنوفهم، ثم غاصت أرجل الخيل في بول الشياطين، وتحت جنح الليل والضباب لم يفرقوا بينه وبين الوحل فدخلوا الفخ راضين، تجاوزوا الضباب فإذا بكل شيء في الوادي طبيعي، الليل ساكن والنجوم مطموسة، والطيور ترقد في أعشاشها، وبعض الأغنام والدواب طليقة ترعى بحرية، فتغول نارمر في السهل دون أن يحوم في نفسه شك، فأرسل إلى الجيش إشارة العبور، فتبعته فرقة الخيالة الأخرى لتكتمل مقدمة الجيش، فاتخذ موقعًا

متقدمًا في السهل خارج مستنقع بول الشياطين، لتأمين عبور بقية الجيش بسلام.

ويوحب مرابط يراقب الوضع ويُبلِغ الملك شنوات بالمستجدات، وفرِح لما ابتعد نارمر بخيالته عن ساحة المحرقة ليُرضي شبقه ويشبع نهمه للقتل.

تحرك قلب الجيش السيواتي، والملك يونسي فوق عرشه المحمول مُرتاب يخشي سوء الطالع، نزلت العجلات والأرجل على ضِفة النوبات فغاصت في الوحل والبول، لاقى الجنود صعوبة كبيرة في التحرك، وتوقفت العربات التي تجرها البغال، فضربت البغال لتحفيزها وساعدتها الخيول والجنود بالجر، وخبيب الخيول يتعالى مع انعدام نقيق الضفادع.

ينتظر الفريقان عبور بقية الجيش السيواتي واكتمال نصابه، لخوض حرب ضروس ضد بعضهما البعض، عبر آخر جندي سيواتي من قلب الجيش الجسر، يحمل رمحًا خشبي فوق كتفه مُتخلِفًا عنهم قليلًا، وهنا ظن حاتبتي أن الجيش السيواتي قد عبرَ بكامله، فأطلق من ناقوس عملاق نداء الحرب، وأشعل كرة من الكتان مغموسة في السائل الأسود وقذفها في الظلام، فلما سمع من بالجانب المقابل النداء فعل مثل فعل حاتبتي وأشعل النار.

اشتعلت صفحة السائل أولا في ومضة عين، ثم امتد اللهب إلى العمق مكونًا خطًا عريضًا امتد من ضفة النهر حتى مئات الأمتار من الوادي

وينتشر للأمام من كلا الجانبين، كون شقي النار فك عظيم أحاط بقلب الجيش السيواتي يوشك أن يلتهمه دفعةً واحدة، رأى الجنود النار تَشقُ الضباب وتقترب كأنها شمس تغرب في الأفق، لم يطالهم منها غير الحرارة والأدخنة القاتلة، فلما أدركوا ما يحدث لهم كان الآوان قد فات للنجاة، فاستقبلوا الموت الذي هو مدركهم مذعورين، أشهروا سيوف لن تجديهم نفعًا في وجه النار، اقتربت النار من كلا الجانبين كحدوتي حصان حتى التقتا، التحم شطري النار فكونت نجمًا يحترق، فسقطت السيوف من أيديهم، واستوت جلودهم فوق مُستنقع اللهب يفرون حول أنفسهم لا يهتدون سبيلاً، لا ظليل ولا يُغني من اللهب، وسهام النوباتيين ورماحهم تتصيدهم في كل مكان فلا هم قاتلو ولا هم بقوا، ونشبت النار في العربات ومن بينهم عربة الملك.

النار تجلى الضباب كأنه مؤخرة غول تكويها الحرارة فتتزحزح ببطء مبتعدة، مخلية طريقًا من الجثث المتفحمة أمام جسر الذهب. استطاع الجندي المُتخلِف في الوراء الفرار من الحرق ولاذ بالجسر واحتمي خلف جنود المؤخرة، وسنورع يشاهد المعركة التي خطط لها طوال حياته منذ أن كان طفلاً تفشل، وهو يقف عاجزًا عن نصر الجيش الذي بني في سنين طوال وقد مُزِق تمزيقا، وملكه يُحرَق أمام عينيه ويستغيث به فلا يستطيع نُصرته، يتجرع خليط من غصص كبيرة مُتنوعة من بول الشياطين

والإخفاق والعار الذي سيلاحقه على مدار حياته. يحاول الاقتراب فيمنعه شدة الجحيم الذي أوقده النوباتيون، والحرب تناديه للقتال في المعركة التي دأب على انتظارها، وبعد دقائق طوال كالجبال؛ قُتِل آلاف الجنود وهم يظنون أنهم يباغتون النوباتيين بالموت، واحتلال أرضهم واستعباد البقية الباقية منهم. لن ينفع القتال سنورع ولن يُريحه العَويل ولن يهتدي إلى الطريق إن هو قرر العودة.

مقدمة الجيش بقيادة القائد نارمر تواجه موقفًا عصيبًا، وتقاتل الموت متمثلا في أبشع صوره، فالقتال على أشده بينه وبين الجيش النوباتي بكامل طاقته وفرقه التي تتناوب على نارمر كماء جارٍ، فيما جنود نارمر تتساقط دون مدد يُكمِل به النقص، والنار خَلفه تلتهم جيش مملكته بملكها ليترك المملكة تحت رحمة شنوات وجنده وقد قدموا لهم جسرًا من ذهب هدية تنير لهم السبيل إلى ديارهم.

فأعمل نارمر سيفه مثل سوط من الجحيم، وضرب فوق الأعناق دون رحمة، يخترق الصفوف، هدفه ذلك الفارس الذي يقاتل بشراسة، وكلما أسقط هذا الفارس رجلًا من فرقته اشتد غضبه وغيظه منه.

يوحب يقاتل هو الآخر بشجاعة، أول معركة حقيقيه يخوضها الأخوين، فنسوا كل ما تعلموه وتدربا عليه وقاتلوا بشراسة، مضى يوحب يشقُّ

الصفوف لا يهاب الموت، كل القتلى الذين خلّفهُم وراءه يشهدون له، فأعجب بنفسه وأسخن في القتل، عينه على ذاك القائد الذي يسعى إليه، فكان كل منهما يعرف هدفه، وهدف الآخر.

تواجه الأخوين والنار خلفهم مشتعلة وقودها الناس، وبول الشيطان هذا السائل الأسود الملعون الذي لا ينطفئ، والأجساد المشتعلة تقفز في النهر ككتل من نار تتدحرج وسط الظلام، ضرب الأخوان سيفيهما ضد بعضهما حتى انبعث منهما الشرار، والأرض من تحتهما تموج، خيولهم تضرب الأرض بحوافرها بغضب مُضاعف، وبكل الغيظ الذي يملأ قلب راكبيهما، في غمرة القتال وهو على أشده توالت الضربات دون جدوى فكل منهما يهاب الآخر، لكن ما من سبيل للتراجع، اشتعلت المعركة ولابد من رابح أوحد.

وجهُ يوحب يتصبب عرقًا كأنه يتصعد إلى السماء، وعيناه تحذر طيش سيف نارمر، ويتجنب الموت في أولى معاركه، شحذ همته وقاتل بقوة مضاعفة، تعجبه براعة نارمر في إمساك السيف، فضلًا عن خفته في تلقي الضربات وردها.

بموت يوحب سيكسر نارمر همة الجنود النوباتين وهم ملتفون حوله، ويولونهم الأدبار، رغم ذلك ورغم أنه قتلَ الكثير من جنود السيوات كنّ

نارمر ليوحب احترامًا كبيرًا عندما واجهه، وخف شعوره بالمرارة نحوه، وكذلك شعر يوحب تجاهه، لكن على أحدهما قتل الآخر فلا مجال هنا للرحمة أو الشفقة، على الحرب أن تنتهي لصالح أحد الأطراف، ولتنتهي كل الأحقاد. هل سيدفع أحدهما ثمن أخطاء أبيهما؟ أم أن مؤامرة حورحور ستؤتي الآن أُكُلَها دون قصد؟ إذا كانت حورحور علمت بما يحدث الآن لما حاولت التخلص من يوحب مرارًا دون كلل؟ وتركتهما يتقاتلا وهي تقف مُتفرجة؟!

سيوفهم مطفية تقطر دمًا، وتعالت وهبطت والجنود من الجانبين يسقطون صرعى، وجد نارمر نفسه يواجه جحافلًا لا تنقطع ببقايا فرقتين، وخلفه بقية جيشه يحرق في وعاء من نار، فقرر التراجع للحفاظ على من تبقى معه من جنود مُسخَنين بالجراح وأصدر أمرًا بالانسحاب إلى مكانٍ معلوم عند النهر؛ حُدِدَ لهم قبل المعركة، وقاتل بعدد قليل مؤمّنًا لانسحاب الآخرين غطاءً جيدًا، وحال الوطيس بين يوحب ونارمر، فناداه يوحب للقتال فلم يستجب له نارمر.

الملك شنوات يراقب المعركة من فوق عرشة المحمول، فأمر جيشه بعدم ملاحقة مقدمة الجيش السيواتي وتركها تكمل الانسحاب، وسط اعتراض شديد من يوحب الذي يفضل ملاحقتهم، فأجابه شنوات بأن انسحاب فرقة

واحدة كفيل بإذلال مملكتهم، فتخور همتهم ويُصبح القتال بالنسبة إليهم ضربًا من العبث، فدعهم يستسلمون لك دون جلبة لاستخدامهم فيما بعد.

فلما فَرِغ النوباتيون من مُقدمةِ الجيش السيواتي مؤقتًا وقلبه تفرغوا لسنورع، لكن سنورع كان قد تراجع للوراء، وأدرك أن النوباتيون لن يرحلوا بسلام، فبايع نفسه ومن معه على الموت، واستعد لمعركة انتحارية تكون الأخيرة له يستعيد فيها جزءًا من شرفه المسلوب، بينما ينتظر النوباتيون خمود النار بفارغ الصبر للعبور إليه.

بعد قليل سمع سنورع صوت صراخ ثم نحيب يقتربان، ثم رأى بُقعة ضوءٍ تكبُر، وبعد لحظات ظهر جندي يجري والنار تحرقه يلوح بذراعيه في الفراغ، فاصطدم بدروع جنود المشاة وسقط على الأرض، التف حول نفسه وتلوي مثل أفعي تجرعت سم نابها، فنزل سنورع من فوق فرسه واستل سيفه وغمده في قلب الجندي كي يريحه من عذابه.

أصبح نارمر ومن معه في مأمن مؤقت، وتوجها إلى مكان اتفقا عليه، تتناثر فيها أشجار طويلة كثيفة الأغصان تمثل لهم غطاءً جيدًا، فوجد نارمر المتبقي من جنود الفرقتين بانتظاره يئنون من جراحات لا شفاء لها، أراد نارمر لملمة شتاتهم والعودة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فاعترض الجنود وقالوا إنهم خسِروا وانتهي الأمر. وماذا سيفعل ومعظم الجيش احترق وأصبح

هشيمًا تذروه الرياح، وضاعوا هم في أرض النوبات، فغضب نارمر غضبًا شديدًا وصرخ فيهم: "أجبناء أنتم؟ وملككم يقاتل!" فقالوا "كلا! لقد مات الملك يونسي وجنوده، ولا طاقة لنا اليوم بقتال شنوات وجنوده" في غمرة الحماس ما زال نارمر يقاتل، ويظن أن الفوز يُمكن أن يُسترد من بين أنياب النوباتين، لكن هيهات وجيش السيوات محتِرقُ قلبه، وسنورع ومن معه يغمرهم اليأس والقنوط، وهو يقف وحيدًا مشردًا في أرض أعدائه مع قلة قليلة عاجزة عن العودة للقتال. فقال أحد المقربين إليه:

- أيها القائد نارمر أيهما تحب وسنكون معك فيه ولن نتخلف عنك، العودة للقتال حتى الموت ولا فائدة من ورائه، أم نرجع للدفاع عن أرضنا وقد تعرّت بفقد جيشها؟

نظر نارمر إلى الأدخنة وألسنة اللهب المتصاعدة، يشم بأنفة رائحة الدم السيواتي يحترق، فذرف الآهات وبكى قتلاه، وفجأة توجه نارمر صوب النار قائلًا للجنود: "اعبروا النهر ودافعوا عن مملكتكم إني عائد إليهم" فأوقفه أحدهم وقال: "أنت قائدنا والسيوات تحتاج إليك غدًا وليس اليوم" فصرخ رجل فيهم: "لا وقت لدينا للحزن! سيطلبنا النوباتين ويجب ألا يُمسِكوا بنا" فرجع نارمر وبحثوا عن قوارب يعبرون النهر عليها، فركبوا القوارب مجموعات وقلوبهم تؤذ دما ويعجزهم الجراح، واتفقوا على التجمع عند منجم الذهب المطل على البحيرة.

انطلق الأمير يوحب يطارد فلول جيش السيوات، باحثاً كذلك عن الفارس الذي أجهده بالمبارزة، فوجد آثارهم عند الضباب على بعد أميال من ساحة المعركة، فلم يجازف بنفسه ولا بجنوده ويدخل خلفهم، وارتد للخلف مسافة كافية، ووزع جنود بكل اتجاه للتفتيش عنهم. وتطوع بعض الجنود لتقفي أثرهم بين طيّات الضباب فسمح لهم، فرجعوا خاسئين ولم يعثروا على أي شخص، فذهب يوحب إلى الملك وأخبرهُ بفقد الهاربين، فلم يغضب الملك وقال: هم قِلة ولا خوف منهم.

تجمع القائد نارمر ومن معه عند البحيرة، وتلاه قلة واحدًا تلو الآخر كما اتفقوا، وغرِق الكثير منهم في النهر، فسار نارمر بهم إلى الجسر وانضم إلى سنورع، الذي يُعتبر الآن هو الحاكم الفعلي للمملكة لحين تنصيب خلف الملك، فسر برؤية نارمر بخير، ليس أمامهم وقت للتكهن بما حدث أو تحميل أحد مسؤولية هذه الهزيمة، فهم متيقنون أن النوباتيين سيعبرون النهر قريبًا، فأقسم الجميع على القتال حتى النهاية. واقترح نارمر هدم جسر الذهب، فلم يتردد سنورع واتخذ القرار بهدم الجسر الذي استغرق بناءه أكثر من عشر سنوات، وبذل الكثير من التضحيات لاستكمال البناء، لكنهم تباطؤوا في تنفيذ الأمر وقتًا كافيًا ليكون شنوات جاهزا للعبور وتأديبهم على تطاولهم على ممتلكاته.

اضطر شنوات إلى انتظار خفوت النار حتى يستطيع جنوده العبور وسطها، وقبل العبور جمع قادته ونصّب الأمير يوحب على عرش النوبات لحين عودته من الغزو ويوحب رافض للقرار، فلم يقبل الملك عذره وأبقاه رُغما عنه، ونصحه بفرضِ مزيدِ من الضرائب لتمويل الغزو وسد العجز الحاصل في الخزائن الملكية، وأمر حاتبتي بتأمين عبور آمن للجيش، والتأكد من عدم نصب السيواتيين فخوخًا لهم، وأبقي تاضوس معه.

دحرج حاتبتي كرات أخشاب كبيرة محشوة بالصوف مغموسة في السائل الأسود على صفائح الذهب، وأوقدوا فيها النار وهي تجري في الفراغ دون أن يعترضها أحد، يتعقبها الجنود حاملي الدروع، وبالقرب من نهاية الجسر أطلقوا مزيدًا من الكُرات، فاصطدمت بالمُعدات التي نصبها نارمر على عجل لإحداث نقب بالجسر فاشتعلت بها النار ودمرتها، فتراجع الجنود للوراء مُخلين الطريق لعبور حاتبتي بقواته، فاضطر سنورع للتراجع إلى ما خلف الضباب والأصطفاف، لكن حاتبتي لم يجازف ويتسرع بالعبور، وأرسل الدروع أولًا فنزلت على الضفة وأرسلوا كُرات النار في كل الجهات، فلم تجد غير الفراغ والأحراش، والسيواتيون مُصطّفون أمام شاطئ البحيرة الشمالي متحيزون لقتال يذودون به عن مملكتهم ويستردون فيه شرفهم، ففهم حاتبتي أن السيواتيين افتقروا للوقت الكافي لنصب فخٍ لهم ولا طاقة لهم لذلك. أعجبته شجاعتهم فرغم أنهم كانوا يمتلكون الوقت الكافي للفرار

والاحتماء خلف خطوط دفاعاتهم إلا أنهم بقوا وآثروا الموت، فأمن حاتبتي الضفة ووزع جنوده بكل مكان لتأمين عبور جيش شنوات.

حمل الهواء رائحة شواء لحوم الجنود فتهافتت عليها الغربان من كل حدب وصوب، وعبر شنوات بجيشه فوق الجثث المتفحمة فتكسّرت العظام الباقية، وبقيت السيوف المُنصهِرة تدل على مقابرهم العارية، واجتاز الجسر ونصبَ خيامه أمام الضباب في مكان فسيح يَبُعد عن الجبال مرمى السهام، رغم خروج شنوات منتصرًا من معركة أولى حاسمة إلا أنه اتخذ الأمور بجدية كبيرة، واجتمع مجلس القادة لتخطيط للمعركة التالية، ومَثُل خابي بن سنورع أمام شنوات مقيدًا بالحبال، فقال شنوات له:

- لعلك علمت ما يحدث؟

فقال خابي بنشاط وسرور:

- نعم يا سيدي الملك لقد قتلت الملك يونسي ومزقت جيشه.

- قتلته فنعم، أما القضاء على جيشه فلا، لهذا جئنا بك!

- وما حاجتي؟!

- أما تسأل عن أباك؟!

فتضايق خابي وقال:

- كلا! لقد عاملني كنكرة.

- سوف أرسلك إليه الآن فلم نعد بحاجة إليك هنا.

فصرخ خابي يتوسل للملك شنوات أن يبقيه معه، فلم يجد آذانًا صاغية، واصطحبه الحُراس للخارج، فأمر تاضوس الحراس بقطع رقبة خابي على مرأى من معسكر السيواتيين وتركه هناك ليعثروا عليه، فتقتل في سنورع كل فكرة للتمرد ويستسلم دون قتال أو شرط، ففعل الحراس وقطعوا الرأس وخابي يقاوم مقاومة شرسة وقد آفاق فوقته الأخيرة واسترد رشده قبل أن يلفظ أنفاسه، وتركوا الجسد والرأس مكانه ليلتقطه أهله الذين يشاهدون بالفعل ذبحه دون دراية بهويته، يظنون أن النوباتيين يقتلون الأسرى لتخور عزائمهم، فلما لم يتكرر الأمر تعجبوا، فأمر القائد نارمر بإحضار الجُثة إليه، فلما جيء به إليه ورأى الرأس خر باكيًا.

فُجِع سنورع لموت ابنه، وحزن حزنًا شديدًا لكنه كتمه في نفسه، ليظهر أمام جنوده بصورة القائد الصلّب، وتحامل على نفسه وخرج لتوديع ابنه، فلما رآه لم يستطع منع نَفسِه من البكاء وسط صمت القادة ونحيب نارمر. وبعد زمن من النحِيب أمر سنورع بالتجهيز لنقل خابي إلى العاصمة لدفنة كما يليق، فأسجى الجسد على عربة تجرُها الخيول وسارت به إلى معبد سنو

ليقوم الكهنة هناك بمراسم الدفن في غياب سنورع، فشكر الجنود المصاحبون للعربة خابي لتجنيبه إياهم ألم القتال.

يعلم سنورع وبقية القادة ضَعف موقفهم وقلة حيلتهم أمام جيش جرار، رأى بعض القادة التحصن داخل أسوار العاصمة سيو المنيعة لقلة عددهم، طمعًا في أن تتحطم أحلام شنوات أمام أسوارها، رفض سنورع الفكرة وقرر البقاء والقتال، فحظي بتأييد نارمر مع عدم تفضيل نارمر موقعهم الحالي كساحة للقتال، لكن معضلتهم الحقيقية كانت بانعدام خليفة كفء للملك يونسي، فقد ترك ورائه طفلًا لم يبلغ الحُلُم لا يصلح للحكم وشدته، وبعد مشاورات مُستفيضة بايع الحاضرون الطفل الصغير مَلِكا، وعيّن سنورع وصيًا عليه حتى يبلغ أشده، وأقر الكهنة فيما بعد بوصايته على كره منهم، مع الاحتفاظ بحق الملك كإله في إدارة الشئون الدينية دون تدخل، وبعض الشئون الداخلية للمملكة.

خرج سنورع للجنود وخطب فيهم: "أعلم أن النوباتيين يزحفون إلينا في أعداد كبيرة ونحن قلة، وأنتم منهكون، وفقدنا ملكنا، لكننا لن ندعهم يعيثون في أرضنا فسادًا" فتعالت الصيحات واختلطت ببعض الجلبة، فعاد سنورع للداخل بفكر مُشوَش، لا ير غير القِتال محاولاً التضحية بنفسه في سبيل القضاء على شنوات، تبعه نارمر وعارضه في البقاء هنا أمام البحيرة ومواقعهم مكشوفة للعدو، وأشار عليه باستدراج شنوات إلى موقع آخر

تكون لهم فيه الأفضلية، وانهاكه بكثرة التحرك، فأجابه سنورع: "هل جَبُنْتَ مثلهم يا نارمر؟ أتقترح عليّ أنت أيضًا الفرار والتحصّن خلف أسوار سيو؟" فقال نارمر: "لا أقول بهذا! إنما قصِدت التمركز في موقع آخر يُحقق لنا الأفضلية عليهم" خضع سنورع في النهاية لرأيه، لكنه لن يبتعد كثيرًا واختار مدينة نورس لموقعها الحصين القريب من البُحيرة، وحجر عثرة على الطريق المؤدي إلى العاصمة سيو، وانسحب تاركًا شنوات يفرح بنصره.

تركهم شنوات وشأنهم، فلا يرغب في تشتيت طاقته في مطاردتهم وما زال أمامه الكثير ليفعله، وبدلًا من ذلك قرر إخضاع النهر أوًلا بالاستيلاء على كل الحصون المُمتدة على طول مجراه، فوزع السرايا عليها فسقطت كل الحصون بسهُولة، وفي أقل من شهر استطاع شنوات الاستيلاء على شريط بامتداد عميق داخل مملكة السيوات، وموازٍ للنهر من الشمال حيث الشلال الثاني إلى جنوب النهر حيث جبل النور والمنطقة المُحرّمة، وما خلفها من مجاهل الغابات المُظلِمة، ليُصبح هذا الجزء من نهر الضباب نهر نوباتي خالص. بعد ذلك أمر الملك شنوات ببناء حصن عظيم فوق معسكرهم الحالي قُبالة الجسر، ليكون مقرًا للحكم في هذه الضفة ونقطة انطلاقتهم لاستكمال الغزو، وسمي الحصن حصن شنوات، واستُقِدم العُمال بالآلاف من النوبات والإقليم الأوسط لهذا الغرض، وزاد شنوات من قيمة الضرائب لتمويل الحصن ولكثرة نفقات الجيش وتكلفة الغزو

المرتفعة جدًا، فانتشرت حالة من السخط عمّت جميع أرجاء مملكة النوبات، ومن الغضب العارم المكتوم يوشك أن ينفجر في وجه شنوات فيدمر كل شيء حذّره كاعبر منه من قبل فاستخف به، وحقّر من قدرة شعبهِ وراهن على عجزهم وقلة حيلتهم، واليوم زاد قيمة الضرائب المفروضة وفرض أخرى، فازداد بؤس الناس واشتد جوعهم فعجزوا عن السداد، مما ينذرانه بالخطر.

أحكم سنورع سيطرته على مدينة نورس وتحصّن بها، وبدأ بترميم أسوارها وأبراجها على عجل كي تكون المدينة جاهزة لوقف تقدم شنوات، لكن شنوات لم يأتِي وبقي حيث هو يُثبّت أقدامه ويؤّمن وجوده ويعززه، فأرسل سنورع نارمر إلى العاصمة ليجلب المدد ويُحضِر مؤنًا تكفي للصمود أمام حصار قد يطول، ويجند أكبر عددٍ من الجنود لإنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الآوان.

في سيو وجد نارمر الكهنة وحاشية القصر يتنازعون على كسب ثقة الملك الطفل، يهتمون فقط بالمكاسب مُهملين العدو المرابط على الأبواب، والملك نفسه لا يعي خطورة عبور النوباتين إليه ولا خطورة الأوضاع حوله، وعاجزٌ عن اتخاذ أي قرار حقيقي يقي المملكة مصارع السوء، فروعته الأوضاع في المدينة، وأدركَ أنّ هناك دخان أسود يحوم في السماء يُنذرِ بمطرِ السوء، وربما لا تقوم للمملكة قائمة بعد اليوم، ورغم أن سنورع هو الوصي

الشرعي على الملك وله شيء من حرية التصرف لقي نارمر صعوبة بالغة في إتمام مُهِمته، ومعارضة شديدة من الكهنة وزبانية المَلك، مُشكِكِين في نوايا سنورع وجدوى القتال، فحاول نارمر التحدث مع الكهنة وحاشية القصر ليوضح لهم الخطر الذي يهدد المملكة بأسرها، فلم يجد آذان صاغية، وقالوا له أنّ شنوات لا يستطيع الاقتراب أكثر مما اقترب، وإن حاول التقدم ستمنعه الإلهة وسوف تُعِيقه وعورة الطرق، فوعدهم نارمر بعاقبة الأمر فلم يستجب له أحدًا، فلما أحس كبير الكهنة أن نارمر يهدد نفوذه أوغر صدر الملك منه، فحاول الملك إبعاده عن المدينة بإرساله مرة أخري إلى حصن الغابات، وانقسمت المدينة بين مؤيد ومعارض لنارمر، وأصبحت تغلى فوق جمر الفُرقة.

تباطئ نارمر في تنفيذ الأمر الملكي لحين تلقِي رد من سنورع، فحضر سنورع بنفسه فتوارى حاشية القصر خلف خوفهم من مهابته وأطاعوه، وسَجَن كبيرالكهنة ولم يعين بديلًا له، وأنذر بقية الكهنة بعقاب أليم في حال تدخل أحدهم في شأن غير شأنهم، ففرح الناس بقرارات سنورع فهدأت الأمور في المدينة قليلًا إلى حين، ثم غادر بعدما جمع المؤن والعتاد لمقاومة الحصار المُفترض، بصحبة نصف القوات التي تحمى المدينة، وأبقي نارمر ليُجنّد جنودًا جدد ويرسلها له، وليكمل بها النقص الحادث في حامية المدينة.

أمر الملك شنوات بالعمل ليل نهار لإتمام الحصن الجديد في أقرب وقت، لا وقت للراحة، لا وقت للتفكير، لا وقت لتصويب الأخطاء فالبناء يجب الا يتوقف لأي ظرف كان، والحصن يكبُر ويزداد اتساعًا كل يوم، مثل وحشٍ يتغذى على الوحوش الأصغر منه، اكتملت الأسوار والحُجرات، ومبيت الجنود، وتعالت الأبراج في السماء مثل صوامع بدون قباب، والسرايا لا تكل ولا تتعب من الترداد على مناطق مملكة السيوات لإخضاعها لسلطة الملك شنوات، والملك فَرحُ بلقبه الجديد سيد المملكتين ونهر الضباب الأوحد، وينتظر اكتمال الحصن ليكون بوابته للانطلاق وإخضاع مدينة سيو ويكون سيدا أوحد بلا منازع، وإلههم.

استغرق بناء الحصن عدة شهور، وحورحور تتواصل مع تاضوس وتطلعه على أحوال المملكة من داخل قصرها الأبيض، أحوال الناس ازدادت سوءًا حتى وصلت إلى الحضيض، فأوعز تاضوس إلى حورحور بتوزيع الطعام على المحتاجين لكسب ثقتهم ومن أجل الحصول على مساعدتهم عندما يقومون بحركتهم، وشنوات لا يُقِيم لشعبه وزنًا وهم عَضُضَه وقُوَامُ جيشه، وظن أن الإحسان إلى الجنود والمن عليهم بالعطايا يقيه غَضْبةٌ الشعبِ! ونسي أن الجنود خرجوا من الشعب، والشعب أهل الجنود، فبُذِرت داخلهم بُذور التمرد على حكم شنوات والثورة عليه.

ثَبّت شنوات أقدامه في أرض السيوات واطمئن لفرض وجوده بها، وجودًا لا مناص منه، وبقيت مُهِمة صغيرة يعتبرها شنوات بأهمية الغزو، كان يرجئها كي يقوم بها بنفسه، وهي ضم المنطقة المقدسة لمُلكِه، وقتل كبير العرافين متاح وقد توعده شنوات بالقتل بعدما تنبأ بزوال ملكه، وتوجه على رأس جيش صغير إلى جبل النور بعد وصول تعزيزات كبيرة من يوحب، وكلما مر على قرية وجدها خاضعة له، فلم يبق أمامه غير متاح ثم سنورع وعاصمة السيوات، ولم يكن شنوات يأمن على نفسه لو ترك متاح وسنورع أحياء، وهو لا يحب ترك شيء من المحتمل أن يعكر صفوه لاحقًا أو يعيق طريقه، خاصة بعدما تنبأ له متاح بزوال ملكه على يد اثنين من خاصته، ولو علم الكاهن كاعبر بما يُقِدم عليه الملك شنوات لافتدي متاح بنفسه، ولا عزيز على قلب شنوات ولن يتوان في قتلهم الاثنين لتحقيق مآربه.

رابط الجيش سفح الجبل واقتحمت مجموعات من الجنود المعبد، وقبضت على متاح في انتظار صعود الملك، فلما وصل أمر بهدم التماثيل والشواهد بالمعبد وتحطيم الأيقونات المُعلقة على الجدران، وأعلن من داخل الصحن تحريم السحر والتكهن، ومنع عبادة أي إله سيواتي، وبدء عبادته وعبادة إلهته، ثم تفرغ لمتاح، فدخل عليه وهو مُكبَل بالأغلال في كرسيه ويرتدي لباس الجحود وعيناه تتحدي الموت.

تُرى هل تنبأ كبير العرافين متاح بمصيره؟! هل عرف ما سيفعل به على يد الملك شنوات؟ وإذا علمه لماذا لم يُحصّن نفسه منه؟! وسواء علمه أو لا فكل ما يرتبط بمصيره يحصل الآن، ولن تتوافر لمتاح الفرصة الآن لتنبأ بمصيره أن جهله، هذا المشهد أحب المشاهد على قلب شنوات، ود لو يفتدي نصف مُلكِه بتلك اللحظة التي يتخلص منها من كل أعدائه ومعارضيه ويصفو له العالم، الآن القدر يؤتي شنوات أمانيه، وفوقها نصف ملك اكتسبه بالخديعة.

لما طال سكوت شنوات قال كبير العرافين ببرود أعصاب: "لم أتوقع مجيئك لكني أرى نهايتك المُحزِنة" فلم يحرك ساكنًا في شنوات الذي أجابه بقوله: "لكل شخص نهايته هذا قدر محتوم، ونهايتك أنت الآن وعلى يدي" وأمر الجنود بإخراجه وإقعاده على شفا الجبل، فقال متاح:

- أتعبت نفسك بمجيئك إلى هنا كي تُلقِي حتفك.

فانزعج الملك شنوات واغتاظ منه، وقال:

- تخاريف! تأويل رجل خرّبت العُزلة عقله. أتريد بذلك إنقاذ نفسك؟

- لا أسألك أن تبقيني، لكن الحقيقة أنك سوف تموت غريبًا في أرض يونسي كما قتلته على أرضك، ولن تُدفن أبدًا في مقبرتك التي أنفقت كل ما في خزائن مملكتك لبنائها، وزينتها من قوت شعبك.

- سيعم الرخاء عندما يدفع السيواتيون الذهب وسأعوض مملكتي ما خسرته.

- لن تأخذ من السيواتيين أكثر مما أخذت، وستنقلب عليك حسرة.

فقد شنوات أعصابه ولطم متاح، ثم ركله بقدمه فسقط من فوق الجبل، وابتسامة الشماتة تعلو وجه شنوات، وارتاح لموته.

رجع الحصن على الفور، واستعد للرحيل إلى النوبات بعد أيام معدودة يطمئن فيهما على وضع جيشه خوفًا من نبوءة متاح، وولى تاضوس على الحصن لإكمال الغزو.

في هذه الأثناء أرسلت حورحور جنودها إلى معبد الشلال للاستيلاء على قمح المعبد، فاعترض كاعبر وكان قد أقام به فسجنته، ووزعت باسمها القمح على سكان الإقليم ومنعت معارضيها، فاشتاط الأمير يوحب غضبًا من تصرفاتها الحمقاء وكانت لا تزال على دينه أمه، فطالبها بإطلاق سراح كاعبر فأبت ورفضت طلبه، وأرسلت إلى تاضوس تُعلِمه بالتطورات وتطلب مشورته، ولم يجرؤ يوحب على استعمال القوة ضدها وأرسل إلى الملك شنوات ليبت في أمرها، فغضب شنوات عليها وأقسم على تأديبها وهمّ بالرحيل، فخاف تاضوس إن عاد شنوات إلى قصره تفشل خطته وينقلب عليه، فأرسل تاضوس إلى حورحور يخبرها بوعيّد شنوات لها، ويستعجلها

بالاستعداد للانفصال بالإقليم الأوسط عن مملكة النوبات فور وصوله، وفي المساء ذهب إلى خيمة الملك شنوات ودسّ السم في عشاءه، فأكل شنوات منه بنهم على غير عادته، فلما اطمئن تاضوس أن الملك ابتلع السم تسلل من المعسكر ليلحق بحورحور في قصرها، وتبعه الموالين له فردًا فردًا.

انتاب شنوات ألمٌ شديد في بطنه وغثيان، وشعر ببرودة في جسده، فجاءه الطبيب وهو يتقيأ كل ما في معدته، ففحصه الطبيب وأخبره بأنه قد تعرض للتسمم، وذهب وجلب بعض الأدوية وسقاها له فنزلت في معدته مثل الداء، فلما طلب تاضوس لم يجده فأدرك أنه يقف وراء كل ما يحدث له، فأصدر أمرًا بالقبض عليه وعين حاتبتي كبيرًا للقادة. تذكر ما قاله له متاح عن موته في أرض السيوات، وزوال ملكه على يد اثنين من أخلص قادته، فصرخ بلعن متاح في العالمين، ولم يكن ليخطر بباله أن حورحور الطرف الثاني في المؤامرة عليه! فأمر بحمله فورًا إلى قصره دون تلكؤ، وأوصى حاتبتي بالاستعداد لإكمال الغزو والقبض على سنورع حيًا وإرساله له.

فور عبور شنوات نهر الضباب تدهورت حالته الصحية، ولاح الموت فوق رأسه مثل النجوم الساطعة، لتحل نهايته الخاصة أسرع وعكس ما كان يتوقع، ولم يصمد شنوات طويلًا وفارق الحياة، فلما علِم يوحب بخبر موت أبيه خرج لاستقباله وأقسم أن ينتقم من الفاعلين بنفسه، وعلى مشارف

حاضرة النوبات وصل نبأ إعلان حورحور استقلال الإقليم الأوسط وتنصيب نفسها ملكة عليه، وتاضوس قائدًا للجيش.

فرح النوباتيون بموت شنوات، وبعد إعلان حورحور انفصال الإقليم هاجر كثير من سكان النوبات إلى الإقليم، مراهنين على عدم كفاءة الأمير يوحب للحكم وأن حورحور وتاضوس سيقضون عليه في جولة واحدة، فوضعه الاقتصادي والعسكري مزر للغاية، واغتم الذين لم يقدروا على الهجرة وخافوا أن يكونوا هم وقود هذا النزاع الذي اشتعل بموت شنوات على يد تاضوس، وظللت سماء الإقليم الأوسط المرجحة كفته ومملكة النوبات سحائب الشر.

ذرف يوحب الدموع والحزن والألم على فقد أباه، لم يظن أنه يُكِّنُ لأباه كل هذا الحب والتوقير، عليه أن يقف على قدميه وألا ينحني، ويرى أعدائه قوته الحقيقية وأنه قادر على إدارة ممتلكاته بجدارة، ود لو يؤدي كاعبر وهو سجين حورحور طقوس دفن أباه، ويُشرِف على مراسم تحنيطه وإعداده لحياته الثانية، ثم دفنه في مقبرته الملكية عند الشلالات وقد أصبحت المقبرة تحت سيطرة حورحور وتاضوس، ولن تأذن له حورحور التي سرقت محتويات المقبرة وخرّبتها، وغلقتها إلي الابد، لتُصبِح المقبرة رمزًا للاستبداد وشاهدًا على قهر واستعباد الشعب النوباتي، ولم يكن يأمن على والده هناك فربما يُمثّل بجثته، فلم يجد يوحب بدًا من بناء مقبرة جديدة بالقرب

من معبد النوبات، وتعيين كاهن آخر في منصب كبير كهنة الشاغر، فبدأ كبير الكهنة الجديد مراسم الدفن على الفور، واستُدعِيت العذارى والابتسامة على محياهن.

عُرِي الملك شنوات ومُدِدَ جسده فوق مِنضَدة خشبية داخل حُجرة الدفن بالمعبد، غسلَ بالماء الفاتر، وأحضرت أول فتاة عذراء لم تتجاوز السادسة عشر، يجرونها جرًا وقد عِلمت ما سيحدث لها، ترتجف أوصالها وعيناها تفيض بالدموع وتستغيث بالملك المسجى كي ينقذها من مصيرها المُقدَر لها منذ ولادتها، أوقفوها عارية وهي تبول على نفسها دون إرادتها وتنتحب، بعدما جف بولها أقعدوها في صحن من الفخار يسعها بالقرب من المنضدة المسجى عليها الملك، فذبحوها وما كادوا يفعلون وحملوا الدم الساخن الذي يتفجر من عنقها في أواني، وصبوه على جسد الملك، وجيء بالفتاة الثانية والثالثة حتى غُسِل الملك ثلاث.

شقوا بطن الملك من الجانب الأيسر وأخرجوا أحشاءه، وأعضاءه باستثناء القلب قائد رحلته في حياته الثانية، غسلت الأعضاء وطُهِرت بدم الفتيات كلا على حدة، وبترتيب خاص طُيبت ببعض الأعشاب والنباتات الطبية وغُمِست في المِلح الصحراوي حتى تجف وتخلوا من الحياة، لتُحفظ بعد ذلك داخل أواني فخارية مخصصة لذلك.

غُسِل الجسد مرة أخري بماء الشلال ومزيج من الأعشاب والنباتات الطبية، وأدخل غرفة الحياة وهي امتداد لغرفة التحنيط، مغلقة، شديدة الظلمة، ولا توجد بها فتحات تهوية، مُدِدَ على ظهره داخل وعاء كبير أملس بعدما طهروا داخله، ثم دخلن سبع فتيات لا يعلمن ما ينتظرهن، باغتهم من الظلام خلفهن سبعة غلمان وأمالوا رقابهن ناحية الوعاء وذبحوهن، فصفي الدم داخل الوعاء وغُطي جسد الملك شنوات والفتيات مازلن يحاولن فهم ما حدث.

رتّل الكهنة التعاويذ وأدوا طقوس سحرية لحماية الملك شنوات من الشرور ومساعدته على الانتقال إلى حياته الثانية، وأُغلِق الوعاء بإحكام شديد على أن يُجدد الدم باستمرار، وتركوا شنوات وحده حتى مرور أربعين يومًا. ودفنت الفتيات في الصحراء في مقابر جماعية تحت الرمال الساخنة، وفي اعتقاد الكهنة أن الملك المتوفى سيستدعيهم في حياة ثانية سوف يُنصّب فيها إلهًا ويتخذ الوفيات منهن زوجات.

استمر العمل في المقبرة الملكية الجديدة للملك شنوات بلا توقف، لتُفتَح له بوابة العالم الآخر قبل الأنتهاء من تحنيطه فيلج منها إلى جنته الخاصة، وانتظر الجميع إتمام المقبرة والانتهاء من مراسم الدفن.

أخلف الملك يوحب على حصن شنوات قائدًا آخر، وعبر حاتبتي بنصف القوات المتواجدين في مملكة السيوات لمؤازرة الملك يوحب في صراعه الداخلي، مما أضعف قوتهم في الأراضي الجديدة. دخل حاتبتي على الملك فنزَل الملك عن العرش الذي لم يُشعِرهُ بالراحة، واحتضن حاتبتي وأجلسه بجواره، وقال:

- فعلتها حورحور وتاضوس، الوحيدين اللذين لم يشكك الملك يومًا في ولائهما.

- ما أدراك؟! الملك شنوات لم يثق في تاضوس آخر أيامه لكن تاضوس غدر به.

- يجب أن أذيقه مرارة الألم والفقد.

- تخلص من غضبك كي تحكم بالعقل.

- كيف الخلاص من هذا الغضب وقد قتلوا أبي؟

- لن ينفعك البكاء؛ فالمملكة على صفيح ساخن، ونشرف على سنين شِداد، والجيش مُنهك ويعاني.

- وبما تشير علي يا حاتبتي؟

- قبل كل شيء يجب إعادة ترتيب أمور المملكة، وإطعام شعبك الجائع.

- كيف أطعمهم والغلال شحيحة والخزينة فارغة وأوضاع المملكة متدنية؟

- هذا شيء يسيرا! فمخازن المعابد ممتلئة وعامرة، كذلك مخازن الملك!

- سيغضب ذلك الكهنة وسوف يُهيّجون الناس ضدنا.

- الناس جائعة تريد الطعام! كيف تغضب على من أطعمها محاباة لمن حرمها؟! وجِد المعبد والكهنة لراحة الناس في الحياتين فإن بَخِلوا على الناس الآن ولم يُخففوا عنهم فلتحترق المعابد بالكهنة.

- لا أجرؤ على التعرض للمعابد والكهنة وبالأخص وأبي لم يبدأ رحلته الثانية بعد.

- لا تفعل شيئًا غير أن تطلب من كبير الكهنة إطعام الناس، ثم أطعمهم أنت من مخازنك كي يشعر الكهنة بالخزي، واترك البقية لي.

فتح الملك يوحب المخازن الملكية ووزع القمح على النّاس، ثم طلب من كبير الكهنة إطعام الفقراء بدوره، فوافق على مضض ظنًا منه أنها مرة واحدة وسوف تمر، فوزعت الغِلال على كره من الكهنة بما يسد جوع الناس ليوم واحد، وقام الملك يوحب بتخفيض الضرائب لتقليل نقمة الناس

وشدتهم، وسرّح أعدادًا كبيرة من الجيش لتخفيض النفقات، فلم يبق غير ألفا جندي يحمون مدينة قُصر عاصمة ملكة.

فاضت الأنهر بالماء، وارتوت الحقول والحيضان المُعدّة مُسبقًا لاستقبال ماء النهر، فدأب الفلاحون على زراعة القمح وانتظروه بتؤدة لينبُت، فألغي الملك يوحب ضرائب هذا العام المفروضة على الزراعة لتشجيع الناس على استصلاح وزراعة المزيد من الأراضي، واستصلح عمال الملك أراضٍ جديدة وشق الترع إليها ليصلها الماء، وزرعها قمحًا وشعيرًا، فضجت المملكة بالعمل والقمح الملكي والديني الفاخر يوزع على الناس حتى موسم الحصاد القادم.

عاد السيواتيون يُلِحون في الأفق من جديد كقوة لا يُستهان بها، وحورحور وتاضوس يُعدِون أنفسهم للزحف وطرد الملك يوحب من قصره، فصب الملك يوحب جل اهتمامه على عدوه بالداخل وراقب تحركاته بعدما هدأت الأوضاع المتدنية قليلا، واتفق مع حاتبتي على أنهم عاجزين عن خوض حربين في وقت واحد والمملكة تعاني، والكهنة تتمرد وتمن عليهم بقمحها، فجعلوه يشعر بالدونية وأحس بالذل وهو يحاول تحسين أوضاع مملكته وخزائنه فارغة، وهو في حاجة إلى موارد أخري وكبيرة للنهوض مرة ثانية، وعقله مع أبيه في حجرة الحياة.

مضت أربعون يومًا كاملة، وخرج جسد الملك شنوات من غرفة الحياة لحجرة التحنيط، بعدما نضب دم العذارى، وغُسِل ثلاثًا بماء الشلال، وأدخل وعاء وطُيِبَ الجسد بالنباتات الطبية والزيوت العطرية، ثم غُطِي بالملح الصحراوي ليقتل فيه كل شيء حي. أخرج الجسد بعد مدة كافية وسُدَت جميع فتحات الجسد وخُتِمتَ بالصمغ، وطُيبَت بطنه بالدُهن وملئِت بكرات من الكتان مملوءة بالمِلح، وأغُلق الشق ولف الجسد كاملًا بلفائف الكتان المغموس بالصمغ، دس بين طياتها أحجيات سحرية لحمايته ومنع ناهبي القبور من الاقتراب من جسده، وأدت الكهنة طقوس الموت وهي تتلوا التعاويذ السحرية لمساعدة الملك في رحلة انتقاله إلى الحياة الثانية، وفور الانتهاء من هذا الطقس أصبح الملك جاهزًا لسُكنى جنته المزعومة في ليلة كئيبة تشبه بظلامها سماءً غائبة تنتظر الضوء.

فاختلى به يوحب يودعه الوداع الأخير، جلس بجواره وقال "يا أبتي أنا يوحب" فلما غاب جواب شنوات أردف يوحب "لقد خذلتك ولم أستطع حمايتك من تاضوس وكنت أعلم أنه حاسد وطامع" وكبير الكهنة يتجسس عليه وهو يحاور أبيه المتوفي. همّ الملك يوحب بالخروج فنظر إلى جسد أبيه المُكفن بلفائف الصوف والسحر وقال منفعلا وعيناه تفيض بالدموع "يا أبتي هل وجدت روحك السلام؟" وعاد مهرولًا إلى الجسد يهزهُ قائلًا: "قل لي يا أبتي هل وجدت روحك السلام... تركت لي تَرِكَةً ثقيلة فكيف أحملها"

ورددها مرارًا حتى اقتحم عليه كبير الكهنة الجديد الحُجرة وأسكته، وواساه، وعزه في المواساة.

أدِخِل جسد شنوات داخل تابوت من الذهب الخالص المُرصع بالجواهر، أعده شنوات في حياته كي يُدفن فيه، ثم حُمِل في موكب مَهيب خاليًا من الأَبهةِ والعظمة، ودفِن بمقبرته الجديدة المتواضعة بجوار أجداده الملوك، وأغلِقت المقبرة بمعرفة الكهنة الذين وضعوا عليها حُراسٌ من عفاريت الجن ليمنعوا أي شخص من اقتحامها.

رجع الملك يوحب من جبانة الموتى، واجتمع بكبير القادة حاتبتي ليُصرّفا شؤون المملكة بعدما دَفَن الملك أبيه، واطمئن كل الاطمئنان أنه بدأ حياته الثانية.

قال حاتبتي:

- عليك أن تتصرف الآن حيال جشع الكهنة وتآمرهم عليك.
- بئس الرجال هم! فقد أكرمهم أبي وأغدق عليهم الهدايا ووهبهم الكثير من الأراضي الخِصبة؛ والآن ينكرون فضله!
- يجب أن توقفهم وإلا سيفوت الآوان!
- سوف أعاقبهم جميعا جزاءً بما عملوا.

- لا تبالغ بردة فعلك، فقط استرد الهبات التي أعطيتها لهم، وصادر مدخرات المعابد وكنوزها بما يكفي لتنقذ ما يمكن إنقاذه.

- أتريدني أن أصادر كنوز الإلهة! ستغضب علي الإلهة وستثير الناس ضدي.

- إن الإلهة عاجزة عن إطعام الناس التي تتضور جوعًا، والناس لن تعبأ كثيرًا برضى الإلهة في مثل هذا الظرف، ومن أي طعام تأكل طالما يسد جوعها.

- اشرف أنت بنفسك على تنفيذ الأمر ولا تُخفِق.

صودرت جميع أراضي الكهنة وأراضي المعابد الموهوبة لها، وأوقفت كل الأراضي المُصادرة لإطعام الفقراء والمحتاجين، واستولى الملك يوحب على ذهب المعابد المُكدس وأودع خزانة المملكة، وقبض على كبير الكهنة وعدد كبير من كهنته كي يأمن مكرهم وكي لا يُحرضون الناس عليه، واتضح له أن الكهنة تستأثر بثروة كبيرة تفوق أضعاف ما تصور، فيما تتصدق بالفتات على الناس، ثم تَفرّغ للتجار الذين استغلوا حاجة المملكة واحتكروا قوت الناس وصادروا أموالهم وسجنوا، فلما فاض المال وامتلأت خزينة المملكة عفى الملك يوحب الناس من دفع الضرائب مؤقتًا إلى أن يثمر الزرع وتتحسن أحوالهم، وأصبح في مقدوره متابعة أعمال أبيه، وأثبت للجميع أنه كفء مثل أبيه، لكنه لم يستعبدهم مثله.

استلمت حورحور الإقليم الأوسط وبه من القمح ما يكفي الجند والشعب عامًا كاملًا، إن هم رشّدوا استهلاكهم، ومع وفرة موارد الإقليم وجدت حورحور نفسها في حال أفضل من الملك يوحب، الذي استلم مملكة النوبات يضنيها القحط والجوع وخزائنها فارغة، لكن كان على تاضوس إرضاء الجُند على حساب من سواهم، وذلك كي يأمن تقلبهم عليه، فأجزل العطاء والمال لهم، وأوعز إلى حورحور بفرض ضريبة جديدة تسمي الأمن يدفعها الناس من أجل تأمينهم، وزيادة الضرائب المفروضة سابقا لتحقيق فائض كبير يكفي نفقات الجيش المرتفعة، ولإعداد جيش يستطيع مواجهة الملك يوحب على أرضه، فاستجابت حورحور وفرضت الضريبة الجديدة وزادت نسِب الضرائب القديمة، ومع استبداد الكهنة واستغلال نفوذهم في نهب ثروات الإقليم بدأت الأوضاع في التدني أكثر، فلما خشي الناس على أنفسهم تحت حكم حورحور وتاضوس، وحاول من لاذ بالإقليم من قبل فرارا من الموت العودة إلى مملكة النوبات مرة آخرى، فاشتاط تاضوس غضبًا ومنع المهاجرين من عبور الحدود بالقوة، فلم يكن من كثيرين إلا اللجوء للمجازفة بحياتهم، فإما البقاء وانتظار مصيرهم على يد حورحور وتاضوس أو العبور سرًا مُعرضِين أنفسهم للموت تحت سيوف جُنِد تاضوس.

وقلت الغِلال في الأسواق وارتفعت أثمانها أضعافًا مضاعفة، فكدّس التُجار الغِلال في مخازنهم ومنعوها عن الأسوق، ولم يُفرّط الكهنة في حبة قمح واحدة، والمخازن المَلكية مُخصصة لإطعام الجنود وساكني القصر، فأصبحَ رغيفُ الخبز أغلى من حيفان من الذهب في غياب شيء آخر يقايض به الرغيف. فاختل الأمن في الإقليم بعدما دفع الناس ضريبة الأمن الباهظة، وانتشرت السرقات والجرائم، ونُهبت الكثير من مخازن التجار ووزعت ليلًا على الفقراء، وتاضوس عاجز عن ضبط الأمن وإعادته كما كان بالسابق، في ظل مُطالبة جنده بالمزيد.

مات الكثير من الناس جوعًا، وانتشرت الجُثث في الشوارع لا تجد من يواريها الثرى، قرى بأكملها تموت مع حلول المساء، فيدخلها الجنود نهارًا ويجمعون الجُثث في مقابر جماعية، وفي الليل يعيثون في القرى فسادًا ويسرقون ما بها. ومضت الأشهر والأوضاع تزداد سوءًا، وغِلال الخزائن الملكية تقل، وأصبح وشيكًا اصطدام تاضوس بالكهنة الذين صاروا يستأثرون بمعظم ثروات الإقليم من ذهب وغِلال، والكهنة تُدرك ذلك فاشتكوا لتاضوس حاجة المعابد، فعلم أنهم لن يقبلوا مساعدته بسهولة، فأمر إحدى قادته بسرقة مخازن المعابد ونَهْب كنوزها، وبذلك يسدُ حاجة الجنود ولا يثير غضب الكهنة عليه، وزاد من نسب الضرائب المفروضة،

وارتفعت ضريبة الأمن إلى الضعف لمواجهة السارقين، والناس تموت جوعًا وفقرًا.

وانتشر تهريب القمح من مملكة النوبات إلى الإقليم، فعل غريب لم يعهدوه في أي عصر سابق، شجعه تاضوس ورعاه لإنقاذ نفسه من الغرق، على علم من الملك يوحب الذي لم يحاول منع عمليات التهريب التي تتم عله ينقذ أهالي الإقليم من الموت جوعًا.

سألت حورحور تاضوس عن أحوال الناس وهي جالسة على عرشها بعدما وصلت الأوضاع إلى الحضيض، وسمِعت أصوات ألم جوعهم، فقال لها: "ما لك وهؤلاء الرعاة؟" فاستنكرت قوله ونهرته: "إن ماتوا من سيقوم بخدمتنا!" لكنه تجاوز الموضوع فلديه ما يعتبره أشد خطورة من جياع شعبه، ويراه أكبر تهديد حقيقي على أمنه.

- أتعلمين أن يوحب استطاع تخفيف حدِة المجاعة في المملكة!

- تأتيني أخباره فتحزنني، وأنت تقف متفرجًا لا تفعل شيئا.

فقال بتهكم:

- وماذا تقترحين عليّ أيتها الملكة! فموارد الإقليم شحيحة.

- إذا استمرت الأوضاع في التدهور لن يتبقى شيئًا لأحكمه!

- لا تخافي، فأنا أعُد العدة للزحف إلى مملكة النوبات.

- ومن أين ستنفق على هذه الحرب؟

- القادة والجنود ستقبل بالقتال لاقتسام الغنائم، وسوف يمولنا كبير الكهنة كي يفرض سيطرته على معابد النوبات، وإذا احتجنا مزيدًا من الأموال نفرض ضرائب جديدة.

- لا تنتظر من الكهنة إخراج ذهبهم وإعطائه لك، وممن ستجبى الضرائب؟ من الجوعى؟!

- هؤلاء الذين تسمينهم جياع خُبثاء ملاعين! ويكتنزون الذهب والفضة تحت جدران بيوتهم.

- أتمني أن تَصدُق يا تاضوس فإن ضعت ضيعتني معك.

خافت حورحور على نفسها وعلى مُلِك أبيها المُتخم بالمشكلات، وقد تفاقمت الأوضاع منذ استرداد حقها في حكم الإقليم بالخديعة والقوة، وتاضوس غير مهتمٍ بتفاقم الأوضاع وتدهورها ويريد إقحامها في حرب قد تطول أمدها، لتحقيق مطامع شخصية على حسابها، ورغم أنها تريد هذه الحرب بشدة دبّرت قتله غير عابئة بردة فعل قادته المخلصين ضدها،

وحاولت استمالت بعضهم بالذهب، وأغرتهم بمزيد من الامتيازات كما أغرت تاضوس من قبل.

وفي ليلة مُقمِرة سمائها صافية وديعة دعته حورحور إلى غرفتها، فدخل عليها وهي عارية في الفراش، وفي منتصف الغرفة مائدةُ كبيرة ممتلئة بالفاكهة وأشهى الأطعمة، وما لذ وطاب مما يشتهيه تاضوس والشعب يموت جوعًا، فقامت حورحور وادثرت برداء أبيض رقيق شفاف، يظهر ويجسد جسدها الفاتن وقوامها الممشوق، رغم أنها جاوزت الأربعين، إلا أنها لا تزال تحتفظ بجمالها كاملًا، سقته خمًرا ثم أطعمته عنبًا وتينًا، فأكل من يدها بنهم، فحاول أخذها فامتنعت بميوعة ودلال قائلة "الطعام أولًا" فأجابها: "إني متعطش إليك فأنت الليلة فاتنة وجذابة!" فأمسكت حبة تين طيبة وقطمت نصفها وأطعمته النصف الآخر واتبعتها بكأس من الخمر، فأخذها تاضوس فقبلته وهي تعلم أنها القبلة الأخيرة، فلن تطلع عليه الشمس حيًا.

وفي الصباح أعُلِن موته فسُرّ الناس، واحتفلوا بموته في صمت وفيما بينهم. تظاهرت حورحور بالحزن، وبكت كثيرًا عليه بدموع حقيقية لكنها كاذبة، وحنّطت جسده ودفنته في مقبرة ملكية مثل الملوك، وأعلنت الحداد عليه عامًا كاملًا.

(3)

حبين في ليلة واحدة

وقع اختيار حورحور على قائد فرقة يُدعَى خوفر، هو أصغر سنًّا من تاضوس وأكثر شبابًا، ليس ذكيًّا كفاية مثله، ولا عبقريًّا في الحرب، لكن اختارتْه حورحور لسهولة التحكُّم به، وأغرتْه بجمالها ومالها، حتى وقع في شَرَكِها الذي لا مهرب منه، فوجب على خوفر أنْ يخلف تاضوس في الجيش وفي فراش حورحور، فأثبتَ خوفر جدارَتَهُ وقد أدهشتْها تلك الجدارة، وبدلًا مِن أنْ يكون طَوْعَ بَنانِها، فقد وقعتْ في الشَّرَكِ الذي نصبتْه له وبدأ يراوغها، إلّا أنَّ خوفر يفتقد إلى المقوِّمات القيادية التي تجعله قادرًا على أنْ يقرِّرَ مصيرَ الإقليم، ممّا سيؤدّي إلى إعاقته عن تحقيق مآربه وآماله العريضة، ولن ينفعه استغلالُ نفوذِ حورحور.

لقد أدرك الجميع أنَّ القائد الجديد سوف يتحكّم بكلّ شيءٍ، وبالرغم مِن عدم اقتناعهم به، إلّا أنَّ سطْوةَ الحُكم قد آلتْ إليه دونَ جَلَبَةٍ، فانْزعجتْ حورحور مِن سير الأحداث ومن انسحابِ البساطِ من تحت أقدامها رويدًا رويدًا، وآثرت الصمت؛ لتدبِّرَ أمرَها ولتعيدَ ترتيب فوضاها، وبالنسبة لخوفر، فلم يكنْ غبيًّا لدرجة إغضابِ حورحور وإثارةِ نقمتِها عليه، فقد أبْقاها تتّخذُ كلَّ القرارات بِحُريّةٍ، ثم يفعل بعد ذلك ما يحلو له، وعلمت حورحور أنها ضعيفةٌ بدونه، فَعُقِدَ بينهم وفاقٌ مريبٌ غيرَ مُعلنٍ لن يستمر طويلا. شاورتْه في غزوِ مملكة النوبات، فَشَكَا لها خوفر ضعف الجيش وحالته

المزرية، فاستمعتْ له برباطةِ جأشٍ، وعندما فرغ، وَبَّخَتْهُ كطفلٍ قد أخطأ، واتهمته بالجُبن:

- أتخشى يوحب وهو غيرُ كُفْءٍ؟!

- القائد حاتبتي يناصره، وهو ماهرٌ في فنون الحرب، فقد قتل هو ورجاله الآلافَ من جنود السيواتين في معركة الجسر، إنه داهيةٌ.

- أنت أرعن! لا تتبجَّحْ ولا تتحجَّجْ بخيبتك، وتأتي وتتباكى مثل النساء!

- وهل تنصرنا الشجاعةُ ونحن ضعفاء، لا نقوى على شوكة يوحب وحاتبتي؟!

- الشجاعة قوة تُؤتَى للرجال.

- لو اصطدمْنا معهم الآن، سوف نخسر كلَّ شيءٍ.

ازداد انزعاج حورحور:

- النوبات أنهكتْها الحربُ الدائرة مع مملكة السيوات، وقد قضتْ على مواردها، يجب أنْ نستغلّ الموقفَ لصالحنا، ونقوم بضربتنا، عندما نكون مستعدِّين.

ثم قالت بخبث:

- هذا ما كان سيفعله تاضوس، فلقد كان ذكيًّا ماهرًا.

- وما هي ضربتنا يا حورحور؟

- قبل أيِّ تصرُّفٍ، يجب أنْ نتواصل مع ملك السيوات وسنورع، ونتَّحد ضدّ يوحب.

- أجُنِنْتِ؟! إنهم أعداؤنا أيضًا؟!

- إنَّ يوحب أكثرُ عَدَاءً لي منهم.

- وما أدراك أنَّ السيواتين سيقبلون مساعدتَكِ؟

- سيقبلون التعاونَ؛ فوضعهم أسوأ من وضع يوحب، وهم يحتاجون إلى المساعدة؛ لتحرير أراضيهم المحتلة، وإنني مرسلة إليهم برسولٍ، فناظرة بما يرجع المرسلون.

لقد أَعْمَى البغضُ عينَ حورحور عن رؤية الحقيقة، فالأعداء لا يصبحون حلفاءً في مواجهة عدوٍّ مشتركٍ، وأعدَّت الرسالةَ وجوابَها وأرسلتْها إلى سنورع المقيم في مدينة نورس.

تعتقد حورحور أنّ بمجرَّد إتمام التحالُفِ وتحرُّك جيشِها نحو مملكة النوبات، أنها ستنْجحُ في إسقاطِ الملك يوحب، ويكون ملكُ شنوات خالصًا لها دون جهدٍ يُذْكَر، تَظنّ أنّ الحربَ مزحةٌ! لا تدري معنى الحرب!

فالحربُ جولاتٌ طويلةٌ وكثيرةٌ، وتدور الدوائر، ويصعب على خوفر تحمُّل غبارِ المعارك، بعدما اعتادَ هواءَ الجنائن ونعومةَ الفرشِ، فهانتْ عليهم سطوةُ الحكمِ.

واضطرتْ حورحور إلى الانتظار طويلًا، حتى جاءها رّدُّ سنورع، وفيه..

باسم الملك، يعلن قبوله للتحالف معها ضدّ مغتصب الأراضي السيواتية، إلى أنْ يستتبَّ الأمرُ ويتفرّق الجمعان، بشروطٍ يُحدِّدها مسبقًا في مدينة نورس.

فتعاملتْ حورحور مع رسالة سنورع وكأنها وثيقةُ تحالفٍ معلَنٍ، وصكٌّ لأمانها، ومطرقةٌ سوف تقضي بها وبضربةٍ واحدةٍ على الملك يوحب، واعتبرتْه قد أصبح بين فكّيّ الوحش الضارِي، وقد أمرتْ خوفر بالاستعداد لحربٍ وشيكةٍ، فأجابها خوفر بأنَّ هذه المرة بحكمةٍ لم تسعفه، قائلًا:

- تريَّثي، فربما يأتيكِ يوحب بنفسه على رأس جيشه.

فازداد مقتُ وغضبُ حورحور، ولعنتْ في نفسها اليوم الذي اتخذتْه فيه خليلًا، وقد أثبتت التجارب سوءَ اختيارها له وعدم إمكانية الاعتماد عليه في أبسط الأمور، فقرَّرت التصرُّفَ بنفسها بعيدًا عن تقاعسه وتخاذله.

ففكَّرتْ كثيرًا بما عليها فعله لإقليمٍ مُتضرّرٍ من السياسات السابقة لتاضوس، وينهش الجوع أهله وشردهم، بعدما كان جنةً مليئةً بالحبوب والفاكهة، وكانت أرضُه مطمعًا لكلّ طامحٍ، وفكَّرتْ حورحور أيضًا في كيفيّة ضمّ مملكة النوبات إلى حكمِها وهي في هذه الحال، عاجزةٌ، وليس لديْها جيشٌ قويٌّ يحقِّق طموحَها، وفكرتْ أنْ تضيفَ لِبُنودِ الاتفاق مع سنورع بندًا يَنُصُّ على إرسال قوّاتٍ لحمايتها، لكنها تراجعتْ؛ لعدم إمكانية عبور هذه القوّات النهر في الوقت الذي يسيطرُ فيه الملك يوحب على جسر الذهب، فلم يكن أمامها بُدٌّ في تنفيذ الحلّ الأخير والوحيد المتوفّر لديها، وهو بناء جيشٍ وطنيٍّ من خيرة شعبها، ولكنها لا تحبّذ هذا الحل وتنبذه؛ لعدم ثقتها في شعب الإقليم الذين تقهرهم، لكنها مضطرةٌ، فأرادت التقرُّب من الناس؛ لتنالَ ثقتهم المعدومة فيها وفي كلّ مسؤولٍ لديها وفي كلّ قائدٍ يندرج تحتها، فلم تجد أفضل من توزيع القمحِ الذي حُرِّمَ عليهم وهم يتضوَّرون جوعًا، ولم تفكِّرْ في إسقاط الضرائب عن كاهلهم المُثقل بالأعباء.

فاستبشر الناسُ بالدقيق في سَنَةِ قَحْطٍ لا يغاثُ فيها الناس، وقد استعدُّوا لدفعِ ثمنِ عطيّةِ حورحور المفاجِئَة أضعافًا مضاعفةً وهي التي قد مَنَعَتْهُم من قبل، ولن يمانعَ الفقراءُ ولا البسطاءُ من دفع الضريبة ما دام سيتُوَفِّرُ لهم غلالًا كافيةً من أراضيهم، فيدفعون منها.

وقد حَلَّ الشتاء، واقتربتْ زراعة القمح، ومع البشائر القادمة من مملكة النوبات بفيضان النهر الأوسط الذي يصبُّ في الإقليم، وخاصةً أنَّ أرضَهم عطشى للماء والزرع، ففرح الناس وصبروا على جوعهم لمّا لمحوا بارقةَ أملٍ تُلَوِّحُ في سمائهم.

فتابعتْ حورحور العملَ في الحقول، وتابعتْ زراعة القمح، وتجوَّلتْ تحت حمايةِ حُرّاسها بين الفلّاحين؛ تستهدف كسبَ وُدِّهم، وهم ينثرون الحَبَّ في أرضٍ مرويّةٍ تُبشِّر بخيرٍ وفيرٍ، وبخضرةٍ دائمةٍ، وكانت قطراتُ الكدِّ والكفاحِ تتساقطُ في المياه الجارية، فتتَّحدُ مع الأرض الحنون، وتخصّب الزرع، ليثمر حَبًّا من ذهب.

إنَّ الناس يعلمون غاياتِ حورحور، ويُدرِكون حاجَتَها إليهم، فاستغلّوا حاجتَها كما استغلَّتْهم؛ لتوفير قوت يومهم واحتياجاتهم البسيطة، وتناسوا ملابسهم المهترئة الممزّقة، وسط هذا القدْر الكبير من الأطماع والصراع بين الملوك.

فلمّا آمنتْ حورحور مَكْرَ الناس، أرسلَتْ خوفر إلى نورس؛ للتفاوض مع سنورع المرابطِ بالمدينة هو ورجاله مستعدُّون للموت في سبيل حمايتها، وأيضًا لتتأكَّدَ من عزم سنورع في مساعدتها، ولتُحدِّدَ مدى خطورته عليها وعلى الإقليم بعد نجاحِهم في القضاء على الملك يوحب، وقد هدَّدتْ خوفر

بعزله من منصبه إنْ فشل فيما أَمَرَتْهُ به، فأصبح عليه اجتيازُ النوباتين الذين يملكون ضفتيّ نهر الضباب دون أنْ يمسكوا به، فاتَّجَه شمالاً برفقةِ عشرين رجلًا ممّن أخلصوا له، ليعبروا النهر من أبعد نقطةٍ تَضْعف فيها مراقبةُ النوباتين للنهر، وبعد مسيرة أيامٍ بالخيول، ادركوا أنهم قد وصلوا إلى الموقع المراد، فتخلّوا عن خيولهم وترجّلوا داخل مناطق نفوذ النوباتين، وكانوا ملتفِّين حول أنفسهم مثل زهرة اللوتس، ومتوجِّسين خيفة، ومتحيِّزين لأيِّ قتالٍ قد يقابلهم، وقد فرَّقهما الضبابُ والنهرُ، فوجد خوفر نفسه وحيدًا مع اثنيْن من رجاله، وقد فَقَدَ البقيّةَ، فانتظر نهارًا كاملًا على أملِ أنْ يعثرَ عليه رجالُهُ، ثم أكملَ الطريقَ عندما لم يحضر أحدٌ، مُتجنِّبًا المرور بالطرق المُمَهَّدَة، مُبتَعِدًا عن القرى المأهولة، وفي طريقه مَرَّ على قريةٍ هجرها أهلُها بعد دخول النوباتين إليها، فأصبحتْ خاويةً على عروشِها، فأوْقدوا نارًا وباتوا فيها لَيْلَتَهم.

لقد شَقَّ عليهم الوصول إلى مكانِ اللقاءِ بأدلّاء سنورع؛ فقد أَضَلَّتْهُ النجومُ أكثر من مرةٍ، وامتنعَ عن اهتداءِ السبيل، وعند مفترقِ طريقٍ بعيدٍ عن سيطرة النوباتين جلس خوفر ومَنْ معه يطلب المساعدة، وساقه بعضُ اتباع سنورع إليه في نورس.

تحطّمتْ معنويّاتُ سنورع، وفَقَدَ نِصْفَ وزنه، يَئِسَ بعد هذه الخسارة المُخزِية، وامتنعَ من الظهور للعَلَن، وازداد مقته وكرهه لكلّ ما يَمُتُّ

لنوباتين بِصِلَةٍ، وأصبح ثأرُهُ يحتاج لثأرٍ يَشْفِي غليلَهُ؛ يُشبع به حاجته للانتقام والشماتة من النوباتين، وأصبح سنورع اليوم عبارةً عن أشلاءِ سنورع الأمس، وباتتْ أطلالُ مجدِهِ السابقِ مُهَدَّمَةً تحت ذُلِّ الهزيمة، فلمّا جاءه خوفر، لم يكن ليكرم وفادته، فكان خوفر دومًا الرجلَ غيرَ المناسبِ في المكان الخطأ.

بَالَغَ خوفر في مدحه والثناء عليه، فضاق به سنورع، وقال له بوجهٍ مُتجهِّمٍ مُسودٍّ:

- كيف أستطيع مساعدتك؟

- الملكة حورحور تُعِدُّ جيشًا كبيرًا؛ لقتل يوحب وللاستيلاء على مملكة النوبات، وأنتم تريدون استرداد أرضكم.

- لكننا غير مستعدِّين الآن، ونعمل على بناء جيشٍ قوي.

- متى ستكون مستعدًّا؟

- أَمْهِلْنا عدة أشهر، ليس قبل موسم الحصاد، وسوف نزحف إليهم غير عابئين بموتٍ، سواء كنتم معنا أو علينا.

- هل لنا أجرٌ إذا ساعدناك على هزيمة يوحب واسترداد أرضك؟

- نعم، وحكم الإقليم الأوسط لحورحور.

- لقد كَبرتْ حورحور وخبلتْ، وأفسدَ الملكُ عقلَها.

- لا يهمُّني مَنْ يحكم الإقليم، مادامَ يدفع الجزية!

- هل لي حكم الإقليم، ثم لأبنائي من بعدي، ولَكَ الجزية والطاعة؟

- نعم، وأريد ألف قطعةٍ ذهبيّةٍ.

- أَقْبَلُ! لكن أَلَيْسَ من الأجدر حضور الملك اجتماعنا.

فغضب سنورع، وقام من مجلسه، وأمسك مجامع خوفر، قائلًا:

- أنا الوَصِيُّ على العرش، ويحقُّ لي البَتّ في كل أمرٍ.

- اهدأ يا سنورع، كنت أتأكَّد فقط أنَّ الملك يعلم باتفاقنا.

وبعد ليالٍ، ترك خوفر المدينة، وسَارَ عائدًا، فلما بلغ القصر الأبيض، وجد حورحور تنتظر على الأبواب، فأخبرها بما حدث مخفِيًا اتفاقه مع سنورع بإقصائها عن عرش الإقليم، لتعود ملكةً في الظِّلّ كما كانت دومًا، تبسّمتْ حورحور وعبّرتْ عن مقتها للملك يوحب، فدائمًا كان يصعب عليها التخلُّص منه، عندما حملته رضيعًا، واليوم يبدو التخلُّص منه سهلًا، وأنَّ نِسَبَ نجاحِها أفضل وأعلى، فإذا أَفْلَتَ مِن يَدِها، فكيف يفلت من انتقام سنورع الذي يُميتُهُ طعمُ الخسارة وتعميهُ المطالبةُ بالثأر؟!

تظنّ أنَّ المساعدةَ سوف تأتيها محمولةً فوق بساطٍ مِن حريرٍ على هيئةِ جيشٍ جرّارٍ يرسله سنورع، فَيَقِي جنودَها شرّ القتال، ولم تدركْ سوءَ الموقفِ إدراكًا جيّدًا، وتواجُد النوباتين على ضفتيّ نهرِ الضباب، وحالُها كانت مختلفةً عن حالِ سنورع الذي وَعَى هذه المرّة خطورةَ الموقفِ، وباتَ يفكّر مرارًا قبل القيام بأيّ خطوةٍ، ولا يهمّه مَنْ يحكمُ الإقليم، فَهَمُّهُ كان مُنْصَبًّا على استردادِ أراضيه وهدم معبد النوبات، وربما يتخلّص من الملك يوحب وحورحور دُفعةً واحدةً، ويعاملهما سواءً بسواء، معتبرًا الإقليم جزءًا لا يتجزّأ من مملكة النوبات.

أعدَّتْ حورحور مُتَّكَأً، وقَضَتْ مع خوفر الليلَ، مقتنعةً تمامًا أنه قد أتمَّ مهمّته كما أمرتْهُ حرفيًّا، وأنه قد صدقها القول، وأنه مُتيَّمٌ بحُبِّها، كما اعتادتْ على رؤيةِ الرجالِ حولها وهم هائمون بفِتْنَتِها التي بدأت بالذُّبول، ولا يخفى حُبّ خوفر لحورحور التي أركبتْهُ فوق رقاب قادة جيشها، لكن قد سَوَّلَ له غباؤه بقُدْرَتِهِ على خداع حورحور وإزاحتها عن عرشها لنفسه، مُستغلًّا ضعفَ موقفها، وبعدها يُخَيِّرُها بين أنْ تبقى معه، وبين غيابة السجن.

وها هي حورحور قد أَخْفَتْ في نفسها أيضًا أمرًا تُعِدُّهُ لخوفر.

وفي الصباحِ، كانت كلُّ مكيدةٍ مدبرةً في عقلِ الآخر، وناضجةً وجاهزةً لِجَنْيِ ثمارِها.

تجاوزت حورحور الأربعين من عمرها، وبدلًا من أنْ تقنطَ وتزهدَ في الدنيا، كَبُرَ نَزِقُها كَفَتَاةٍ غرّةٍ، واستكبرتْ وتشبثّتْ بالمُلك، ولا وريث لها ولا شفيع، فكان الملكُ شنوات أعقلَ منها، فَقَدْ تَمَسَّكَ بإنجابِ طفلٍ يَرِثُ ملكَهُ مِن بعده بِقَدْرِ تَمَسُّكِهِ بالمُلك، فكُرْهِها لشنوات، ومحاولاتِها المتكرِّرةِ لحَمْلِهِ على الاعتراف بحقِّها في الإقليم الأوسط، هذه الحالُ قد جعلتْها مشوَّشةَ الفكر صمّاءَ الأذن، وأنَّ العَبَثَ هو فيما فعلتْه من قتْل شنوات، ثم تاضوس مِن بعده، وعيَّنتْ قائدًا غيرَ كُفْءٍ للجيش، فقضَى على القادة الأكفاء الآخرين، سواء بتصفيتهم أو بِحَيْثُ لا يُعْرَف، وكان طلبها من عدوِّها سنورع هو المساعدة؛ ليُعينها على الملك يوحب، العدو المشترك، والعبث هو ما سيفعله التحالفُ لاحِقًا مِن محاولةِ تدميرِ مملكةِ النوبات، ربّما يحيق مكرها السيئ بها، فتدُور الدائرةُ عليها، وينتقمُ سنورع منها أيضًا؛ كي يشفي جراحه، لم تُدرِك حورحور تلكَ المخاطر كلّها إدراكًا كافيًا، فهي تعتقدُ بِصِحَّةِ ما تفعله، وكان نهمُها مُقتصرًا على أحلامِها الكسيحة، وقد تخلَّصَتْ من كلّ عكازٍ تستندُ عليه، وسوف تذهبُ كلُّ إصلاحاتُها هَباءً منثورًا، وسيضيعُ ما أنفقتْهُ من أجلِ التخلُّص مِن الملك يوحب، ويكون حسرةً ووَبَالًا عليها، خاسرةً أحلامها ونفسها، وقتها سَتَسْتَوْعِبُ الدرسَ جيدًا، حيث لا يَنْفَعُها الندمُ أو الشفاعةُ.

أنهى الملكُ يوحب فترةَ الحِدادِ على أبيه في موسم الحصاد، قبلَ إنتهائها؛ وكانتْ مُدَّة الحداد على الملوك عامًا، لحاجةِ الناس إلى مظاهر الفرحة، فاستعدَّت المملكةُ لموسم الحصاد باحتفالٍ كبيرٍ، وبالاحتفاء باعتلاء الملك يوحب العرش، بعدما طعموا وسُدَّ جوعهم وقُضِيَتْ حاجتُهم، وادَّخروا مِن حصادِهم لعامهم القادم، وأراد الملك يوحب أنْ يكونَ العيدُ هذا العام مميّزًا ومختلفًا عن الأعياد السابقة كلِّها، وأنْ يكون أكثرَ بهجةٍ؛ ليجْلو آثارَ الحزن من فوق جباهِ النوباتين، وقد لَبَّ الناس نداءَ قلوبِهم، وفرحوا، ولم ينتظروا الملك يوحب يفرشُ لهم طرقاتِ المدنِ ورودًا ويزيّنها بسنابل القمح الذهبية، فسارعوا إلى الفرحة والاحتفال مِن تلقاء أنفسهم؛ لأنهم قد كُبِّلُوا بِالهَمِّ والغَمِّ في السّنةِ الفائتة كلِّها، فَعَمَّت الفرحة أرجاء المملكة، ومُلِئَت الشوارعُ بمواكب اللهْوِ والمَرَحِ، تَبُثُّ البهجة والسرور في نفوس الناس، وخرج الناسُ من بيوتهم، وانضمُّوا لموكب مدينة قُصر، فامتدَّ الموكب لمئات الأمتار، وكان المهرّجون يؤدون ألعابًا مُختلفةً كان لها الدور في التفريج عن رُوّادِ الموْكب، والسحرةُ قد سَحَرَت العيونَ بتصوُّرِ أشياءٍ تتحرّك وهي غير موجودة في الأصل، ومَرّ الموكبُ على أرجاء المدينة كلِّها، ثم استقرّ في ساحتها الكبيرة، واستمرّت الاحتفالات والألعاب.

حضر الملك يوحب بصحبةِ كبيرِ القادة حاتبتي، وشاركَ الناسَ فرحتهم، فهتفَ الروّادُ بحياة الملك مُمْتَنِّينَ له؛ لإنقاذهم من الجوع، وردّدوا:

- عاش الملك يوحب الخالد، عاش الملك يوحب الخالد، عاش المنقذ.

وكانت سعادةُ الملك يوحب لا توصف؛ وذلك مِن شدّةِ ما قوبل به مِن ترحابٍ وثَنَاءٍ صادِقٍ، فَشَعَرَ بالفخر وعزّة النفس، فتباهى بهم أمامَ حاتبتي السعيد أيضًا لسعادة الناس.

يمدّ المحتفِلون أيديَهم بحفن القمح للملك، فيأكل منها القليلَ ولا يردّ أحدًا قد مَدَّ يده إليه، وتذوّق خبزهم، فوجده أشهى مِن خبز القصر ومن كل خبز أكله، وله نكهة مميّزة، تجوَّلَ الملك بين الناس والبسمة لا تفارقُ وجوههم السمراء، وعيونهم يغشاها الأملُ والحلمُ والكرامةُ، ومازالوا يهتفون باسمه:

- عاش الملك يوحب الخالد، عاش الملك المنقذ.

وزارَ الملكُ معبدَ النوبات؛ لتأدية طقوس العيد مع الكهنة، وهناك قد أنهَى أزمةَ الكهنة، وأعاد إليهم أملاكهم، ماعدا الأراضي التي وهبها لهم الملك شنوات في حياته، وأعاد نصف أراضي المعابد التي قد صودِرَتْ، ماعدا الذهب، ففهمَ الكهنةُ أنَّ الملكُ الجديد ليس غرًّا يمكن خداعه، وليس لقمةً سائغةً في أفواههم، فوعوا صغرَ حجمِهم بالمقارنة بحجم الملك يوحب، وخضعوا له.

وبدأت الطقوس الاحتفالية، فرَقَصَت الرسومُ على الجدران والأعمدة، وتمايلتْ الأحرف مع نسمات الفرح والسرور، ونشوة انفراج الأزمة.

وتابَعَ الملكُ يوحب حصادَ القمح مِن القرى، وشاركَ الفلّاحين حياتهم وطعامهم، وشاركهم جنى المحصولَ واستعدّادهم لتوريده إلى الصوامع الملكيّة، وظلّ عدَّةَ أيامٍ في جولاتٍ مستمرَّةٍ في القرى وبين الحقول، وحاتبتي لا يفارقه البتّة؛ خوفًا عليه.

افتقدَ الملكُ يوحب مظاهرَ البهجة والصحبة التي أَلِفَها في الأعياد السابقة عندما كان الملكُ شنوات حيًّا، وكان كبيرُ الكهنةِ كاعبر حاضرًا، وهو حرٌّ! غيرُ مسؤولٍ عن شعبٍ كاملٍ يتعرّضُ لظروفٍ قاهِرةٍ، بالرغم مِن أنَّ تنظيمَ عيدِ الحصادِ كان مثاليًّا هذا العام، وأكثرَ بهجةً وسرورًا مِن الأعياد السابقة كلِّها، والمحصول أيضًا كان جيِّدًا ووفيرًا، ومَنْ حَضَرَ الاحتفالاتِ قد شَهِدَ للملكِ يوحب بالكفاءةِ، وبقدرتِهِ الكبيرةِ على إدارة المَمْلكة، وقد خَيَّبَ كلَّ الظنونِ التي توقّعتْ فَشَلَهُ، وعدمِ بقائه كلّ هذه الفترة في سدِّةِ الحُكم دون أنْ ينالَ منه أعداؤه.

بعد انتهاء الاحتفال وخلاء الأرض الزراعية وفوات العيد، لن يبقى غيرُ أمرٍ واحدٍ مؤجَّلٍ، الحرب، التي بدأها الملكُ شنوات، وأصبح قَدَرُهُ إنهاءَ هذه الحرب كما أنهى كلَّ شيءٍ قد ابتدأهُ أبوه، فَلِكُلِّ ملكٍ حربٌ تخصُّهُ، وهذه الحربُ تخصُّ الملكَ يوحب، وجسارته وحماسته تدفعانه لاستكمالها، لكنّه قد فَكَّرَ بعقله وليس بقلبه وقرّر إرجاءَ الحربِ؛ مِن أجل إنهاء خلافاتٍ قديمةٍ عالقةٍ، لابُدَّ مِن إنهائها أولًا مهما كَلَّفَتْ.

إنتاج الإقليم الأوسط الذي اشتهر بخصوبة أراضيه ووَفْرَة وجَوْدَة محاصيلِهِ هذا العام يكادُ يكفي حاجةَ سكّانِهِ عدّة أشهر، فاخْتفتْ معالمُ الفرحةِ مِن الإقليم، وتهرّبَ الفلّاحون مِن دفْع الضرائب، وأخفوا نصفَ غلَّتِهِم عن الجُبَاةِ، وأصبح مزاجُهم سيِّئًا، وأُصِيبوا بضيق النفس خلال عيدهم المُفضّل، وفي هذه المناسبة أُعفي عن كاعبر؛ وذلك لامتصاص غضب الناس قليلًا، لكنّ حورحور أعفتْهُ من مَهامِهِ، وحدّدتْ إقامَتَهُ بالقصر الأبيض؛ ليكون تحت نظرها، وعيّنتْهُ في منصبٍ شَرَفِيٍّ كمستشارٍ دينيٍّ لها، فلمْ يستطِعْ كاعبر الاندماجَ في القصر ولا الاختلاط بالحاشيةِ صاحبةِ السُّمعةِ السيّئةِ، وحورحور لا يقلقها شيءٌ، ولا يقلقها شُحُّ الغلال، ويَنْتَابُها حالةُ اطمئنانٍ عجيبةٍ، واعتبرتْ أنَّ الأزمةَ غيرُ حقيقيّةٍ ما دامَتْ خزائنُها الملكيّة مملوءةً، وكذلك خزائن النوبات، والآن هي مستعدةٌ للزحف إليها والاستيلاء عليها، ومِن كثرة ما ألهاها الأملُ وزعت الأنْصبةِ على عشيرتِها مِن مخازن النوبات، وخوفر قسم ريع الإقليم على أبنائه، دونَ أنْ تحصلَ حورحور على شيءٍ.

والأماني والأطماع في قصر سيو لَيْسَتا أقلَّ ممّا في القصر الأبيض، وبعد اعتلاء ابن الملك يونسي العرش، ازدادت الأطماعُ توحُّشًا، فلم تجد مَنْ يردعْها، وكبرت الأماني حتى أصبح لكلِّ شخصٍ مطمعٌ خاصٌّ، فكانت المؤامرات تُدَبَّرُ علنًا، ونارمر يشاهدُ الموقفَ مِن بعيدٍ ولا يتدخّل، وأكثر ما

أثار غضبَهُ هو محاولة الكهنة والحاشية في تقاسُمِ الفتات في حين أنّ المملكة كانت صرعى ومهدَّدةً بالغزو النوباتي، ولا هَمّ للكهنة سوى المكاسب والأموال، فتساءل نارمر مع نفسِهِ: أين الآلهة؟ وماذا تفعل الآن والمملكة ضائعة؟ أليس مِن الأجدر أنْ تنقذَ الموقف، وقد قدّمت المملكةُ وأهلُها آلافَ القرابين قربى لها، والسيوات مملكة الآلهة؟ لماذا تقف مكتوفةَ الأيدي ولا تفعلُ شيئًا؟

- آلهة عاجزة!!

فأخذ فأسًا ودخل معبد سيو، وطرقاتُهُ خاليةً من المارّة، وأجواء الليل باردةً وهادئةً، فبدأ بضرب رؤوس التماثيل؛ ليخفّف مِن وطأة القهر والعبء الذي يحسّ بهما، والقمر بازغًا يُنير له السبيلَ ليُحطّمَ رؤوسَ آلهتِهِ كما يحلو له، وكان الكهنةُ مشغولين بتحصيل الفتات وتقاسمها على حساب أنقاض مملكةٍ تفضّلَتْ عليهم كثيرًا، متقاعسين عن حماية آلهتهم، ولم تكن هناك قوّة لتمنعَ نارمر مِن تنفيذِ انتقامه ضدّ الآلهة التي عَبَثَتْ بهم وأَخَذَت القرابين وتَرَكَتْهُم لأنفسهم.

وفي الصباح، أَحْدَثَ فِعْلُ نارمر جلبةً وضَجّةً في المدينة، وأصبح الحدثُ هو شغلها الشاغل، وفتّشت المدينة بحثًا عن هذا المارق الكافر بآلهتهم، وزعم كبيرُ الكهنة أنَّ الآلهة سوف تنزلُ عقابَها على مَنْ تَطاوَلَ عليها، وأنها

ستنْتقمُ منه شرّ انتقامٍ، وأخفى نارمر أمره عن نفسه، ليس خوفًا، بل زهدًا في البَوْح، وقد أضناه التعبُ والنكْساتُ المُتلاحقةُ التي تتعرّض لها السيوات.

استغلّ كبيرُ الكهنة الحادثَ للتخلُّص مِن منافسيه، واتهم الكثيرين بالزندقة والتطاول على ذات الآلهة والاعتداء عليها، وجَبُنَ عن اتهامِ نارمر الذي يمثِّلُ عَقَبَتَهُ الرئيسةَ أمام طموحه، وهذا الطموح كانَ الأخذ في النموّ، فحمِّلَهُ مسؤوليةَ ما حدث بطريق غير مباشر، واتّهمه بالإهمال؛ لإحراجه أمام الناس، وأطلق حملةً في المدينة تُشَهِّرُ بسُمْعته، فلم يصدِّقْ السيواتين ما يُقال، وذلك بالرغم مِن المكانة العظيمة لكبير الكهنة في نفوسهم؛ لأنَّ ما فعله نارمر للمملكة لا يحتاج لمَدْحٍ، فيصدقّون، ولا يحتاج لِذَمٍّ عزيزِهم، فيكذّبون، فحاقَ مكْر كبيرِ الكهنة به، وسقط مِن قلوب الناس، ونبذوه، فحاولَ كبيرُ الكهنة تعطيلَ إمدادِ مدينة نورس بالمُؤَنِ؛ وذلك نكايةً في نارمر وسنورع، وكادَ ينجح في ذلك عندما وافَقَهُ الملك وحاشيته، وعَطَّلَ نداءَ الحربِ؛ لأجَلٍ غير مُسمًّى؛ بحجّةِ أنَّ المملكة تعاني الفاقةَ بسبب الحرب الأخيرة، وما مِن داعٍ يُجْبُرُها على الاستمرار في الحرب وهي غارقةٌ بالمعاناةِ، فتركَ نارمر المدينةَ ولحق بسنورع؛ ليشاوره في الأمر، فوبّخهُ سنورع على تركِهِ العاصمة فريسةً سهلةً في يَدِ حاشيةٍ فاسدةٍ وكهنةٍ فاسقين، وقال:

- كيف تترك المدينة لهم؟ وكيف تهرب مِن المواجهة؟!

- لم أَخْشَ الصدامَ معهم! إنقاذَ السيوات هو كلُّ ما يُهمُّني.

- إنّ دفاعَكَ عنها يبدأ مِن الداخل، حيث يختبئ الخونةُ والأفّاقون.

سكت نارمر يفكّر، فاقترب منه سنورع وفي قلبه بقايا ندمٍ، ووضع يده على كتفه، وقال بِوُدٍّ صاف:

- إنهم فسدةٌ غيرُ صالحين، وخطرهم أشدّ مِن أعدائنا، فكيف نُؤَمِّنُهُم على وطنِنا؟!

- إنهم عصبةٌ، وأنا وحدي، فجئتك راضيًا.

- أنا معك! عُدْ إليهم وأنقِذْ ما يُمكنُ إنقاذه.

وساد سكونٌ مطمئنٌ بينهما، تأمّلَ سنورع نارمر طويلًا، ثم قال:

- أصبحتُ أدركُ الآن سببَ تقديرِ الآلهةِ بأنْ رَمَتْكَ في طريقي، إنه قدرُكَ يا نارمر، قدرك أنْ تصارعَ الظلمَ وتقهره، قدرك أنْ تنقذَ هذا العالمَ مِن الشرور.

- لكنني فارسٌ صغيرٌ، لا أقوى على شيءٍ، ولا مَجْد لي!

- لا تتعجَّل الأقدارَ يا نارمر، فقد خُلِقْتَ لتسودَ الأرض.

- أنت أحقُّ بذلك منّي يا أبي، إنني لا أطمع إلّا في عيشٍ كريمٍ وحياةٍ حرَّةٍ لكلِّ السيواتين.

- هذا قدرُكَ يا نارمر، ولا مهرب مِن القدر، هكذا حدَّثني عنك كبيرُ العرّافين متاح قبل موته.

- متاح! ماذا قال؟

- قال كلام كثير وأخذ علي ميثاقا الا أخبرك به، لكني سوف أقص عليك بعضه في حينه؛ كل ما أود أن تعرفه الآن إنك سوف تسوسُ الأرضَ.

أُحيطت مدينة سيو بِغَيْمَةِ سلامٍ تغشي أهلها النعاس أمنة، والحرّاس ساهرون على الأسوار، وترجّل نارمر في شوارع المدينة الخالية إلّا مِن ظُلمةٍ يتخلّلها ضوءٌ خافتٌ ينبعثُ مِن سرجٍ متباعدة على مَرْمَى البصر، فتخلّصَ مِن أشياء كثيرةٍ قد تكدَّسَتْ في ذِهْنِهِ، وسار بغير هدًى، الطقس جميلًا وحالمًا، فسارَ يُغريهِ بمزيدٍ مِن الصفاء الذي يحتاجه والذي يغيبُ عنه منذ سنين قد دَئِبَ فيها على المشقّة والشقاء، فكانت نسماتُ الليلِ تسري داخله وتأتيه بسكينةٍ واطمئنانِ روحٍ، فيُطربه ذلك، فجرى الخَدَرُ في عروقه، وصفى عقله. سمع جلبةً عند مفترقِ طرقٍ، كانت تصدُرُ من الشارع المجاور، صيحات حماس وصوت حوافٍّ فرسٍ تضرب بلاط الطريق بِوَتِيرَةٍ متسارعةٍ، فالتَفَتَ نارمر مِن خلف حائط نحو مصدر الصوت، فشاهد فارسًا

مُلثَّمًا يضربُ الهواءَ بسيفه، فارعَ الطُّول، رشيق، جسده ممشوق، وخفيف الحركات، يمسك بالسيف ويضرب الفراغ بقوة بمهارةِ المبتدئين، يقاتل أشباحَ ليلٍ لا وجود لها إلّا في خيالاته، والفرس تحته طوْع بنانِهِ، بينهما انسجامٌ عجيبٌ قد أدهشَ نارمر، يكادُ يتواصلا فيما بينهما بالتخاطُر، فاقتربَ نارمر، وبصوتٍ مرتفعٍ قال:

- مَنْ أنت؟

فنظر الفارس لنارمر، والتقتْ عيونهم للحظاتٍ تعارفيّةٍ جميلةٍ، ثم افترقا، وانطلق الفارس بعيدًا متجاهلًا نارمر، فناداهُ نارمر، فلم يستجبْ له الفارسُ وابتلعتْهُ طرقاتُ المدينة، فلم يستسلمْ نارمر، فبحثَ عنه في المدينة، فلم يجدْهُ، فسأل عنه قائدَ الحرس حاتسنو، فضحك بهستيريّةٍ، ودَلَّهُ على بيت دون أنْ يفصحَ عن اسم هذا الفارس.

يتوسَّطُ البيتَ حقلٌ صغيرٌ، يقع على طرف المدينة الجنوبيّ، بيت وحيد جميل، مُنْزَوٍ وسط الحقول، أمامه قنديل معلَّق يُنيرُ المدخلَ، وتوجد بالجوار حظيرةٌ مسقوفةٌ بالخشب ومكشوفةُ الجوانب، الفرس مربوط بها يأكُلُ العليقَ، فلمّا أحسّ الفرسُ بنارمر توقَّفَ عن مضْغِ طعامِهِ، ونظر إليه طويلًا ثم خبأ رأسه، هناك نافذةٌ وحيدةٌ جوار الباب ينبعثُ منها ضوءٌ باهتٌ،

فلمّا اقتربَ نارمر مِن البيت، تناهَى إليه تنافُرُ فَتَاتَيْن، فسمعَ نقاشَهما، تقول إحداهُما بِتَهَكُّمٍ:

- أتظنّين أنكِ حامية المدينة ومُنقذتُها؟!

- نعم! إنّ قوّةَ قلبِ مُحِبٍ أعزل هي أجدرُ مِن سيفٍ بتَّارٍ يحمِلُهُ كَارِهٌ.

- تعبتُ منكِ يا حب سنار ومِن مجادلتِكِ كلّ ليلةٍ، فَلِمَ لا تذهبين وتقاتلين في صفوف الرجال؟!

- تعبتُ مِن مجادلتِكِ كلّ ليلةٍ أيضًا، وأخبرْتُكِ كثيرًا أنهم لا يقبلون النساءَ في الجيش، بالإضافة إلى أنهم جبناء يولّون الأعداء الدبر.

انزعج نارمر مِن قولِها، وغادر غاضبًا، عازمًا ألّا يعود مرّةً أخرى، وقد عرفَ حقيقةَ الفارسِ المُلَثَّمِ، وجد سنورع مُستيقظًا عندما عاد للبيت، فسأله عن الفتاةِ التي تتنكَّرُ في زِيِّ فارسٍ وتجوبُ المدينةَ ليلًا، فضحك سنورع، وارتختْ أعصابُهُ، وقال:

- هل قابلتَ حب سنار؟

- نعم شاهدتُها مُصادفةً.

- إنها فتاةٌ غريبةٌ مخبولةٌ! تعتقد أننا عاجزون عن حمايةِ المملكة!

- مع مَنْ تعيش؟

- مع أختِها الصغرى في بيتٍ خارج سور المدينة.

- وأين والديْها؟

- ماتتْ أمُّها منذ كانت طفلةً، وفُقِدَ أبوها في معركة الجسر.

ترك سنورع نارمر يتخبّطُ في كثرة التساؤلات وخلدَ للنوم، فاضّجعَ نارمر في فراشِهِ وسهدتْ عيناه يفكّرُ في حب سنار، الفتاة الجسور التي تخلعُ أنوثَتَها وترتدي فرسًا وتخرج ليلًا؛ لحماية المدينة، أيّ عقل هذا؟ وأي مطمح تريد؟

فرآها في نومِهِ مرّةً أخرى تقاتل بالسيفِ في طرقاتِ المدينة، وتخيَّلها وسطَ معركةٍ حاميةِ الوطيس، فلم تصمُدْ دقائق وسقطتْ تحتَ أرجلِ الخيل، وانفكّتْ ربْطةُ شعرِها الفاحم، وأعادَ ترتيبَ حديثِها مع أختِها الصُّغرى، فلم يَدْرِ بنفسه إلّا وأشعة الشمس تتخلّلُ مِن النافذة وتَضْرِبُ وجهَهُ، فذهب إلى بيتِ حب سنار؛ ليتحدّث معها، شاهدها مِن بعيدٍ تحمل فأسًا وتعمل في حقلٍ مِن الزهور، اقترب بفرسه وهي مشغولةٌ بِفِلَاحَةِ زهورِها، والطَرْح يتمايلُ مع نسماتِ الهواء في غُنْجٍ، كانت زهورًا فريدةً مثل صاحبتِها، لقد خطفتْ بصرَهُ ولُبَّهُ بألوانها الزاهيةِ الجميلةِ، واستقبلتْهُ رائحتُها النفّاذةُ بترحابٍ، فأعادَ البصرَ لحب سنار، فوجدها هادئةً متعمِّقةً في تأمُّل ملامحه، مندهشةً مِن عثوره عليها بهذه السرعة، فالتقت العيون كرّتيْن، فوجدت

القلبيْن خالييْن ويحتاجان للحياة، فتسارعتْ دقّاتُ قلبِ كليهما، واضطربَتْ الدقّاتُ.

قامتها ليست طويلة كثيرا كما بدت له أول مرة، وجهها بيضاويّ يميلُ إلى الاستطالة، بيضاء بَضَّة، تعلو وجنتيْها حمرةٌ قد زادها الخجل، عيونها واسعة تشبه عيون المها، رغم قسوتها وتجاربها المريرة إلّا أنَّ عواطِفَها بكرٌ، فملامحها الحادَّةُ تتحدّثُ عن طيبتها وعطفها، فقدْ مرَّتْ كلُّ المشاهد، وتجلّتْ مشاعرُ الليلةِ الماضيةِ على حب سنار، فأشاحتْ بوجهِها ناحيةَ البيت تواري استحياءَها، وقالت بصرامةٍ:

- مَنْ أنت؟!

- رأيتكِ الليلة الماضية وأنتِ تتجوّلينَ على فرسكِ داخل المدينة.

- أعلم مَنْ تكون! لذلك تجنَّبْتُ الحديثَ معك.

- تجنَّبْتِ الحديثَ معي! لقد وَلَّيْتِ هاربة مثل اللصوص!

نرفزتها اجابته فالتفتت إليه، وقالت:

- أَمَا وقد وجدتني، فماذا تريد؟

- ظننْتُكِ في البداية قاطعَ طريقٍ! أَمَا وقد عرفتُكِ، لا أحتاجُ منكِ شيئًا.

تركها نارمر وغادر، وحب سنار كانت تُتَابِعُهُ ببصرِها ومؤخرة فرسه ترسم لها النهاية، اختفى عن أنظارِها، وتلاشى الغبارُ خلفه، فلم تستطِعْ حب سنار استكمالَ العملِ وعادتْ إلى الداخل يخالِجُها شيءٌ مِن الندم، وفي المساء خرجَتْ كدأبها كلّ ليلةٍ بحماسٍ أكبر، تبحثُ عن شيءٍ جديدٍ لم تَأْلَفْهُ في الليالي السابقة، عن شيءٍ يكسر العادة ويُشْبِعُ وَلَعَها بالمغامرةِ، وتجوّلَتْ في الطرقاتِ عَلَّها تَعْثُرُ عليه، وكان قلبُها شغوفًا. كلُّ الغاياتِ التي تتعلَّقُ بحماية المدينة هذه الليلة قد تبخَّرَتْ في سماءِ المدينة، فكوَّنَتْ قبةً شفّافةً غَلَّفَت المدينة بالطمأنينةِ ونَشَرَت السلامَ.

ونارمر هو أيضًا لم يحملْ سيفًا، امتطَى فرسَهُ وخرجَ أعزلًا يسعى إلى مَنْ يبحثُ عنه بلهفةٍ، تلاشى خطرُ النوباتين، وهو ليس بمعزلٍ عن خطرٍ آخر يَضْرِبُ في القلبِ دون شفقةٍ، المدينة ناعسة في عيونه، ووديعة، ويملؤها النورُ، استوحشَ في هذه الليلةِ كلَّ الطرقاتِ إلّا طريقًا واحدةً، فقد جَدَّ في السَّعْيِ إليه، فوجدَ حب سنار تنتظرُ هناك وديعةً! كأنها شخصٌ مختلفٌ قد غَيَّرَتْهُ نكباتُ الزمنِ، لم يَعُدْ بمقدورهِ غير الانتظار. كأنّ كلَّ العهودِ منذ أزمانٍ قديمةٍ قد اتَّفَقَتْ على الموعد في مكانِ لقائِهم الأولِ، وكانوا يساقون إليه غير عابِئِين.

فلمّا رَأَتْ نارمر قادمًا، رَقَصَ قلبُها على أوتارِ الحنين، واقتربتْ بفرسِها وكشفتْ عن وجهِها، فكانت تُخَبِّئُ البَسْمَاتِ على الوجنتيْن، فَحَيَّاها نارمر

بِجِلْفٍ، ربما كان هذا منه بسبب عهدِهِ وطُولِ عِشرتِهِ بالجنود والسيف، انزعجتْ حب سنار مِن طريقتِهِ قليلًا، لكنْ ليس بإمكانها الاعتراضُ، ولم تَشَأْ إفسادَ حلاوةِ اللحظةِ، ولم تَشَأْ أنْ تَحْرِمَ نفسَها رغبةَ الحديثِ معه، انسلّت الكلماتُ مِن ألسنتِهم وَصَمَتَا صمتًا وكأنهما قد أُصِيبَا بالخرس، فتناهى إليهم همسُ الليلِ وهبوبُ النسمات الرقاق، وبعد انتظارٍ قد طالَ عليهم، قال نارمر يُنْهِي حالةَ الترقُّبِ هذه، وهو يُشيرُ إلى الفراغ:

- لماذا لا تقاتلين أحدًا الليلة؟

فقالت حب سنار متلهفةً لإجابته:

- تركتُ السيفَ في البيت! وخرجتُ الليلة أتمشّى دون واجباتٍ.

- ألستِ تحملين على عاتقِكِ حمايةَ المدينة مِن النوباتين؟! مُشَكِّكَةً في نوايانا الحسنة؟!

- لا أُشَكِّكُ في نواياكم! لكنّ منكم مَنْ فَرَّ عندما اشتدّ القتالُ!

- كلَّا! هذا غير صحيح، لقد نَصَبَ لنا النوباتين فخًّا مُميتًا، وإنْ لمْ ننسحبْ، لَمَا كان أحدٌ منّا متواجدًا الآن لحماية المملكة.

- هذه حِجَجُ الضعفاءِ والخانعين! لقد فَرَرْتُم وتَرَكْتُم شنوات وجنودَهُ يعيثون في المملكة فسادًا حتى اكتفوا. فَمُوتُوا، وسوف تَلِدُ أمهاتُكم أَرْجَلَ منكم.

- وما أدراكِ عن الحرب؟ هل قاتلتِ يومًا في معركةٍ حقيقيّةٍ؟ أتظنِّين أنّ بمجرّد إمساككِ السيف والتجوُّل ليلًا وأنتِ آمنة داخل مدينةٍ أسوارها منيعة وأبوابها مغلقة بأنكِ قد أصبحتِ فارسًا قادرًا على خوْضِ الحروب؟! إنَّ الأمرَ أعظمُ مِن ذلك!

- أدري عن الحرب الكثير! أدري ما لا تدريه أنت! لقد تركتْنا الحربُ بلا أبٍ، فأخبِرْني أنت: هل تعرفُ عن الحرب كما أعرف؟

صمت نارمر، وفي قلبه اعتذارٌ يَأْبَى الخروجَ، فأردفتْ حب سنار:

- أَفْعَلُ ذلك؛ لتعلموا أنَّ المدينةَ يحميها أهلُها.

وغادرت مِن توِّها، لا تلوي على شيء، تتجرّع غصصَ فَقْدِ والديْها وألمَ الغياب، فلم يحاولْ نارمر اللحاقَ بها، وبَقِيَ هامدًا للحظاتٍ، يحاول استيعاب كلَّ ما قالتْهُ حب سنار، فَعَظُمَ عليه الاستيعاب، واستدار عائدًا، لاحظ لأوّل مرّةٍ وجود آخرين مِن أهل المدينة ساهرون على حماية مدينتهم، فعظم في قلبه ما شاهده واقشعر بدنه، واتّجه إلى الباب الشرقيّ، حيث إنه كانَ الثغرةَ الوحيدةَ التي يستطيعُ النوباتيين مهاجمةَ المدينة من خلالِها،

فالجبال تُحيطها مِن الجهات الثلاثة الأخرى، وتَأَمَّلَ نارمر مِن فوق الأسوار الأفقَ والجبالَ، وتوقَّعَ رؤيةَ مقدِّمةِ جيشِ النوباتين تُلَوِّحُ في الأُفُقِ، فلمّا تخلَّفُوا عن المجيء، غادَرَ الأسوار.

وفي الصباح، خَرَجَ مع سنورع، وتفقَّدَا المدينةَ، وقال نارمر يستشِفُّ بواطن سنورع:

- ماذا ستفعل مع حاشية الملك والكهنة؟ فهم يعارضون كلّ شيء نقترحه.

- هم إمّعةٌ! لا وزن لهم في وجود ملكٍ حقيقيٍّ، فلم يتطاولوا على المملكة إلّا بعد موت الملك يونسي.

- تَخَلَّصْ منهم، وأَنْهِ الأمر.

- لا تَكُنْ مُتسرِّعًا يا نارمر! فَكِّرْ في كلّ شأنكَ جيدًا، حتى تملَّ التفكيرَ به، ثم عاوِدِ التفكير فيه مرّةً أخرى لاحقًا، وتريَّثْ في كلّ شؤونك، هذه وصيّتي لك.

- خير الوصية يا أبي، سأعمل بها مِن اليوم.

- إنّ الجيشَ شِبْهُ مُستعدٍّ لاسترداد أرضنا، لقد تركناهم ما يقارب العام، هذا كافٍ.

- التوقيت مناسب لقتال النوباتين، وهم يعانون المشكلات.

- نعم يا نارمر هذا صحيح، لكن لكلِّ شيءٍ وقته.

الملك يوحب يراقب كلَّ التحرُّكات مِن بعيد، وليس بغافل عن شيءٍ، لكنه يحمل الكثير، وحورحور تعمل على إبقاءِ نفسِها في مَعْزلٍ آمنٍ عن بَطْشِ الملكِ يوحب إلى أنْ تُجَمِّعَ جيشَها، وإلى أنْ يستعِدَّ سنورع، فأرسلتْ إلى يوحب رسولًا يدعوهُ للسلم، فلمْ تَخِلْ عليه الخُدعة، وقرّر مشورة حاتبتي لمعرفة نواياها الحقيقية، وكانوا مُستَبْعِدِين قرارَها بالزحف إليهم، وهي تُدبِّرُ لقتل الملك كَخُطَّةٍ بديلةٍ مِن داخل قصره التي هي أعلم منه بخفاياه وبأسراره، ثم تخرجُ إلى الشعب وتُنَصِّبُ نفسَها ملكةً على القطريْن، مُعتقدةً أنها معبودةُ الناس، ولم تُعْطِهِمْ غير الاستعلاء عليهم، وأذاقَتْهُم الجوع، وقد أصبحوا في عهدِها في ذِلَّةٍ.

وأَتَتْهُمْ حورحور غازيةً بِكَيْدِها، وبالاتفاق مع كبيرِ الكهنة الجديد للنوبات الذي خانَ إِلَهَهُ واتَّبَعَ هَوَاهُ، ودبرا لقتل الملك يوحب بالسُّمِّ؛ كي يموتَ في صمتٍ، ولِئَلّا تُثار ضجةٌ حول موته، فاكتشف حاتبتي المؤامرةَ مصادفةً، فحصر المتآمِرين في شخصِ كبير الكهنة وخاصّته، ودخل على الملك، ووجهه ينذر بِشُؤمِ ما جاء مُبَلِّغًا به، فَرَوَّعَ بذلك يوحب الذي عهده طوال حياته ضاحكًا مستبشرًا، فتلهَّفَ لمعرفة الخبر:

- ما بك؟! هل نَزَلَتْ بك مصيبةٌ؟

- أخطر مِن ذلك يا سيدي الملك.

- هاتِ ما عندك يا حاتبتي.

- إنّ الكَهَنَةَ يتآمرون عليك؛ ليقتلوك بتدبيرٍ مِن حورحور.

فسخر الملك يوحب منهم، وقال:

- إنهم مخادِعون، لكنهم كَسَلَةٌ وعاجزون.

- كادوا ينجحون هذه المرّة، ودسُّوا السُّمَّ في طعامك.

- هذا المعبد أصبحَ يثير المشكلات والقلاقل، أنا أفكّرُ في هَدْمِهِ فوقَ رؤوسِ الكهنة؛ فأتخلّص منهم.

- سوف تُغْضِبُ الشعبَ إنْ فعلت، بل اسْجن المتآمرين وامحو النقوشَ التي تُمَجِّدُ أعمالَ الكهنة.

فقال الملك يوحب رغم اقتناعه التامّ برأي قائد جيشه حاتبتي مشابها أباه:

- سأفكّر بالأمر.

وفي وقت تأدية الكهنة الطقس الأسبوعيّ، حاصر حرّاس الملك المعبدَ وقتلوا كلَّ الموجودين، ثم أَعْمَلَ المعماريّون أدواتهم، ومَحوا النقوشَ

والرسومَ التي تُمَجِّدُ الكهنة، ونقشوا غيرَها في تمجيد الملك يوحب وفي تسجيل إصلاحاته وفي تأريخ الاحتفال بموسم الحصاد، وبعد إنتهاء العمل تفقَّدَ الملكُ المعبدَ، ورأى الكتابات الجديدة، وخطرتْ له فكرةٌ لا يعلمُ مِنْ أين أتتْهُ، بوجوب وجود إرثه الخاص بين أسلافه العظماء، فأَمَرَ بتشييد معبدٍ جديدٍ بالجوار، يكون أكثر اتساعًا وأكثر أبهةً مِن القديم، لكنه أرجأ التنفيذ حتى ينتقمَ مِن حورحور ويُرجع الإقليم لسلطته.

حَدَثَتْ فجوةٌ دينيةٌ في ظلِّ غيابِ الكهنة، لأوّل مرّةٍ في تاريخهم يكون فيه منصبُ كبيرِ الكهنة شاغرًا دون وجود بديلٍ كُفْءٍ، ورفض الملك يوحب تعيين آخر، واعتبر نفسه الإله والكاهن الأكبر، مُتخلِّصًا بذلك مِن أكبر مشاكله، ليتفرغ لحورحور، آمِنًا مَكْر الكهنة وأيّ مؤامراتٍ قد تأتيه مِن الداخل.

اغْتَمَّ النوباتين، واستعادوا ذكرى حربٍ وقحطٍ لم تَزَلْ بقاياهما موجودةً، وما كانت لهم الخيرةُ مِن أمرهم عندما أطلقَ الملك يوحب نداءَ الحرب، وأمر بتعبئة الجيش، واجتمع الجنودُ في ساحةِ التدريب تحت الشمس الحارقةِ يستنزفون طاقتَهم؛ استعدادًا للحرب التالية، والملكُ يوحب يتردَّدُ على ساحة التدريب كلّ يومٍ، ويثقل مهارته مع القادة والجنود، الكلّ يعلم ألّا مناص مِن هذه الحرب، مقتنعين هذه المرّة بجدوَى القتال، ويَدْرُون منطقَ الحربِ.

لن تفلحَ الخدعةُ هذه المرّة في نصرهم؛ فالطرفان متكافِئان ويعرفان إمكانيّات الآخر، والساحة مكشوفة لكل الاحتمالات، لن تكون الحرب بينهما سجالًا، بل ستكونُ معركةً واحدةً فاصلةً، سوف تَحْسِمُ النزاعَ نهائيا وتُنْهي الحربَ، وأخطأ الملك يوحب في التقليل مِن خطورةِ حورحور، فقد فتحتْ حورحور كلَّ الأبواب التي تُمكِّنُها مِن الانتصار، فالخديعة والمكر هما ما ينقصان الملك يوحب وكبير القادة حاتبتي رغم ذكائهما الحادّ.

قُتِلَ العرّافون والسحرةُ، وقُضِيَ على الكهنة، فمَنْ الذي سيتكهّن بالنتيجة، والحرب لم تبدأ بعد؟! فارْتَجَلُوا دون براهين.

إحساسه بالوحدة يزداد مع إشراقة شمس كل يوم جديد، يستوحش دنيا لم يعهدها، قد غابتْ فيها وجوهُ أحِبَّائِهِ، وقد كانت دنياه عامرةً مِن قبل، فتمخَّضَتْ هذه الوحدة عن فوضاه الداخلية وعن شعث أفكاره، وليس بمقدور أحد حاضر مساعدته أو معرفة ما يدور داخله مِن ضجَّة عواطف، ومِن حنين مُضْنٍ إلى الماضي، يُخالجه إحساسٌ مجهولٌ يُرِيبُهُ، يتلعثم بين الرجاء في النصر والخوف مِن عاقبة السوء، والشعور بالحنين إلى الأيام الخوالي، وقد داهمته رائحةُ أبيه، وتمنّى لو كان معه الناصح والمعين، ومِن العجيب أنه في لحظةٍ قد تذكَّرَ جلساتِ سمر حورحور، وأنس بها، فاستفاقَ لمّا استعادَ مساوِئَها وأنَّ إثمَها أكبرُ مِن نفعِها، وعادَ إلى إحساسه بالوحدة الذي يؤرِّقُهُ ويُقْلِقُ مضجعَهُ، فتلاشتْ موروثاتُهُ، فأدركَ هشاشَتَهُ وضعفَهُ

أمام نكباتِ الزمن وأمام تقلُّبِ الأحوال والدول، فلمّا زاد شقاؤه، ناجَى ربَّهُ الذي في السماء، وسأله أنْ يلهمَهُ الرشدَ.

يحتاجَ لشخصٍ يثق به يحدِّثه عن خوفه الداخليّ دون حرج أو خوف أن يذاع سره، حيث إنَّ الأجدرَ والأوثقَ له قد مات، لا يرغب حديث عن خوفه وعن فوضاه الداخلية مع أحدٍ مهما كان مقرَّبًا منه كما ورث ذلك عن أبيه، فزار قبرَ أبيه وناجى أباه دون تردُّدٍ، دون هيبةٍ، دون تكلُّفٍ، ناجاه بصدقٍ مِن خلفِ التابوت الذهبيّ، اشتكى له يوحب ضعفَهُ وتلعثمَهُ بين الصواب والخطأ، فظهر أمام شنوات بمظهرِ الطفل الذي يستعطف أباه ويحتمي بجواره، كان المشهدُ عكسَ ما يشاهده أعداؤُهُ وخاصَّتُهُ مِن شدّةٍ وحزمٍ، فقد اشتكى له تكاثر المُعضلات عليه، وقد نجح في التخلُّص مِن معظمها، وبقيت المعضلة الكبرى التي يصعب الفكاك منها، حورحور الخائنة، وسنورع طالب الثأر، والأنباء تؤكِّدُ قُرْبَ تحرُّكِهِم ضده.

والملك شنوات صامتٌ لا يُجيب! والملك يوحب لا ينتظر الردَّ!

ألم يكنْ شنوات يَدَّعِي الألوهيةَ ويَدَّعِي قدرتَهُ على الخلق؟! فلماذا لا يقومُ مِن رقدته الآن ويُجيب ولدَهُ أو يحدِّثه مِن وراء حجاب فيطمئنّ يوحب؟!

اشتاقَ يوحب كثيرا لرؤيته، واجْتاحَتْهُ الأوقاتُ السعيدةُ التي قضوها معا، فدُمِّرَتْ معنوياتُهُ، وحدَّثَتْهُ نفسُه بكشفِ الغطاء عن التابوت ورؤية

وجهِهِ الذي يفتقده، فخَلَعَ رداءَهُ الملكيَّ، وأمْسَكَ سَيْفَهُ وحاوَلَ زعزعةَ غطاءِ التابوت المُحْكَمِ، ولكنّ الغطاءَ أَبَى أنْ يتحرَّكَ ولو قليلًا، فأَبَى يوحب إلّا أنْ ينزعَهُ، وبعد جهدٍ جهيد، استطاعَ يوحب إبعادَ الغطاء مسافةً كافيةً تُمَكِّنُهُ مِن رؤيةِ أبيه، لقد هَتَكَ حُرْمَةَ الملكِ التي تُجَرِّمُ قوانينُه كشفَ النقاب عنه، وأنّ عقوبةَ هذه الجريمةِ الموتُ، فداهَمَت الغرفة رائحةٌ كريهةٌ وعفنٌ، فأغْلَقَ يوحب أنفَهُ وحاوَلَ عبثًا بعثرةَ الرائحةِ بعيدًا عنه، لكنه وجد الجسد مُكَفَّنًا بشرائط الكِتّان، ووجد الصّمْغَ جافًّا وقد تغيَّرَ لونُهُ، فانتبهَ يوحب لشنيعِ فِعْلَتِهِ، فاعتذرَ لإِلَهَهُ الراقد أمامه، وطلبَ الغفرانَ منه، ثمّ أعادَ كلَّ شيءٍ مكانه، وغادَرَ المقبرةَ نادِمًا.

وأَنْهَكَ نفسَه في التدريب؛ ليتناسى متاعبَهُ وأحزانَهُ، والأوهام التي يجهلها يجد صداها في قلبه، وتعاركَ مع أحدِ الفرسان، وكان الغضبُ يتفجَّرُ داخله ويضغطُ عليه لينفث كلَّ المكبوتات، فأصاب الفارسَ في كتفه بجرح غائر، فنقلوا الفارس للتداوي، واصطحبَ حاتبتي الملكَ يوحب في جولةٍ قصيرةٍ حول الساحة، وقال حاتبتي:

- أنا مُربِّيك ومُعلِّمك قبل أنْ أكونَ كبيرَ القادة، أفي داخلك ما يقهرك؟

- أعترف بذلك، لكنني لا أدري ما هو.

- رغم انشغالك إلّا أنك وحيدٌ وتشعر بالغربة.

- أجبرتْني الحياةُ الملكيةُ على فعل أشياء لا أحبُّها، لقد فرَّطْتُ في كثيرٍ مِن حقوقي.

- أنت تحتاج إلى زوجةٍ ودود.

- الجواري يملأن القصر.

- الجواري لقضاء الشهوة! لكنّهنّ لن يؤنِسْنَ قلبَكَ، فقلبُكَ خربٌ لا يعمِّرُهُ الا زوجةٍ.

- يومًا ما سوف أتزوَّجُ مِن عامَّة الشعب، مِن هؤلاء الناس التي تنتمي إليهم أُمّي نوبة.

- نِعْمَ الرأي، تلزمك زوجة مِن الشعب، فالنوباتين طيّبون وودودون.

- لكن كيف أجدُ فتاةً مناسبةً؟

- أعرف فتاةً ستعجبك وسترتضيها زوجةً لك.

- مَنْ هي يا حاتبتي؟

- أستسمحكَ عُذرًا يا سيدي، أرغبُ في إبقاءِ أمرِها مخفيًّا عنك الآن، لكنني مُتَيَقِّنٌ بأنها الفتاةُ التي تريد، وأنها التي تصلحُ لك.

عَمَّ صمتٌ، تقطعه ضرباتُ السيوف، وتأمل الملك غصون الأشجار.

عاد حاتبتي للحديث عن الحرب:

- متى تأمر بتحرُّك الجيش؟

- هل أنت مستعدٌّ بقيادة جيشي واسترداد الإقليم؟ فلن آتي معكم!

- إنني مستعدٌّ لخدمتك دائمًا يا سيدي الملك.

- إذًا، فلتتحرك في ثلاثةِ آلاف جنديٍّ في أقرب وقت.

- ثلاثة آلاف فقط؟ أليس هذا العدد قليلًا يا سيدي؟

- ليس قليلًا بالمقارنة بجيش الإقليم، وأنت تفوقهم قوَّةً بحكمتك.

- جَهّزْتَ سبعةَ آلاف جنديٍّ لهذه الحرب، أليس كذلك؟

- بلي، لكنني أفكّر في تدعيم القوّات المتواجدة على الضفة الأخرى مِن النهر؛ للحفاظ على كلِّ شبرٍ قد تركه لي أبي.

- ليس هناك داعٍ لذلك الآن يا سيدي، فالسيواتين منهكون ويحتاجون إلى وقتٍ طويلٍ لِلَمْلَمَةِ شتات أمرِهِم.

- أخطأتَ الحُكْمَ هذه المرَّة يا حاتبتي! فقد قاتَلْتَ فرسانَهم وجهًا لوجه خلافك، ورأيت نظرات أحداقهم التي تنبذُ الهزيمة وتشتاق للنصر.

- إذًا، زِدْ العدد قليلًا؛ فربما تجمِّعُ حورحور ما يفوقنا قوةً.

- لا أستطيع، فخزينةُ المملكة لا تتحمَّلُ نفقاتِ مَزيدٍ مِن الجُنْد.

- سمعًا وطاعةً أيها الملك.

- ائْتِنِي برأسها يا حاتبتي؛ كي أطمئن، وكي يرتاح أبي.

الظروفُ تدفعُ جميعَ المتخاصمين للحرب، وليس هناك ما يمكن التفاوض عليه، فلن يتنازلَ السيواتين عن أرضهم، ولن يفرِّطَ النوباتين في مكتسباتهم، ولن يتخلوا عن الإقليم الأوسط الذي هو امتدادٌ طبيعيٌّ لمملكتهم، ولن تتراجع حورحور عن غيِّها، وهي تدرك تمامًا أنَّ رِبْحَها هذه الحرب هو السبيل الوحيد لنجاتها، فقد راهنتْ برأسها على إنجاح تمرُّدِها الذي لم يكتمل، ولا يسلم إلّا بموتِ الملك يوحب وبالتخلصِ مِن قوَّة النوبات، وبعد فشل محاولة اغتياله بمساعدة كهنة معبده، فقد استحال القضاء عليه غدرًا، ووجدتْ حورحور نفسَها أمام مواجهةٍ مباشرةٍ معه، فجمعت القادة ومَنَّتْهُم بالأماني، وبغفرانٍ يَسَعُ الأرض، وبجنةٍ عرضها السماء، والجنود تدرك ما ترمي إليه ملكتهم، فلم تؤثِّر بهم وعودُها الكاذبُة ولا تبريراتها الواهية للحرب، لكنهم ضَمَنُوا بانضمامهم لصفوف جيشها الطعامَ والمثوَى لعائلاتهم، بعد ازدياد خوف الناس مِن تفاقُم الأزمة بسبب قراراتِ حورحور، وتبذيرِ أموال الإقليم على مُتعتها الخاصّة، واستهتار خوفر بها وتشجيعه لها لتعجِّل نهايتها.

لكنّ خوفر لم يصبر حتى يقضيَ سنورع الذي نصبه الاثنان ملكًا عليهم في أمرهم، ودَبَّرَ مع شيعته للتخلُّص مِن حورحور، ولاعتلاء العرش بديلًا عنها، وكاد ينجح في ذلك لولا أنَّ أحدَ رجالِ خوفر قد خانه وأخبر ملكته لينال الحظوة، ففكرّتْ حورحور بهدوءٍ للخروج مِن ورطتها التي أدخلتْ نفسها فيها، واستدعتْ قائدَ حرسِها المتآمر ضدّها، وحدّثته بِوُدٍّ مُصْطَنَعٍ وأخبرتْهُ أنها تريد رفع منزلتِهِ وترقيتِهِ لمنصبِ نائبِ كبيرِ القادة، لكنّ خوفر يعترض، ويقف حائلًا بينه وبينها، فابتلعَ الطُّعْمَ ووقع في الشرك بسذاجةٍ، وانقلبَ على صديقه؛ طامعًا في الأمر لنفسه، فلمّا تأكَّدتْ حورحور أن قائد حرسها يقف في صفِّها وقد أمِنَتْ جانبه، دبَّرتْ معه للقبض على خوفر وتأديبه ضامرةً الشر لكليهما، فَدَعَتْ خوفر، فلمّا حضر، حاوَطَهُ عشرةُ حرّاس، وأحكموا وَثاقَه، فنظرتْ حورحور في عينه، واقتربتْ منه، وقبل أنْ تسمع وصيّته، استلتْ خنجرًا وغرزته في عنقه، ولم ينقذه مِن الموت اعتراضُ صديقِهِ المقرب، واستمتعتْ حورحور بمنظرِ موتِهِ، وكان خوفر لا يزال يعتقد بنجاته بأيِّ طريقةٍ كانت على يَدِ الأقدار.

دفنَ الحرّاسُ جُثَّةَ خوفر في العَرَاء بدون مراسم أو شاهد للقبر، مثل الصعاليك والمغضوب عليهم، وليس كما يليق به كقائدٍ للجيش، فتفرَّغتْ حورحور للرجل الثاني بعدما تخلَّصَتْ مِن الأول، فكانت قارورةُ السُّمِّ حاضرةً تحت وسادتها، تطفح بالهلاك والعشاء الشهيّ المُعَدِّ على المائدة، وكان

قائدُ الحرس خادمًا مُطيعًا مُتأهبًا لتلبية نداءِ العشق ومُستعدًّا لمراسم تنصيبه كبيرًا للقادة.

شعر بالرهبة، وقدمه تخطو إلى غرفة حورحور المُحَرَّمَةِ إلّا على مَنْ ترتضيه لها، كان يرتجفُ مِن الداخل وهو يكشف أسرارَ الغرفة، ويخطو نحو مهالك حورحور وفخاخها، فأحسَّ أنَّ الملكَ شنوات حاضرٌ معهم، وبعيون تاضوس تتوعَّده، فدعتْهُ حورحور، فاقترب، وشرب الخمر وأكل التين والعنب، وكان يتعمّق في مفاتن حورحور، فيتضاعف شبقه وولعه بها، فامتنعتْ حورحور، فحاول أَخْذَها بالقوَّة، فأفلتتْ منه بأعجوبةٍ، المشهد نفسه يتكرر بتفاصيله المُمِلَّةِ، وبِحُمْقِ الرجال، غادرت حورحور الغرفة وتركتْهُ وحيدًا يتجرَّعُ غُصَّةَ الخيانة، ويتجرَّعُ غُصَصًا أخرى مُتنوِّعةً، وأحقادٌ تُولَدُ ونيرانٌ تشتعلُ داخله ولن يمهله الزمنُ وقتًا لإطفائها، فالجُرعة مضاعفةٌ هذه المرة، وقد خرجتْ حورحور عن وَقَارِها، وتَخَلَّتْ عن صبرها.

وقبضتْ صباحًا على بقيّةِ المشاركين، وأماتت المؤامرةَ وهي في مَهْدِها، وبموت كبير القادة وقائد الحرس وبسجن معظم القادة الأكفاء قد حدثَ فراغٌ كبيرٌ بالجيش، وأصبح الجيشُ بلا رأسٍ، ولمْ تَثِقْ حورحور بأحدٍ مِن البقية لتوليهم المناصب الكبيرة، ولم تَعُدْ تأمَنُ على نفسها داخل القصر الأبيض، فأسندتْ قيادةَ الحرس إلى كاهن، فقد ضلَّ عقلُها ولم تهتدي، وأرسلتْ إلى سنورع تطلُبُ مساعدتَهُ، فلمّا جاء رسولُ سنورع اعتبر ما

حدث هديةً أخرى مِن الآلهة، وتَشاوَرَ مع قادته، وأجمعوا على إرسال قائدٍ مُحَنَّكٍ إليها؛ ليقودَ جيشَها وليغرزوا أنيابَهم في ظَهْرِ الملك يوحب، واخْتِيرَ نارمر لهذه المَهَمَّةِ بِتَزْكِيَةِ سنورع، فاعترضَ نارمر ورفضَ التكليفَ، فلم يقبلْ سنورع اعتذارَهُ، وانفضَّ المجلسُ وهم مستمرُّون في الإجماع على اختياره.

فهامَ نارمر على وجهِهِ في سوق المدينة، كيف له أنْ يتخلَّى عن حلمِهِ ويبتعد عن السيوات ليقود جيشًا آخر حتى وإنْ كان لقتال عدوه! فهو يُفَضِّلُ لو أنْ يبقى ويقاتل عدوه بجيشٍ سيواتي خالصٍ دون خديعةٍ، رغم محاولات سنورع مرارا إخراجَ الفكرة مِن رأسه، فما مِن انتصارٍ دون عَوْنٍ ولا حرب دون خديعةٍ.

فنارمر يريد محوَ الهزيمة مِن ذاكرة السيواتين بسواعدهم لا بسواعد غيرهم، وبينما تتخطَّفه الأحلامُ وتعزله عن الواقع، جاءته حب سنار تمشي على استحياءٍ، ففرح برؤيتها وبادَلَها التحيَّةَ، اعتذرت له عن لهجتها في الحديث معه، فاعتذرَ لها أيضًا عن جِلْفِهِ معها، فحدّثْته بِوُدٍّ صافٍ، فبادَلَها الوُدَّ بإحسانٍ، فقالت:

- إنَّ عمِّي جادوس يدعوكَ ليتعرَّفَ عليك، فقبل نارمر الدعوة، ثم غادروا السوق.

خلع نارمر لباسَ الجدِّ مِن الحرب، ومضى مسلوبَ الفؤادِ، يهفو إلى ديارِ مَنْ سَلَبَ فؤادَهُ، إلى حقلِ حب سنار الذي تُغَرِّدُ فيه الطيورُ المزينةُ، وفيه الزهور ما زالت تتمايلُ مع النسمات المتجوِّلة، والرائحة تتسابق إلى كلِّ الأمكنة، استقبل جادوس عمَّ حب سنار نارمر بترحابٍ، وجلسا أمام البيت يستمتعا بجمال الطبيعة الخضراء، جادوس كهلًا لا يميزُ وجهه غير لحيةٍ سوداء، وهو ذو جبهةٍ عريضةٍ وأنفٍ متوسطٍ، ناعِمُ البال، تَآلَفَ مع نارمر كأنهما يعرفان بعضهما مِن زمنٍ قديمٍ، مُتَجَنِّبِين ثِقَل اللقاءِ الأولِ ومشقَة اختلاق الأحاديث، تصافحا كأصدقاء، وتحدثا كأنهم مِن العائلة نفسِها، ولم تَظهر الفتاتان طوال الجلسة، وقلب نارمر يهفو لخلف الجدران، وما مِن رجاءٍ يُرجى، وعمّها يعلم ما يختلج نارمر مِن عواطفَ صادقةٍ، ولا يعيبُ عليه عاطفتَهُ.

تناولا خبزًا ولبنًا وتينًا، فأكل نارمر بشهيّةِ العاطفة، فوجد الطعامَ أطيبَ وأشهى ما أكل، فهو من يد من يحب، فشَكَرَ وحَمَدَ عمَّها.

قال جادوس:

- أكنتَ تنوي الإقامةَ في نورس قبل الغزو؟

- لا! تخيَّلْتُ العالم مدينة سيو، والمدن قصر أبي، حتى استعملني الملك على حصن الغابات المظلمة، وهناك تحت وطأة العزلة اكتشفت نفسي فعرفت العالم.

- وما الذي تنوي فعله الآن بعد مجيئك إلى نورس؟

- مَنْ يدري؟ فللقدر تقلُّبات تُسعدنا كما له تقلُّبات تُبكينا، وإنني أريد أنْ أحرِّرَ أرضَنا، ثم أَنْشُرُ السلامَ.

- عَمَّرْتُ طويلًا في هذه الدنيا، ورأيتُ الكثيرَين، إنكَ صادقٌ في كلِّ ما تقول، وربّما تحقِّقه يومًا ما، وذلك على الرغم مِنْ أنّ نشرَ السلامِ في عالمٍ يَعُجُّ بالشرور والحسد هو شيءٌ غير ممكن.

- الشعوبُ لا تكرهُ بعضَها بعضًا، الشعوبُ بسيطةٌ، مسامحةٌ، تريد العيش بسلام، لكنّ الحكام هم الطامعون في مُلْكِ غيرهم، ومِن هنا تَنْشَبُ العداواتُ.

- وهل بساطة الشعوب مُبَرِّرٌ لخنوعها؟! مَنْ يصمتُ عن حقِّه فلا حقّ له.

- إنّ الناسَ مغلوبةٌ على أمرِها ومضطَّهدةٌ، ماذا سيفعلون؟

- يثورون!

سَكَتَ نارمر ولم يعقِّبْ، فكلما مَرَّ على شخصٍ وَجَدَ ورَأَى مستقبلَهُ الذي يُحَمِّلُهُ ما لا طاقة له به، فيزيدُ تَوَجُّسُهُ مِن الغد، الغد الذي يتوقَّعُهُ الناسُ مُشْرِقًا، ويأخذون مِن المحنة دلائلَ على إشراقِهِ، وذلك مِن قِلَّةِ حيلتِهِم، يظنُّون أنه سيكون غَدًا أفضل، وتساءل... هل التصدِّي للنوباتين هو شيءٌ عظيمٌ على شاكِلَةِ مَن يُحَمِّلُونَهُ عِبْئَهُ؟! وهل الرغبةُ في الانتصار عليهم مِن ضِمْن هذه الأشياء؟!

فَكَّرَ في معنى الحرب، في الأرض المسروقة، في جَدْوَى ما يقومُ به لبدء حرب كبرى، فرآهُ بلا معنى، لكنه مضطرٌّ للمُضِيِّ قُدُمًا لتحقيق السلام؛ ليثْبتَ لهم ولنفسِهِ قدرتَهُ على تحقيقِ الأشياء التي يَسْتَصْعَبُونها، وليحرِّرَ الناسَ مِن خرافاتٍ متراكمةٍ في عقول كثير منهم.

قال جادوس:

- هل يُخالِفُ المرءُ مبادِئَهُ لخدمة أهدافه؟!

- لا، هذه حجَّة الضعفاء! إنّ المبادئ الخبيثةِ تُخَيِّرُكَ الخبث، والأهداف النبيلة تتأتَّى مِن المبادئ النبيلة، لذلك لا يُمْكِنُ أنْ تخالفَ الأهدافُ المبادئَ.

- إذا أَخَذْتُ بما تقول، سوف أَفْعَلُ أشياءً لا أرتضيها.

- كلَّا، ربما تظنّ أنك على خطأ، حينئذٍ انظُرْ أين أنت مِن مبادئك، وسترى الحقيقةَ.

صار عقلُ نارمر مُتَّخَمًا! واستثْقَلَ كَتِفَيْهِ اللذيْن قد حُمِّلَا بالأعباء!

نظر جادوس في عيني نارمر، وقال:

- إنني أريد أنْ أنكحك ابنتي حب سنار.

- أتعني ما تقول حقًّا؟!

- نعم، ومَن أصلح لها منك؟! إنَّ حب سنار عنيدةٌ عناد البريّة، لا يُرَوِّضُها إلّا فارسٌ مثلك.

في المساء، وسط ساحة المدينة، كانت تدور حب سنار دون فرسٍ أو سيفٍ، كأنّ المدينةَ بين ليلةٍ وضُحاها قد أصبحتْ آمنةً، تنتظرُ نارمر في لقاءٍ غير مُقَرَّرٍ بعدما بحثَتْ عنه في مكانِ لقائِهِم الأول وفي طرقات المدينة، فتخلَّفَ نارمر عن المجيء، فقد حبسهُ الفكرُ الشريدُ، واحتار بين البقاء أو اللحاق بحورحور، فاغتمَّتْ حب سنار وغادَرَتْ إلى بيتِها مخذولةً.

وفي الفجر، أُجْبِرَ نارمر على الرحيل مع عشرةٍ مِن الفرسان؛ لمساندة حورحور، كانت خيولُهُم هادئةً لا يُقْلِقُها المجهولُ المُقْبِلُونَ عليه، والشمس كانت تَشُقُّ الأُفُقَ بنورِها دون كلل، فهي لا يُتْعِبُها ضَجيجُ الفِكْرِ.

وجد نارمر نفسَهُ يواجِهُ ضبابَ عدوٍّ عليه أنْ يَعْبُرَ بَوَّابَتَهُ بسلامٍ؛ لِيَضَعَ يَدَهُ في يَدِ حورحور ويُعْلِنَا التحالفَ، وعليه أنْ يقودَ تحالفَهم بجنودٍ قد قاتلوا ضِدَّهُ مِن قَبل، وبينه وبينهم ثأرٌ لا تُطْفِئُهُ مراسمُ الترحابِ ولا الكلام المُنَمَّق، فهو يرحلُ إلى قدرٍ لا يُحَبِّذُهُ، وكانت كلماتُ جادوس يَتَرَدَّدُ صداها في عقله، لمّا قال عمُّها:

- ... والأهداف النبيلة تتأتّى مِن المبادئ النبيلة، لذلك لا يُمْكِنُ أنْ تخالفَ الأهدافُ المبادئَ.

وصلوا الحدّ الفاصل بين أراضيهم الحرَّةِ والمُحْتَلَّةِ، فتخفّوا في لباسهم وتجنَّبوا الطرقَ المأهولةَ، واصلوا المسيرَ ثلاثة أيام في دروبٍ صخريّةٍ، حتى بلغوا نهر الضباب، وكانت الخيلُ على وشك الانهيار، فتخلّوا عنها، وبحثوا عن قوارب ليَعْبروا بها، فكان مِن الصعب وجودُ قاربٍ بعدما طَوَّقَ النوباتين النهرَ ومنعوا الاقتراب منه، فسرقوا قاربيْن قد وجدوهما داخل ساحةِ بيتٍ خاوٍ على حافَّةِ الضباب، وأنزلوا القاربيْن النهرَ، وربطوهما ببعضهما بالحبال، ثم أبْحروا وقلوبهم متكاتفة.

اخْتَفَت الجيف والجثث البشرية التي كانت تطفو على صفحة المياه، وعلى الضفة الأخرى وجدوا مزيدًا مِن الضباب المُتشابِكِ، كان ذلك ضبابًا لم يَعْتَدْهُ نارمر ورفاقُهُ، فكان عليهم العبورُ مرَّةً ثانيةً، ثم وجدوا خلفه أرضًا

قاحلةً وسماءً غائمةً وسرابًا يتلاعَبُ بهم، فازدادَ احتمالُ ضياعِهِم في بلادٍ غريبةٍ لا يعرفونها، أهلَها ناقمون عليهم، فاتّبَعوا خارطةً مطموسةً كانت معهم، إلى أن اهتدوا إلى اتجاه الشمال.

وها هو وَجْهُ حب سنار قد تَشَكَّلَ في السماء مِن الغيم، العيون حزينة، والوجه شاحب، فلمعَ ذكرُها في ذاكرةِ نارمر لأوّل مرَّةٍ منذ أُسْرِيَ بهم، فاندهش... كيف غفل عنها كل هذا الوقت وطيفها يرتحل معه؟!

فتخيَّلها تتجوّل الآن في طرقاتِ نورس وحيدةً تبحثُ عن وجهٍ غائبٍ منذ أيامٍ، فحاوَلَ طردَها مِن رأسه بعدما تمكَّنَتْ منه، خوفًا مِن أنْ تَزِلَّ قدمُهُ فوق أرضِ أعدائِهِ، فَعَلَيْهِ إنهاء مَهَمَّتِهِ ومقابلة سنورع منتصف الجسر الذهبي، رافعين رايات النصر، وتساءَلَ... هل هدف سنورع النبيل هو الانتصارُ وردُّ شرفه؟ أَمْ له مآرب أخرى؟

ودخلوا قريةً مُحَاطَةً بالنخيلُ والزروع والأغنامُ، فاطمَأَنُّوا أنهم يسيرون في الوِجْهَةِ الصحيحةِ، فسأل يوحب الناسَ عن قصر الملكة حورحور، فدلُّوهُ بِرِيبَةٍ، وأدْخَلَتْهُم حورحور القصر سِرًّا، وسألتْ عن سيِّدِهم، فأشاروا إلى نارمر، فتفحَّصَتْ هَيْئَتَهُ ولم تُعَقِّبْ، كأنها عرفته! ثم أجلستْهم ليرتاحوا مِن عناء السفر، وأمرتْ لهم بالطعام، وتركَتْهم دون تفاصيلَ سوف يغفلون عنها؛ فغُبار السفر يَحْجِبُ عقولَهم.

فلما اختلى الفرسانُ العشرة بأنفسهم، تذكَّروا أيامَ سفرِهِم، وقال لهم نارمر:

- الملكة حورحور امرأة مريبة.

فأنْكَرَ الجميعُ رأيَهُ، ووصفوها بالمرأة الجميلة الودود، وفرق بينهما الجدالُ، فقال نارمر:

- توقّفوا! فما مِن أجلِ ذِكْرِ محاسنِها أَتَيْنَا على عجلٍ!

اسْتَدْعَتْهُم حورحور صباح اليوم التالي، والتفُّوا حولَ مائدةٍ مُضلعةٍ عليها أشهى الأطعمة، والخمر والتين والعنب، أرادَتْ أنْ تتأكَّدَ مِن سيطرتها على زمامِ الأمور، وأطْلَعَتْهُم باستفاضةٍ على مَهَمَّتِهِم التي أَرْسَلَهُم سنورع مِن أجْلِها، وتطلَّعتْ لنارمر؛ تحاول معرفة ملامِحِهِ المألوفةِ، فكادت أن تعرفه لكنها ارتدَّتْ خاسئةً، تستاء منه؛ لأنه لا يُعيرها انتباهًا ولا يُنْزِلُها مَنْزِلَتَها التي ترتضيها لنفسها، فرأته مُتَعَجْرِفًا ناكرًا للجميل! ولا يَستحقُّ كلمةَ مدحٍ واحدةٍ ممّا وصفه بها سنورع، فمقَّتَتْه ولعنتْهُ في نفسِها، وشعر نارمر بنظراتها الغريبة له، فتغافَلَ عنها؛ حتى لا يزيدُ مخاوِفَها، وانشغل عنها.

وبعد الطعام، اصْطَحَبَتْهم حورحور في جولةٍ داخل معسكر الجيش، فاستقبَلَهم القادةُ بِشَكٍّ مُريبٍ، ورآهم الجنودُ مخلصين هابطين مِن السماء لنجدتهم مِن خُبْثِ ساداتهم، ومِن العجيب أنَّ أحدًا مِن القادة الكبار لم يعترضْ على وجودِهِم كما تَوَقَّعَتْ حورحور، واسْتَعَدَّتْ لدحضِهِم، ولم

يجدوا حرجًا في سيادة نارمر عليهم، فلمّا لم يُنْكِرْ عليها أحدٌ، كادت تُنْكِرُ عليهم سكوتُهُم، خنعوا لرغباتها قانعين بمذلّتهم، أفكارهم الضالة قد جعلتْهم يرتضون ما يحدث دون أنْ يَروا فيه شائبةً، بعد تحوُّلِهم مِن فرسان يدافعون عن وطنهم إلى مرتزقةٍ يقاتلون تحت راية حورحور، وسوف يقاتلون لاحِقًا تحت قيادة مَنْ كان عدوّهم بالأمس، وقاتلوه مِن قَبل.

آثَرَتْ حورحور نارمر بالحديث، وقالت:

- وجهك ليس غريبًا عليَّ، كأني أعرفك مِن قبل!

- لا أظنُّ! فنحن لم نلتقِ مِن قبل.

- أُجزم بأنني رأيتك، لكنني لا أتذكّر كيف!

ظنّ نارمر أنّ حورحور تغازله وتتقرَّب منه؛ لتحقيق مآربها، وما كان له أن يتذكرها بعد كل هذه السنين، فاشْمَأَزَّ منها، وتَجَنَّبَها طيلة الجَوْلَةِ، إلى أنْ اجتمعوا مرَّةً أخرى في القصر، فاستحثَّها نارمر على بِدْءِ الحرب، فوافق رأيه هواها، وأَمَّرَتْهُ رسميًّا على جيش الإقليم في معركَتِها ضِدّ الملكِ يوحب.

أُجبر كلُّ ذَكَرٍ قادرٍ على حمل السلاح على الالتحاق بالجيش، وأَطْلَقَتْ حورحور على حربِها اسم (حرب الاتحاد)، وتجاهَلَتْ أنها سببُ الفرقةِ والانقسامِ، وتَنَاسَتْ ذلك، ورَوَّجَتْ لرغبتها بتوحيد شطري الأرض والناس

تحت رايةٍ واحدةٍ، رايتها، تَكُون صورتُها خفّاقةً، وحقًّا ما ادَّعَتْه أمام شعبها، لكنها أخفتْ بُغْضَها الظاهرَ للملك شنوات وللملك يوحب مِن بعده، وحب الانتقام منهم.

واصْطَفَّ ما يفوق العشرة آلاف جنديّ، تجمعهم غايات مُتعدِّدة ورغبات مختلفة، حَلَّقَ نارمر حولهم وتأكّد بنفسه مِن جاهزية الجيش، فلمّا اطْمَأَنَّ، أشار على حورحور بسرعةِ التحرُّك، فلمْ تَأْبَهْ به أيامًا، وتركَتْهُ دون ردٍّ؛ لِتُؤَدِّبَهُ! وتعلمه كيف يتعامل معها! وكان الجيشُ ينتظر، فاستاءَ منها وهَدَّدَ بالعودة، فخافَتْ حورحور مِن تنفيذ نارمر لتهديده، فقرّرتْ، وأعطَتْهُ حريةَ اختيار التوقيت المناسب للتحرُّك.

وتقرّب نارمر مِن القادة، فكانوا عيونَهُ العارفةَ بِدُرُوبِ بلادِهِم، وبطباعِ ناسِها، ولم يبخلوا عليه، وأرشدوه كأدلّاء مخلصين، وحدَّثوه عن جنود النوبات وعن طريقةِ قتالِهِم، وحدَّثوه عن الملك يوحب وعن كبير القادة حاتبتي وعن شجاعتهما وأساليبهما في القتال.

والملك يوحب مشغولٌ بزواجه، وحاتبتي قد تَرَكَ السيفَ، وذهب ليحضر العروس، وبعد أيامٍ، دخل عليه بصحبة رجلٍ وفتاةٍ، تلك الفتاة كانت ذاتَ خَدَّيْن بِلَوْنِ الحُمْرَةِ الخفيفةِ مِن أثر الطموح والأمل، بها الكثير مِن ملامح وطباع أمه نوبة التي يجهلها، ولها نفحةٌ مِن جمالٍ زائد، طلّتها مميزة، قد

جذبتْ قلبَ الملك، تعلوها النظرة نفسها التي كانت تحدِّقها نوبة عندما دخلت القصر أوّل مرّةٍ، لكنّ هذه الفتاةَ ليست شاحبةً ومهمومةً، وما كان أبوها خائفًا، فقد دخلوا القصرَ آمنين مَكْر الملك.

فقال حاتبتي:

- هذا خالك، وهذه نوبة الصغيرة ابنة خالك.

سواء أنقذهم الملكُ مِن بُؤْسِ الشقاءِ والاغترابِ قاضيًا عليهم وعلى أسرتهم بالحياة الكريمة والترف، أمْ لا، فلن يُشَكِّلَ فَرْقًا؛ فنوبة الصغيرة قد أُعجبتْ بيوحب، ويوحب يتأمَّلُ جمالَها الهزيلَ بسبب الحزن، وتفاصيلَ جسدَها الذي أَتْعَبَهُ الفَقْرُ.

خَفَضَتْ نوبة وأبوها رأسهما في حضرةِ العرش، ليس رهبةً وتقديسًا كما يفعل كلُّ العامّة مِن النوباتين، بل احترامًا لِمَلِكٍ مِن المفترض أنه أصبح حاميهم، بعدما تسبَّبَ أبوه في طردِهِما وتَشَتُّتِهما في البلاد.

أحسنَ الملكُ يوحب استقبالَهم وأجلسهم بجواره، وخاطبهم خطابَ وُدٍّ، فأصبحتْ الصِّلَةُ صِلَةَ الرَّحِمِ، وتُوِّجَ العروسان.

كانت عينُ نوبة مليئةً بالثبات والهدوء، فهي قويةٌ، ولديها عِزَّةٌ، وذلك عكس ما يُظْهِرُهُ وضعُها الاجتماعي، فهي في حكم العُرْفِ تنتمي لأدنَى مستوًى،

واليوم تَدْخُلُ القصرُ بصحبةِ أبيها لتكون زوجةَ الملكِ الأولى والوحيدة، والظروف مواتية لِتَمْلكَ لُبَّ الملكِ وتستأثر به، خاطَبَت الملك بجُرأةٍ، كأنهما قد نَشَآ معًا، فاستبشَرَ حاتبتي بذكاءِ نوبة، واطْمَأَنَّ أخيرًا على يوحب، وعلم أنها تستطيع احتواءَ الطفلِ المُدَلَّلِ داخله، وقراءةَ أفكارِهِ، واستيعابِهِ عند الغضبِ.

عزفتْ ألحانًا شَجِيَّةً تُريح الأرواحَ المُعذَّبةَ، ورَقَصَ الجواري حولهم بالأبيض، مثل قطعٍ مِن سحابٍ مسيرٍ، وتبادلَ الملكُ والملكةُ المحتملةُ الكثيرَ مِن النظراتِ الخاطفةِ والهائمةِ، وهمساتُ العيونِ كانتْ تقولُ ما تعجزُ عنه الألسنةُ، وبينهما انسجامٌ يَعِدُهما بالسلام، وأبو نوبة يهيمُ في ملكوتٍ مِن الجنة مِن شدَّةِ سعادتِهِ بنصرِهِ بعد سنين عجاف مِن التِّيهِ، وفي غفلةٍ منهم انقضى أكثرُ الليلِ، فتفرَّقَ الجَمْعُ على موعدٍ بلقاءٍ قريبٍ.

فلما اختلي الملكُ يوحب بحاتبتي أَثْنَى على اختيارِهِ لنوبة الصغيرة، وقاله له:

- أين أخْفَيْتَهُم يا كبير القادة كلّ هذه السنين؟

- بعد موت أمِّ نوبة، خافَ جدُّك وخالُك مِن عقابِ الملكِ شنوات، فهربت الأسرةُ، ولم يستدلْ على مكانهم.

- وكيف عَثَرْتَ عليهم؟ كيف تَعَرَّفْتَ عليهم؟

- ولِمَ لا أعرفهم؟! أنا أنتمي لهؤلاء القوم!

- إذًا، قد تَسَتَّرْتَ عليه يا حاتبتي، هذه خيانةٌ للملك.

- تناساهم الملك شنوات حينها، وكفَّ يديه عنهم؛ ربما لأنه أحبَّ أمك أو إكراما لأخوك الضائع. لكنْ أخبِرْنِي... هل أعجبتْكَ الفتاةُ حقًّا؟

- نعم يا حاتبتي، فهي جميلةٌ، وعيناها مُتَّقِدَةٌ بالذكاء، ومليئةٌ بالصبر.

- تُذَكِّرُني بأمّك، فهي تشبهها كثيرًا، لها العيون الواسعة نفسها، والنظرات والجبهة العريضة والأنف، عندما أنجبت الفتاة بعد موت أمّك بأعوام، أسماها أبوها نوبة؛ تَيَمُّنًا بأختِهِ.

- نعم، وقد أحسن أبوها التصرُّفَ، إذ جاء بها إليَّ مِن التيه، فَلْتُجَهَّزْ للعُرْسِ قريبًا.

أرادَ حاتبتي أنْ يكونَ الاحتفالُ مهيبًا؛ لتَعُمَّ الفرحةُ أرجاءَ النوبات، فهذا ليس زواجًا عاديًّا، إنه زواجُ الملكِ يوحب، مِن نوبة، فذلك ارتباطٌ بين المُلْكِ والشعب مِن الجذور حتى النخاع، هو انتصار نوبة الأم التي ماتت وهي تُنْقِذُ طفلَيْها مِن الموت.

فدارت الأيام وانقلبت الأقدار، وأصبحت نوبة المقبورة في العراء سيدةَ القصرِ والملكةَ الأمَّ، وصارتْ حورحور هي المُطارَدَةَ، ويكرهها الجميع.

أُقيمَ الاحتفالُ بالعرسِ في الليلةِ التي تلت اجتماع نارمر بقادته لتحديد موعدٍ للتحرُّكِ؛ للانقضاضِ على ظَهْرِ النوبات، وحضرَ الحفلَ جمعٌ غفيرٌ مِن أرجاءِ المَمْلَكَةِ، واكتظَّتْ شوارعُ قصر بالمحتفلين، ووُزِّعَت الخمر مجّانًا، فأصبحت الخمرُ أثناء الاحتفال بلا ثَمَنٍ، وسُكِبَتْ على أرضية الشوارع والناس سكارى، سعيدةٌ بزواجِ مَلِكِهم الشابّ مِن فتاةٍ منهم، وتذكَّروا الأيامَ الفائتةَ فيما بينهم، بما فيها مِن مرارةٍ عيش وجورٍ، فكانَ هذا الزواجُ بمثابةِ انتصارِ آخر لإرادةِ الشعبِ على إرادةِ الملكِ شنوات، وتغلُّبهم عليه، وأكبر تكريمٍ لهم.

وقرب الفجر، هدأت الأصواتُ وسكنت الأرواح.

وعند الضحى، جاءهم خبرُ تحرُّكِ جيشِ حورحور بقيادة قائدٍ مجهولٍ، واستيقظَ الناسُ على نذير الحرب، فَلَمْلَمَ كبيرُ القادةِ حاتبتي شتاتَ أمرِهِ على عجل؛ لمُلاقاةِ خصمِهِ، ولم يضع الملكُ يوحب تلكَ التحرُّكاتِ موضعَ الجدِّ، واعتقدَ أنّ حورحور جلبتْ فارسًا مغمورًا قد أعجبتْ بعضلاته، لِتَضعهُ على رأسِ جيشِها، وظنّ أنّ حاتبتي قادرٌ على القضاءِ على تمرُّد الإقليم في أيامٍ معدودةٍ.

ومِنْ أين له أنْ يطلع على الغيب! فيعلمَ بأنه ذاك الفارس الشجاع وقائد مقدِّمةِ الجيش السيواتي في معركة الجسر، ذاك الشاب الذي أُعْجِبَ بشجاعتِهِ وجسارتِهِ؟!

واستعد يوحب لاستكمالِ فتوحاتِ أبيه بعد قضاءِ عدّةِ أيامٍ مع زوجتِهِ نوبة.

تحرَّكَ حاتبتي على رأس ثلاثة آلاف جنديٍّ معظمهم مِن المُشاةِ، ولم يداخله رعبٌ؛ فقلبهُ لم يعرف الخوفَ مِن ليلةِ اشتباكِهِ مع فرقةِ تاضوس التي حاولتْ عند نهر الضباب اغتيالَ الملكِ يوحب، فَسَارَ بالجيش غيرَ ساخطٍ أو نادمٍ، المسافة بين معبد النوبات والقصر الأبيض كبيرةً، تتخلَّلُها سهولٌ ومروجٌ، وأحواضٌ جافَّةٌ مُتَشَقِّقَةٌ تنتظر الفيضَ لتُنْبِتَ الأرضَ الزرعَ بأمرِ ربِّها، وتكون خضراءَ يانعةً في الشتاء، يُرِيدُ حاتبتي مباغَتَتْهُم قَبْلَ اجتيازِهِم حدود النوبات، فإذا خَسِرَ المعركةَ، لا يَكون قد خَسِرَ الناسَ والأرضَ!

حشدتْ حورحور كلَّ إمكانياتِها؛ للتخلُّصِ مِن الملك يوحب الذي يُؤَرِّقُ مَضْجَعَها، وقَهَرَها لِسِنِين بملامِحِهِ النوباتية الودودةِ التي تذكرها بأمه، وبِبَسْمَتِهِ المُسالِمةِ، وجَمَعَتْ مَزيدًا مِن الجنودِ، فلَمْ يَبْقَ رجلٌ قادِرٌ على حَمْلِ السلاحِ مع الخوالف، فازداد عددُ الجيش وبلغ أحدَ عشرَ ألفًا، وهذا

عَدَدٌ ضخمٌ يفوقُ إمكانيّاتِ الإقليمِ بكثيرٍ، ووَضَعَتْهُ تحت تصرف نارمر الذي لم يَتَوانَ.

وتحرَّكَ نارمر بالجيش لملاقاةِ خصمِهِ، ومنذ مغادرة الجيش وحورحور تَطوفُ حول نفسِها مِن شدّةِ القلقِ، وَدَّتْ لو صحبتْهُم وشهدت انتصاراته على الملك يوحب فتقتله بيدها بعدما تذيقه العذاب، وقد أَوْصَتْ نارمر أنْ يأتيها به وبحاتبتي أحياء؛ لِيُشْفَى غليلُها منهما، وتَرَصَّدَتْ أخبارَهم، كأنّ الجيشَ قد غادَرَ مِن شهور.

والكاهن كاعبر يسترِقُ السمعَ، ولا يستطيعُ الاعتراضَ؛ فهو يُدْرِكُ أنّ حورحور قد عَيَّنَتْهُ مستشارا؛ لِتُكْمِلَ به النقصَ، لا ليُباشِر مهامهُ حقيقة، وكمستشارٍ ملكيٍّ لها لا يحقُّ له إلّا الصمت، فَآلَمَهُ وهو حبيسٌ ما يَحْدُثُ للملكِ يوحب الذي اعتبر نفسَهُ وَصِيًّا عليه منذ ليلةِ مقتلِ أمِّهِ نوبة، دعتهُ حورحور إلى مجلسها، لتسخر منه مُتجاهلةً حكمة كاعبر وخبراته المتراكمة أو أنها جاهلة به، وقالت له:

- لعلك تعلم بأنّ جيشي الآن يقاتل يوحب ويضمّ ملكه إلى ملكي.

فأجابها الكاهن غير عابئ بالعواقب:

- تقاتلينه، فنعم! أمّا التغلب عليه، فلا.

فتميزتْ حورحور مِن الغيظ، لكنها بَدَتْ مِن الخارج مثل جبلِ ثلجٍ، وقالت:

- لابد أنّ السجنَ قد أَفسدَ عقلَك وجعلك تهذي! لقد سيَّرْتُ له خمسةَ عشر ألفًا من الجنود الذين لا طاقة له بهم.

فأجابها:

- سَيِّرِي له ما شِئْتِ! فلا ينتصرُ جيشٌ قائده ليس مِن أهله.

فنفثتْ حورحور عن غيظِها، وتحوَّلَ جبلُ الثلجِ إلى جبلٍ مِن نارٍ كادَتْ تَحْرِقُ كاعبر، وأَبْعَدَتْهُ عن مجلسِها.

فعبثت الأفكار بكاعبر وهو طريحُ سجنٍ لا تُرَى له جدران، أَيُهْزَم الجمعُ وتنتصرُ إرادةُ حورحور فتضمحلّ مملكة النوبات الثرية؟! أَيَنْدَثِر حكمُ أسرةِ الملكِ شنوات الذي دامَ لعقودٍ طويلةٍ كما تنبَّأَ كبيرُ العرّافين متاح؟

وَدَّ كاعبر لو يحطِّم القيود التي تقيِّدُهُ ويَفِرّ إلى يوحب؛ فيُعِينُهُ على حورحور، ويمنعه مِن السقوط وهو غارقٌ في العسل، ويفتدي عرشَ المملكةِ مِن التحطُّم تحت رغبات حورحور الآثمة، هيهات هيهات أنْ يُفِيدَهُ الذهاب أو أنْ يمنعَ ما سوف يقع.

جمعَ سنورع الجنودَ التي حشدها بشقِّ الأنفس استعدادا لتحرك هو الآخر، وأَلْهَبَ حماستَهم، فكانَ صوتُهُ جهوريًّا يهزُّ القلوبَ في صدورِها، فشحنَ

الجنودَ لأشدِّ قتالٍ، فهو يعلمُ أنّ دورَ البطولة في المعارك العظيمة للجنديّ الشجاع، وعليه أنْ يُدْرِكَ معنى الحربِ وهدفَها، وأعلنَ النفيرَ، وتحرَّكَ دون تردُّدٍ، بجيشٍ متواضع لا يضاهي جيشَ الإقليمِ الأخضر المُسالِمَ المتجلِّي فيه كره حورحور للملك يوحب وأمه.

الظروفُ مواتيةٌ الآن لسنورع لاستردادِ أراضيهم التي فقدوها يوم الجسر الذهبي، ولإنهاء وجود النوباتين عليها، ولإعادة بناء شرفهم الذي أطاحَ به النوباتين.

سوف يتحرَّكُ بسرعةِ البرقِ، وسيهاجِمُهُم بقوّةٍ ويخطفُ النصرَ مِن بين أيديهم، فكانَ غيرَ طامحٍ هذه المرّة في مجدٍ زائدٍ، فهو زاهدٌ في كلِّ أَمِلٍ يُلْهِيهِ عن تحقيقِ هدفِهِ المنشود، قانعًا بتحريرِ أرضِ مَمْلَكَتِهِ، وسَيَدَعُ البقيةَ لنارمر وحورحور لتدمير النوبات مِن الداخل، ويقفُ هو مُتفرِّجًا والنوبات تغدو خرابًا، كما تَفَرَّجَ الملكُ شنوات مِن قبل وجيش السيوات يحترق بالملك يونسي.

وأرسلَ إلى نارمر يُعْلِمُهُ بجميع تحرُّكاته، ويَحثّهُ على استكمال ما بَدَأَهُ، كي يَضَعَ مملكةَ النوبات بين فَكَيّ الرحي، ويكتملَ النصرُ.

هاجَمَ سنورع النوباتين بكاملِ جيشِهِ، وتجنَّبَ الحصونَ التي بناها النوباتين على ضفَّتِهِ، واستردَّ سيطرتَهُ على القرى البعيدة التي يَصْعُبُ على النوباتين

الدفاعُ عنها، وكلما نجحَ وطردَ النوباتين مِن مكان تركه في عهدة أهله، وانتقل إلى غيره دون أنْ يتركَ جنديًّا واحدًا وراءَهُ، وقد انضمَّ كثيرٌ مِن أهل هذه القرى لجيشهم؛ للمساهمة في تحريرِ أرضِهم، وآتَتْ خطة سنورع أُكُلها، ونجح في تحرير كثيرٍ مِن المناطق والقرى فكانت عونًا له في حربِهم، وأَخْفَقَت القوّاتُ النوباتية في وَقْفِ زَحْفِ جحافل السيواتين، وانسحبوا داخل حصونِهم تحت وطأةِ الهجمات بأمْرٍ مِن الملكِ يوحب الذي عجزَ عن إرسالِ المَدَدِ إليهم، فاجتمعت القوات النوباتية في ثلاثةِ حصونٍ منيعةٍ ومتفرِّقةٍ في الشمال والجنوب، واستأثَرَ حصنُ شنوات بنصفِ عددِ القوّاتِ المُتواجدةِ هناك، على الضفة، وأدارَ منه قائدُ القوات المعارك الدائرةَ في انتظارِ مَدَدٍ لن يأتي، وقَوَّى تحصيناتِ الحصنِ، وبنى مزيدًا مِن الحواجز والفخاخ.

كانَ الملك يوحب جاهزًا ليقوم بحملةٍ عسكريةٍ أخرى على مملكة السيوات، لكنّ ثورانَ حورحور ومقاومةَ سنورع لوجودِهِ قد أَرْبَكَا خِطَطَهُ، فعجزَ عن تحديد أولويّاتِهِ وتحديدِ ما يجبُ الحفاظ عليه أولًا، مع الإجماع بوجوب دَفْعِ أيِّ خطرٍ عن أرضِ مملكةِ النوبات وإبعاد شرِّ الحرب عنها، واحتارَ في أمره، وليس حوله مَنْ يثق في إخلاصهم وحبّهم له، ودخلتْ عليه زوجتُهُ نوبة وهو مهمومٌ آسفٌ، فرمقها بنظرةٍ باهتةٍ كأنه يستجديها السكوت، ففهمتْ قصدَهُ،

وجلستْ بجواره هادئةً دون انتهاكٍ لحريته، وأعطتْه مساحةً كافيةً يضع بها أعباءه دون مساس، وأَبَتْ إلّا أنْ تدعمه في حربه الداخلية الضروس، فقالت:

- عَلَّكَ تُحمّل نفسَك عبءَ ما يحدث! الأُسود لا تخافُ النسور الجارحة.

- تكاثروا عليَّ يا نوبة، وأنا عالق هنا مع جيشي لا أعرف أيأتيني عدوّي من أمامي أمْ من خلفي، ولا أدري هل أسير لنصرة حاتبتي أم أرسل الجيش خلف النهر معرِّضًا المملكة للخطر حورحور.

- إنّ هذا ما يريده أعداؤك أنْ تظنه، فلن تتخطى حورحور كبير القادة حاتبتي، ولا يستطيع السيواتين عبور النهر.

- لكنّ حاتبتي هائمٌ في الصحراء، يطارد جيشًا من الأشباح، كلما وجده تلاشى من أمامه، والسيواتين يحقّقون كل يوم انتصارًا تلو الآخر.

التصقتْ نوبة به واحتضنتْه دون كلمة، فأنسا ببعضهما البعض وسكنت أرواحهما، وطال الهدوء بينهما، ثم قالت نوبة تطيّب خاطره:

- لا تخفْ فقدان الأرض الجديدة، فما كان الملك شنوات نفسه يستطيع الحفاظ عليها.

فعدل جلسته ومال عليها، فنظرتْ نوبة في عين يوحب، وقالت:

- يجب أنْ تواري ضعفك، وتريهم قوتك الحقيقية.

- في رأيك، هل بلغت عظمة الملك شنوات؟

- أنت ابنه الوحيد! ولست بأقل منه قوة وعظمة، لكنك أعدل منه.

- كيف؟ وأنا لا أقوى على الحفاظ على إرثٍ قد تركه لي؟!

- قلت لك لا تخف! ما تفقده اليوم، استرده في الغد، لكن ابق قويا، الآن ضَعْ كل تركيزك على حورحور، فالنصر يأتي من الداخل، كذلك الخسران.

أَنْهَكَ نارمر جيشَ حاتبتي، وجعله يلهث وراءه وسط الصحراء المقفرة، بعدما أخفى عنه ثلثي الجيش، ابتلع حاتبتي الطعم وهو قائد محنّك، وطارد ثلث الجيش الذي أمامه ظنًّا منه أنه كل جيش حورحور ويفر من لقائه، ونارمر صادق في خوفه من لقاء حاتبتي، فهو يعلم مقدرته الحربية وخبراته الكبيرة، فقد اختبره من قبل، لكن نارمر أقسم يوم معركة الجسر الذهبي ألّا يمكر به ثانيًا، وبالرغم من تفوّقه على جيش النوبات الصغير، فقد خدعه؛ ليسهل التغلب عليه، وبعد أيامٍ استطاع استدراج كبير القادة إلى منطقة أرضها مستوية وملساء، يحيطها من الجانب الأيمن سلسلة جبال صغيرة يعسكر خلفها بقية الجيش، وعسكر الطرفان بالمكان، فأسفر الصبح عن كارثة، إذْ وجد حاتبتي نفسه محاصرًا بأحد عشر ألف جنديًّا، فأدرك قبح اندفاعه الذي قاده إلى مصارع السوء، احتفظ بهدوئه وجمع قادة الفرق والفرسان ليتدارك الموقف، فلما أرسل إليهم نارمر يخيّرهم، إمّا

التسليم ولهم الأمان أو القتال، فأجمعوا على القتال، فاحتدم الموقف ورفرفت رايات الموت خفاقةً تنادي القبور، وأسنّة السيوف مرفوعةً عاليًا تلمع تحت أشعة الشمس الحارقة.

أمهلهم نارمر وقتًا قليلًا وهاجمهم، تحرّك نحوهم على شكل دائرة تضيق منكمشة على مركزها، فلما التقى الجمعان واشتد القتال، دارت الدائرة على النوبات، وتأزّم حاتبتي بعدما أدرك أنه هالك لا محالة مع الجيش، وبايع نفسه على الموت، وكذلك بايع الجنود أنفسهم على الموت، فحمي الوطيس وتساقط النوباتين تحت أرجل الخيل صرعى، وبعد ساعاتٍ من حمى القتال بقي القليل حول قائدهم حاتبتي يرفضون الاستسلام، ويقاتلون ببسالةٍ وتصميمٍ وعزيمةٍ لا تقهر، فلما رأى نارمر ذلك منهم، عَزَّ عليه قتلهم، وأراد ادخارهم، فكفَّ أيديه عنهم، والقلة القليلة الباقية من الجيش النوباتي وعددهم أقل من المئة قد رفضتْ ترك سيوفهم والاستسلام، بالرغم من أنّ حاتبتي أشار إليهم بالاستسلام لحفظ أرواحهم، هدأت المعركة قليلًا، شحذوا هممهم خلال السكون واستكملوا المعركة، فأصدر نارمر أوامر صارمة بعدم قتل كبير قادة النوبات مهما حدث، فقتل الجميع إلّا بضع رجال كانوا منهكين ملتفّين حول أنفسهم كأغصان شجرة.

توقف القتال ثانيًة وسيوفهم مرفوعة في وجه الشمس الحارقة، فعجزت أجسامهم عن حملها وخارت، فأسرهم نارمر وحبسهم في خيمة كبيرة.

هناك عدد من رجالٍ قد تعاهدوا على الموت سويًّا، فماتوا قبل إزهاق أرواحهم، كان وقع المعركة شديدًا عليهم، وذُلّ الهزيمة أشد منها ويقهرهم، وحاتبتي يتجرّع غصصًا لا تُحصى من ألم وحسرة وغلبة الأسر، ويُخشى على النوبات من هذا القائد الذي انتقاه أعداؤهم لهم، وعيّنتْه حورحور على جيشها، ويُخشى على الملك يوحب من نفس المصير، لكن نفسه قد ارتاحت قليلًا لمّا تذكّر آلاف الجنود المرابطين على أطراف مدينة قُصر، وتداخلتْ مشاعر الفرحة بوجودها مع مشاعر الحزن لعدم نصرتها له، لكنه عاد وتذكّر شجاعة الملك يوحب، وأنه لن يقف متفرّجًا أمام تقدُّم حورحور لتنشر في الأرض الفساد، وسوف يفعل أكثر مما في وسعه ليحرّره من عبودية الأسر.

انتشر خبر انكسار جيش مملكة النوبات بقيادة كبير قادتها حاتبتي كالنار في الهشيم، ففزع الناس وعمّتْ حالة من الهلع، وانتشرت الفوضى في أرجاء المملكة والإقليم الأوسط، وأصبحت هزيمة جيش بقيادة قائد عظيم مثل حاتبتي حديث الناس وأعجوبة الزمان، وتملّك الناس اليأس، وقالوا لن تكون لمملكة النوبات قومة بعد اليوم، ونزح السكان بعيدًا عن المناطق التي نشب فيها النزاع.

مصيبة الملك يوحب في انكسار الجيش هي مصيبة عظيمة، ومصابه مضاعف أضعافًا مضاعفةً لأسر معلمه وقائد جيشه، أعجزه الحزن عن

اتخاذْ قرارًا صائبًا يُصلح به ما أفسده، في ظلّ غياب معلّمه الذي يعتمد عليه وقت الأزمات، وفي النهاية وبتشجيع من نوبة نفرت الخيل التي كانت مستعدةً لعبور نهر الضباب وحرنت السيوف، وتحوّلتْ أعناقهم نحو الإقليم الأوسط.

طلبت حورحور إرسال الأسرى إليها كي تتخذ فيهم حسنًا، فأرسلهم نارمر إليها مكرمين بنيةٍ حسنةٍ بعدما أعطتْه موثقًا بعدم إيذائهم، وغادر أرض المعركة ودخل مملكة النوبات وعسكر جوار قريةٍ بها؛ ليدرس خطة الاستيلاء على عاصمة النوبات منْهِيا سيادتها، وعداوة امتدتْ مئات السنوات، مدركًا صعوبة الموقف متجاهلا كل المدن غيرها، وقوة الجيش النوباتي الحالي لم تختبر بعد، ومازال قادرًا على البطش والضرب بقوة، ونارمر يعلم بوجود فارس قد أُعْجِبَ بشجاعته وقد أذاقه الويل يوم معركة الجسر الذهبي، وأصبح ملكًا، ونصحه قواد حورحور بالتقدُّم دون توقفٍ نحو مدينة قُصر، لكن نارمر رفض، فحدثتْ فرقةٌ وتنازعوا فيما بينهم، واختلف نارمر مع أصحابه الذين يعتقدون بعبث ما يفعلونه في أرضٍ غريبةٍ مع نشوب حرب التحرير على أرضهم بقيادة سنورع، ويفضّلون العودة للمشاركة فيها، وفقد الجميع صبره.

وجاءت الفرصة السانحة طواعيةً إلى حورحور وحقّقتْ أول انتصارٍ على الملك يوحب، وأسرتْ حاتبتي، ولا شكّ أنها سوف تتخلّص من صاحبه

لتؤلمه، واعتدل مزاجُها، وأفرجتْ عن الكاهن كاعبر وجعلته كبيرا للكهنة ووزيرًا لها، وتخلّتْ عن حذرها، وعيّنتْ قائدًا للحرس الملكيّ، وانتظرت بصبر مجيء حاتبتي إليها مذلولًا ومقيدًا بالأصفاد، وبعد أيامٍ وصل الموكب، واحتشد الناس وهم حَزَانَى، فطافت حورحور بحاتبتي شوارع المدينة وأهانتْه، والناس تشاهد وقلوبهم تحتفظ بمكانته ومهابته داخلها، وتعتبره كبيرَ قادتها الشجاع الذي دافع عنهم مرارًا وهو يُهان ويُذلّ بسبب حمق حورحور وجشعها، فيملأ الألم والحسرة قلوبهم الحزينة، ويتجرّعون ممّا يتجرّع منه كبير القادة حاتبتي، وقد ذله ذلهم، فزاد سخطهم على حورحور ونقمتهم عليها.

وأصبح حاتبتي رمزًا للكرامة، كرامتهم المهدورة، وصار غيثًا يُنْبِتُ داخلهم صحوةَ العدلِ وبذورَ التمرُّدِ ضد الظلم.

وأمام عرش حورحور أُقعد حاتبتي على ركبتيه مُقيّدًا، تحيطه عصبةٌ من الحراس الأشداء، وحورحور تجلس فوق العرش بكل كبرٍ وغرورٍ، تحدّق به بِتِيهٍ يجعلها تختال بنفسها وتطأ الثريا، تظنّ أنْ لن يقدر عليها أحد، وهي تعتمد كليًّا على الغرباء أعدائها الأوائل لدفاع عنها، وأجبرتْ كاعبر على الوقوف بالجوار؛ لمشاهدة الموقف، وكانت عينُ حاتبتي تحفظ كبرياءه وتصون كرامته، فهو رجلُ شجاع لا تكسره حاجةٌ ولا مطمعٌ، ومنزلته مازالت

محفوظةً في جميع القلوب حوله، حتى حورحور نفسها مازالت تهابه وتخاف الاقتراب منه وإنْ تظاهرتْ بعكس ذلك.

- هل تظن أنني رحيمة يا كبير القادة؟

فإجابها حاتبتي:

- لا! إنّ الرحمة غير موجودة في قلب مَنْ هو مثلك، وما يهمّ في الحرب هو الشرف، أخلاق الملوك العظام التي تجهلينها.

فضحكت من قوله، وقالت:

- أتيتني صاغرًا! وأنت نكرةٌ، لا تساوي عظم الفدية التي عرضها عليَّ يوحب، أتعقل أنه عرض عليَّ أنْ يملأ خزائني من الذهب والقمح لإطلاق سراحك؟! ويعترف بي حاكمةً على الإقليم!

فأطْرب الخبر فؤاد حاتبتي؛ لأنه اختبر محبّته عند الملك يوحب، ثم قال لها:

- لم أكن صاغرًا، ولن تقدري على إذلالي رغم أنك قيّدْتِ حريتي! فأنتِ تشعرين بالمهانة والوضاعة؛ لأنك اغتصبتِ حقًّا ليس لكِ، وتشعرين ببغض مَنْ حولكِ، والحكمة تقتضي القبول، والجهل يدحضها.

فأنزلها الغضبُ عن عرشها قائلةً:

- أيها الوغد الحقير، سكان الإقليم يحبونني، وتظنّ أنّ من الحكمة القبول؟! إنك تريد الفرار بجلدك، واحتفاظ ملكك الغرّ بعرشه! يا له من متغطرسٍ يعرض عليَّ الاعتراف بي كملكةٍ، وجيوشي تدك ملكه! سوف تُقتلون شرّ قتله.

كاعبر يقف خائفًا من فتك حورحور به، وقد ضعف جسده ووهن، وظهر عليه العجز وكبر السن، وابيضّ شعره، تعجبه ردود كبير القادة حاتبتي، يودّ لو يفتديه بنفسه، لكنّ حورحور لن تقبل التبادل؛ لحاجة في نفسها توشك أنْ تقضيها.

اتّجهتْ حورحور إلى عرشها الذهبيّ وهي تخاطب حاتبتي:

- أمّا الذهب، فلا حاجة لي به، وأمّا ملك الإقليم فهو لي بالوراثة، وملك النوبات فوقه.

فسخر منها حاتبتي في نفسه، وأشفق عليها، ثم تناولتْ لفافةً حمراء فوق عرشها، وأخرجتْ منها خِنجرًا مسمومًا، وأردفتْ وهي تعاود الاقتراب من حاتبتي:

- أنا أريد روحك وروح ملكك الأخرق.

ثم صرخت في الحراس أنْ أحْكِموا قبضته.

فلم يتحرّك أحدٌ من مكانه، فَجُنَّ جنونُها، وأعادت الصراخ في وجوههم أنْ أمسكوه متوعّدة إياهم بعقابٍ أليمٍ، فتحرّك حارس وحيد، وأمسك حاتبتي بقوة، فدنتْ حورحور من حاتبتي ممسكةً بيسراها الخنجر، وغرزته في صدره بكل ما أوتيتْ من حقدٍ وغلٍّ وكرهٍ، ثم نزعته وغرزته مرةً ثانيةً، وغرزته مرةً ثالثة، وجلست على عرشها تسترق السمع لتوجع حاتبتي وأنْ يستجديها الحياة، لكنّ حاتبتي لم يصرخ ولم يتألّم أو يسقط، وظل كما هو شامخًا بعزّه وكرامته كأنه الليث، فأغضبها وأحرق تجاسرُهُ فؤادَها، وصرختْ في الحراس بصراخٍ أشدّ، أنْ أخرجوه من القصر قبل أنْ يتّسخ بدمه وارموه في العراء.

وأرسلتْ إلى الملك يوحب تُعْلِمه بمقتل يده اليمنى بيديها، وندمتْ لأنها تخلّصتْ من جثته قبل أنْ ترسل الرأس إليه، وتعده بمصيرٍ مُشابهٍ، فحزن الملك أشدّ الحزن، وأقسم بكل آلهته أنْ ينتقم من حورحور شرّ انتقام، وأنْ يذيقها العذاب ومرارة ما يشعر به، ولم يقرب من الطعام غير الخبز حتى يبرّ بقسمه، وأعلن الحداد في المملكة، ثم ترك القصر وبات مع الجنود في المعسكر لتجهيز الجيش للزحف إلى حورحور، وراسل قائد الأرض الجديدة أنْ أدرك شأنك، فلن يأتيك مددٌ قبل القضاء على تمرُّد حورحور وإرجاع الإقليم لسلطته.

واغتمّ الناس وخافوا على أرواحهم ومصائرهم وأموالهم أكثر من ذي قبل، أدركوا أنّ الخراب والموت قادمٌ فوق كتف حورحور إنْ كسبت هذه الحرب، وما لاقوه من ضيق الرزق والعيش ما هو إلّا الشيء اليسير ممّا قد يلاقونه، فأصبحتْ حياتهم كالمآتم، وخارت معنوياتهم بعد سعادةٍ قصيرةٍ لم تَدُمْ.

ترك نارمر قيادة الجيش، وتوجّه إلى القصر الأبيض غضبان مع أصحابه بعد حنث حورحور بوعدها وقد أمن حاتبتي على حياته، فحزن حزنا شديدا على موت هذا القائد الباسل الذي رأى فيه الشجاعة والقدوة.

اقتحم نارمر القصر غضبان، فلم يحاول الحراس منعه، وخلوا سبيله، عَلَّهُ يخلصهم من حورحور، فيتحرّرون، ونارمر عاقل كفاية عن قتل حورحور في هذا التوقيت كي لا يخرب خطته، فقد دخل قصرها وهو حليف، وهدفهم واحد إلى الآن، لكنه أطلق العنان لنفسه ولم يتوانَ في ذَمِّها والاستهزاء بتصرفاتها وسياساتها التي أفقدتْهم الورقة الرابحة بأيديهم، وقرّر العودة إلى بلاده على الفور، فاعترضتْ حورحور وحاولتْ منعه، فَوَضَّحَ نارمر أنّ جزاء المسيئين والمتكبّرين أنْ يبقوا وحدهم دون أصدقاء، وأنّ غباءَها سوف يؤدي إلى سقوطها عاجلًا أَمْ أجلًا، وأخذ نارمر حاجاته وغادر بصحبة أصحابه، فسبّتْهم حورحور، وأطلقتْ خلفهم اللعنات والاتهامات الكاذبة، ونصّبتْ أكبر قادة الجيش كبيرًا للقادة، وأمّنتْه على مستقبلها الملكيّ مطموس المعالم.

واحتاجتْ مشورةً صادقةً ممّن هو أهل للثقة، فلم تجد حولها رجلًا تثق به يكون كفؤًا إلّا الكاهن كاعبر الذي أساءت معاملته وأهانته وسجنته، وبالرغم من ذلك كله، إلّا أنها لم تتحرجْ! وطلبت نصيحته في ورطتها! فما كان على كاعبر إلّا الامتناع والتزام الصمت، فوعدته بإطلاق سراحه وتركه وشأنه، لكنّ كاعبر لم يخدع بوعودها؛ فهو يعلم أنها كاذبة ومخادعة منذ أيام الملك شنوات، فعاقبته لما امتنع، وهذا ما كان متوقَّع منها في الحالتين، ووجدتْ نفسها وحيدةً تواجه الوحش الذي غذّتْه وأطلقته.

واجه نارمر خلال العودة صعوبةً في اجتياز نهر الضباب، فقد أحكم النوباتين من جانبهم الرقابة على النهر، بعد طردهم من الضفة الأخرى وبعد موقعة حاتبتي؛ تحسُّبًا لأي جديد، وانتظر نارمر أيامًا حتى استطاعوا النفاذ من بين الدوريات، وعبروا الضباب والنهر، وجدوا على ضفتهما جنودًا سيواتية تحرس الضفة، فعرفوا نارمر وسمحوا لهم بالمرور، ثم اجتمع بسنورع في المعسكر الذي أقامه بالقرب من حصن شنوات، وتبادلا التحية والتهاني بانتصاراتهم، كانت هذه المرة الأطول التي يغيب فيها عن سنورع بعدما قضى شهرين في ضيافة حورحور لم يذق فيهما طعم السكينة والراحة، وتغافل سنورع عن عصيان نارمر لأوامره وفرح بعودته، وقال:

- اشتقت إليك كثيرًا يا بني.

- اشتقت إليك كثيرًا أيضًا يا أَبَتِ، وإنني كنت مرغمًا على الابتعاد!

- أتحملُ في قلبك شيئًا ضدي يا نارمر؟

- لا يا أبي! وأنا أقدِّرك وأحترمك.

- علينا أنْ نحتفل برجوعك إلينا سالمًا يا نارمر.

- قبل أي شيء أودُّ أنْ أحدِّثك عن سبب ترك حورحور والعودة فجأةً دون إذنٍ.

- هاتِ ما عندك، فكلي آذان صاغية.

- بعد النصر الغالي الذي حققته، وأسرت كبير قادة النوبات، خدعتني حورحور، وقتلته بعدما أمّنتنْي على حياته، وأفقدت النصر حلاوته.

- وما ضرّك إنْ مات؟ ولماذا كنت تريد الإبقاء على حياته وهو من أعدائك؟

- لقد أمّنْته على حياته لما رأيت من شجاعته! وتعهَّدتْ لي حورحور بالحفاظ على سلامته، ثم نكثت بوعدها، فلم أعد آمن جانبها، وفضلتُ العودة خاصةً بعد انتصاراتك المتتالية على النوباتين.

- دَعْكَ منها، فلم نعد بحاجةٍ إليها، ولتلقى مصيرها الذي تستحقه، أنا أريدك هنا جانبي، فنقتحم حصونهم معًا.

- ستجدُني دائمًا يا أَبَتِ طوعَ أمرك، لكنني سوف أذهب أولًا لقضاءِ حاجةٍ.

اشتاق نارمر لرؤية نجمة فؤاده حب سنار، والريح يحمل إليه رائحتها الزكية وذكراها، فتهيج عواطفه، ويكثر الحنين في قلبه، دخل مدينة نورس على حين غفلةٍ من أهلها وقلبه يطير فرحًا وشوقًا، وجد نفسه منساقًا إلى طرف المدينة الجنوبي، وأمام بيت حب سنار شعر بالاضطراب والتردُّد، وقف متلعثم الخطوات، أيقدم أم يرجع؟! ولم ينتبه إلى خلو الحظيرة وجفاف زهور الحقل، لم ينتبه لغياب رائحة حب سنار عن المكان وصاحبتها لا تغيب عنه، طرق الباب كثيرًا، وما من أحد يجيبه، فاستدار إلى فرسه فوجده يأكل من حشائش البستان المهمل، فتوجّه إلى قلب المدينة يبحث عن وجهه الضائع، عاد بعدها إلى منزله خائبًا، وسهر الليل كله في الخارج يفكّر في حب سنار وفي اشتعال الحب والحرب، فلما طلعت الشمس ذهب إلى بيتها مرةً أخرى، ودقّ الباب فلم يجبه أحد، ووجده خاليًا، فاشتدّ قلقه، فسأل قائد الحرس حاتسنو عنهنّ، فقال:

- رحلن مع جادوس للعيش معه في سيو بجوار المعابد.

فاغتمّ نارمر وهام على وجهه حزينًا لا يدري إلى أيّ جهة يشدّ السرج إليها، وفي الليل أجمع أمره على السير إلى سيو ليري حب سنار، ويعود سريعًا ليشهد تحطيم حصن شنوات رمز قهرهم وعلامة الاحتلال، لكنْ جاءه رسول

ينبِّئُه بمرضِ سنورع، فترك نارمر كل شيء وراءه وركض إلى أبيه، فأدركه في ليلةٍ واحدةٍ، وقد اشتد عليه المرض، فلما علم سنورع بمقدم ابنه كان مضجعًا فاعتدل بمساعدة الجنود، ومسح وجهه وتعطّر بالطيب، فلما دخل عليه نارمر الخيمة توجّع من مرض أبيه، وقال:

- لتشفيك الآلهة يا أبي، ماذا حَلَّ بك؟!

- لا تقلق عليَّ، الأطباء يقولون إنه مرض غريب، لكنه غير خطير.

- سوف أجلب كل الأدوية كي تُشفى.

- إنّ أشد ما يحزنني الآن أنني لا أستطيع الخروج مع الجيش لإسقاط حصون الظلم والجبروت.

- لا تقلق يا أبي، سوف تُشفى وتكمل ما بدأته.

فأشار سنورع للموجودين بالخروج، فلما خلت الخيمة، قال سنورع:

- أريد أنْ أوصيك، فأنصتْ إليّ جيدًا، إنّ الملأ يتآمرون علينا؛ ليبعدونا عن طريقهم، فتحلوا لهم مناصبهم ويحظون بالجاه والسلطة خالصة، فتخلّصْ منهم أولا، يَخلص الأمر لك.

- هل تشك أنهم مَنْ تسبّبوا في مرضك؟

- لا! فأنا أعاني المرض منذ ابتعادك، وكنت أنا السبب في عدم التلاقي، وأنصتْ ولا تقاطعْني! إنني لا أجد مَنْ هو أفضل منك مِنْ بعدي، فقد مات كل القادة العظام في معركة الجسر، ولم يَبْقَ إلّا المدعون والأفاقون.

- يا أبي لا يهمني غير سلامتك ووقوفك بيننا.

- اسمعني جيدًا يا نارمر، فقد آنَ لي الانتقال إلى حياتي الثانية، ورتَّبْتُ لتكون أنت كبير القادة من بعدي، وقائد الفرسان طامع بها لنفسه ويدعمه الكهنة، فاقتله قبل أنْ يطلع النهار، وسيهابك البقية.

ذكر سنورع أسماء بعض الرجال المخلصين، قبل أن يدخل عليهما قائد الفرسان بغتةً، كان في عقده الرابع ويتمتع بالقوة والنفوذ لتحقيق أطماعه، وهو الأكثر طمعًا من بين القادة في المجد والثراء، تجاهل نارمر متعمِّدًا؛ ليهينه في خيمة سنورع، وخاطب سنورع بقلة احترام، فاعتبر نارمر تصرُّفه سوءَ أدبٍ، ولم يتحمل حديثه، وأغلظ القول معه، فغضب قائد الفرسان وسبّ نارمر واستلّ سيفه، فخرجا خارج الخيمة وتقاتلا، فقتله نارمر، ولم يجرؤ أحدٌ على الاعتراض. وكان أمل سنورع الأخير أنْ يعيش لينصر ابنه عندما تقف الكهنة ضده، لكنّ الموت لم يمهله ومات قبيل الفجر، تاركًا نارمر وحده، ومملكة متنازع عليها، ولاء رجالاتها متفاوتة ومختلف عليها.

أُخفيَ خبر موت القائد سنورع، ونُقِلَ الجثمان سرًّا إلى معبد نورس المتواضع؛ لتقام فيه مراسم التحنيط والدفن، كما أوصى سنورع بذلك في وصيته.

ليس أمام نارمر وقتًا للحزن على أبيه وإقامة المآتم الكبيرة التي تليق بقدْر المتوفَّى، فلو علمت سيو بموت سنورع، ستضيع المملكة.

والتقى نارمر بقائد حرس المدينة حاتسنو وبالقادةِ الآخرين الذين سماهم له سنورع قبل موته؛ لتدارك الموقف الحرج، فاقترح حاتسنو الزحف إلى العاصمة وإجبار الملك على تنصيب نارمر كبيرًا للقادة، فاعترض الجميع، وكان نارمر أشدهم اعتراضًا، وقال:

"كيف نفعل ذلك وجيشها حاميها؟! سيقال جيش السيوات يقاتل أرضه من أجل السلطة؟! وسوف تكون سُنَّةً من بعدي؟!"

لكن في النهاية وافق على إرسال فرقةٍ؛ للتخلص من الخونة في الحاشية والمعبد، وبعد تنصيب الملك رسميًّا على العرش، يفعل ما يشاء، وسافر سرًّا مع حاتسنو بصُحبة مائةِ جنديٍّ من المخلصين لوطنهم، وذبحوا الكهنة وكلّ منافقٍ معلومٍ، وقبضوا على رجالٍ من الحاشية؛ ليُخلِّصوا مملكة السيوات من أَلَدّ أعدائها، ويُجنِّبوها الخطر الأكبر عليها.

وذهب نارمر وحاتسنو يعتذرا للملك، فَوَجَدَا الملك غير منزعج وكان سعيدًا بما يحدث، وكلّم نارمر:

- هل حقًّا قاتلتَ بفرقتين جيشَ النوبات بأكمله؟!

- نعم يا سيدي الملك.

- لقد أخبرني الملك يونسي عنك وعن قوّتك، وأوصاني أنْ أُبقيك قربي.

- إنَّ الملك يونسي ملكٌ عظيمٌ وخالدٌ، وأرجو أنْ أكون عند حسن ظنه وظنك بي.

- آخر شيءٍ أوصاني به الملك يونسي قبل خروجه مع الجيش بأنْ أكون بجانب سنورع وألّا أكون ضده، لكنّ سنورع تركني وحدي وسط جحر الأفاعي.

- سامِحْهُ يا سيدي الملك، فقد توفي، وما شغله عنك إلّا الدفاع عن المملكة.

- أماتَ كبير القادة؟

- نعم مات أبي سنورع!

أمر الملك بإرسال كهنة مختصين لتجهيز جسد سنورع؛ لإقامة مراسم التحنيط والدفن كما يليق به كقائدٍ عظيمٍ قد مات في ميدان القتال، وأعلنَ

الحداد في أرجاء المملكة، وبالرغم من اختلاف طرق تحنيط السيوات بالكلية عن طرق تحنيط النوبات وأنها أيسر منها، إلّا أنّ قلة الكهنة المتمرسين قد أثَّرتْ على جودة تحنيط جسد سنورع، وسرعت من إنهاء العمل.

ورغب نارمر بمغادرة سيو لإكمال مسيرة أبيه وطرد النوباتين من أرضهم، وقد بقيت أمامه المهمة الأصعب، بل إنه قد رغب فيما رغب به الملك يونسي وسنورع من قبل، عبور نهر الضباب واحتلال أجزاء واسعة من مملكة النوبات بحيث تكون الحاجزَ الأول للصَدِّ عن أرض السيوات، فاصطدم برغبة الملك الذي يريد جعله قائدًا لحراس الملك، فقال له نارمر:

- ما لذلك جئنا! وحصون شنوات موجودة فوق أرضنا.

فلمّا عرف الملك برغبته، حقق له مراده، وقال له:

- سيكون قرار تعيينك كبير للقادة أولى قراراتي.

وقبل رحيله هذه المرة وجب عليه لقاء حب سنار ووداعها، فربما لا يلتقيان مرةً أخرى، فعثر على بيت عمّها الذي لم يأمن على الأختين الإقامة في نورس وحدهما خاصةً بعدما رأى استجابة عواطف حب سنار لعواطف نارمر، فلمّا التقيا وجد حب سنار حزينةً، متجهّمةً، باهتةً وقد انطفأتْ فيها معالمُ الحياةِ، لا زهور تترنّح ولا رائحة إلّا رائحة الكمد والغربة، عاملته حب سنار كغريب، وحدّثته بجفاءٍ، فجُرِحَ فؤاد نارمر، فخاطَبَها بحديثِ وُدٍّ، فلم

تتقبل منه، وعادتْ إلى الداخل، وبعد قليلٍ جاء عمُّها جادوس، وأدخله البيت وهو يعزّيه في موت أبيه، ودار بينهما حديثٌ استثقلاه، حتى قال نارمر:

- أريد أنْ أتزوج حب سنار.

فقال جادوس:

- لا أفعل حتى أستأذنها.

فلما غادر نارمر، دخل على حب سنار، وقال:

- نارمر ذكر اسمك، فهل تقبلينه زوجًا لك؟

فجاوبته حب سنار:

- لا! لقد ظهر لنا فجأةً ثم اختفى فجأةً، والآن يعود بعد غيابٍ ويطلبني، وكأنني شيءٌ تركه!

دافع عنه جادوس:

- هو ليس السبب في عدم التلاقي.

فكابَرَتْ حب سنار، ولم تتقبل العذر، لكنها في الليل عندما فكّرتْ في كلّ ما حدث مع نارمر من السفر مجبرًا، وموت سنورع، ثم مجيئه إليها، ندمتْ على تصرّفها معه، وقالت في نفسها سأتمسّك بموقفي وإنْ عاد سألقاه

بترحابٍ وأكلّمه بِوُدٍّ، لكنّ نارمر عزم ألّا يعود مجددًا قبل أنْ تجيبه حب سنار.

وقبل بلوغ الملك السن الشرعيّ لتوليه الحكم دون وصيٍّ، نصب على عجل ملكًا على السيوات، في حفل متواضع قد أقيم داخل القصر، متجاهلين القوانين، فاتخذ أولى قراراته بتعيين نارمر كبيرًا للقادة، وعيّن كهنةً جددًا على معبد سيو؛ لسد الفراغ الكبير الحاصل، وفوّض الملك نارمر بتعبئة الرجال للحرب، فجمع نارمر ثلاثة آلاف جنديٍّ في وقتٍ قصيرٍ، وكانت حب سنار تقتفي أخباره وأثره، فلمّا علمتْ بقُرب رحيله عنها، هرولت إليه، فلما رآها نارمر، نسي همّه، وجلستْ معه طويلًا يحكي لها قصّته مع حورحور وحاتبتي.

سألها نارمر:

- هل تقبلين الزواج مني؟

فقالت حب سنار:

- سيجيبك أبي.

فقال:

- أريد أنْ أسمع الإجابة منكِ.

فقالت:

- إنْ كنت لا تعرف الإجابة، فأنت لا تستحق العناء.

فقال:

- أعلم إجابتك، لكنني أحبّ أنْ أسمعها منكِ.

فامتنعت وتمسكت بموقفها، وبعدما فرغا من الحديث، تواعدوا عندما تشرق الشمس على أرضٍ حرّةٍ.

غادر نارمر عند الفجر بالجيش وسيو نائمةً، وعلى ربوةٍ تُطِلُّ على المدينة، تأمل المدينة الراكدة منذ مئات السنين على أطلال مَنْ سبقوها منتظرا مرور الجيش، يودّعها وهو ذاهبٌ ليتخلّص من كل الأحقاد والعداوات المتراكمة منذ زمن بنائها، ولينهي حربًا قد بدأها غيره وأشعلها الراحلون، أحسّ وهو يقف على الربوة يتأمل أسطح البيوت الهادئة النائم أهلها باطمئنان، بنعمة الأمن التي افتقدتها أجزاء أخرى من المملكة، فقد عرف نعمة الأمن واختبر شرور العداوات وويلات الحرب وبأس المعارك، أدرك أنّ كل حروبهم السابقة التي خاضوها كانت من أجل لا شيء، فقد ضَحُّوا بكل غالٍ من أجل أطماع زائلة، وحق لم يعد معلوما، من أجل الأخذ بثأرٍ لم يعد أحد يهتمّ به، فَفُقِدَتْ أراضٍ شاسعةٍ من السيوات بسبب تلك الأخطاء، وخسرت النوبات أكثر ممّا اكتسبت، وتجرّع الناس من كلا المملكتين

أطماع الملوك وويلات الحرب، تمنى في تلك اللحظة أنْ ينهي كلّ هذه العداوات والأحقاد، وأنْ يُعيد السلام بين المملكتين والأمنَ الذي ضحّى به الجميع.

تذكّر سنورع وخابي، تذكّر أمه التي ربّته وماتت قبل عامين، وكلَّ مَنْ فقدهم بسبب حرب خرقاء مازالت مستعرة.

ذكر حب سنار، فأعاد وداعها في نفسه، لا يدري كيف يطيق فراقها هذه المرة، وقد تمكّنتْ من قلبه، وحب سنار هي أيضًا ترقُبُ خروج الجيش من زاوية نافذتها باكيةً، تحسّ أنها لن ترى نارمر مرةً أخرى، فلم تقوى على وداعه، وقد تخلّتْ عن كل شيء من أجله وفتحت قلبها له، وازداد بكاؤها، ونارمر متصلّبًا في مكانه وقد مرّ آخر جندي، قلب نارمر يَئِنُّ من الجوى ويُحدِّثه بالعودة إليها ليودّعها، لكنه استدار ناحية الجيش ثم أشاح بوجهه مرة أخيرة نحو المدينة قبل أنْ يغادر، والشمس تنشر الدفء على المدينة، ولحق بالجيش.

وكلما مرّ على قريةٍ، تطوّع نفرٌ منها للمشاركة في معركة تحرير بلادهم، وأراح نارمر الجيش عند مدينة نورس، فجاء الناس من كل فجٍّ عميقٍ، وتطوّعوا للانضمام للجيش، فتضاعف عدد الجيش الذي خرج من سيو، فمكث نارمر في نورس حتى يعيد تنظيم صفوفه، ويتجنب أخطاء من سبقوه؛ كي يحقّق

نصرًا مُظَفَّرًا على جيرانه، وحتى لا يخفق في أهم معركة في حياته كلِّها التي ستترتَّب عليها أشياءٌ كثيرٌ، وستحدّد مصير السيوات والنوبات معًا، وحجم نارمر حماسه؛ حتى لا يسبق فعله فكره، فيخطئ، وليس هنا مجالٌ للخطأ.

تجاهل نارمر الحصن الأوسط، وأرسل قوةً كبيرةً إلى الحصن الشماليّ لإسقاطه، وتوجّه مع باقي الجيش إلى حصن شنوات الأشد منعه، فوجد سورًا ثانيًا يحيط الحصن وقد زاد النوباتين دفاعاتهم، فعرض نارمر على قائد الحصن التسليم مقابل الخروج آمنًا هو وجنوده، فرفض قائد الحصن واستبسل وهو يعلم أنه لا قِبل له اليوم بنارمر وجنوده.

رتّب الملك يوحب أوضاع عاصمته، وترك بها حاميةً كبيرةً، وتوجّه على رأس جيش جرّار إلى الإقليم عازمًا على تأديب حورحور، وإرجاع الإقليم إلى سلطته، يدرك هذه المرة أنّ عليه التخلُّص نهائيًّا من حورحور وشرورها، وشعر بجرمه عندما سمح لها بالبقاء عندما كان بالإمكان التخلُّص منها، فترك الأرض الجديدة تلقى مصيرها متخلِّيًا عنها؛ من أجل التخلُّص منها، فغضبه عليها مريرًا، ويحاول ألّا يرتكب خطأ حاتبتي ويقع في فخاخها بعدما استهان بها وبقائدها المجهول، فلمّا بلغ مجمع القطرين، عسكر هناك، ولم يجازف بالتوغُّل أكثر بالجيش حتى يبلغه مأمنه، وبعث الفرق لاستطلاع الأحوال وتحسّس الأخبار.

وحورحور في مأزقٍ حقيقيٍّ لا تجد منه مخرجًا، فتخلّي نارمر عنها وموت سنورع المفاجئ قد أربكا خططها، وجعلاها في مواجهةٍ مباشرةٍ دون حليفٍ ضد الملك يوحب الغاضب، ففتّشتْ كثيرًا عمّن توليه على جيشها، حتى وقع اختيارها على قائد فرقة مغمور غير عابئ بالسلطة، وعيّنتْه كبيرًا لقاداتها، فتراجع بالجيش إلى داخل الإقليم وتحصّن به رغم أنف حورحور، فلمّا علمتْ بمقدم الملك يوحب، مُلِئَ قلبُها رعبًا وخوفًا بالرغم من تجمُّع الجنود البالغ عددهم أحد عشر ألف جنديّ حولها، وأصبحت مثل كُرَةِ لهبٍ تحرق نفسَها وتحرق كلَّ مَنْ يصطدم بها، وأصدرت أوامر صارمة غير نافذة لقائد جيشها الجديد باعتراض جيش يوحب، فكان جواب القائد أنه لا قِبل لهم بجيش النوبات، فاستشاطتْ غضبًا، وأقسمتْ لتحاسبنّه بعد انحسار غمّتها، وأصبحت مثل مَعْلَمٍ يَبُثُّ الشرورَ على الأرض، وفي ليلةٍ واحدةٍ فقدتْ جمالَها الناعم، واستحالت قدراتها على إحاطة قادة جيشها حولها إلى وَهْمٍ، وندم القادة الذين خانوا الملك وناصروا تاضوس وحورحور والذين اتبعوهم على عظم جرمهم، وحدثّتْهم أنفسهم على الاستسلام؛ للحفاظ على رقابهم بعدما برّرتْ لهم الخيانة من قبل، وآنَ لمُلْكِ حورحور السراب أنْ يسقط فوق رؤوسهم.

وفرح الناس بمقدم الملك يوحب، وثارتْ صدورهم للتخلّص من حورحور التي أرهقتْ كاهلهم بالجور والظلم، والضرائب التي لا يقدرون على دفعها،

وخرج الناس من القري القريبة من معسكر الجيش لاستقبال الملك يوحب وجنوده، فأحسن الملك إليهم، ووعدهم بتحسين أوضاعهم، واستعد للزحف إلى القصر الأبيض بعدما تأكّد أنّ جيش الإقليم مرابطٌ غير بعيد من القصر، وسار وهو آمنٌ على جيشه من أنْ يطأ موضع الهلاك، والأهالي كانوا عيونه اليقظة التي تُريه كل شيء، وكلما مرّ على قريةٍ استقبله أهلها بترحاب، وبايعوه على الطاعة والولاء، ففتح معظم الإقليم دون أنْ يرفع سيف واحد وراية الحرب خافضة، فلم يبقَ إلّا حصون وأسوار مدينة القصر الأبيض المنيعة، ففرض على المدينة الحصار، وصبر.

عرض قادة حورحور عليها فكرة الاستسلام، فرفضْتها؛ لأنها تعلم أنّ الملك يوحب قد يعفو عن الجميع إلّا هي، ووصفتهم بالجبناء، وأخبرتْهم بأنّ يوحب قد أرسل إليها يطلب قتلهم جميعًا؛ كي يعفو عن المدينة ويتركها تعيش بسلامٍ، وإلّا فسيحرق المدينة بأهلها وبمَنْ فيها، لم يصدّق القادة كلامَ حورحور واعتبروه مبالغةً أو كذبةً، إلّا أنّ الظنون لعبتْ بهم، وخافوا على أموالهم وأزواجهم وأبنائهم، وأصبح النبأُ حقيقةً لا تُدحض، وتكلّم الناس بأنّ الملك يوحب يريد إحراق المدينة بنا بعدما استبشروا خيرًا، فلا تمكِّنوه منّا، فقاومت المدينة، فاشتدّ عليها الحصار، واستعدّ جيشها للخروج للقاء الملك يوحب قبل موتهم جوعًا وعطشًا، واصطفّ أمام أسوار المدينة، فلم

يعترضهم الملك يوحب، ولم يجرؤ أحدٌ منهم على الاقتراب منه، وأصبح الجيشان متهيِّئيْن للصدام.

وفي صبيحة اليوم التالي، أعطى الملك يوحب أوامره بالهجوم، فتحرّك المُشاة أولاً مشكِّلين صفٍّ عريضٍ تحميه الدروعُ وتسبقه النصال المدبَّبة، ففعل جيش حورحور المثلَ، وتقدّم المُشاة في صفٍّ عريضٍ، فالتقى الجمعان وحمي الوطيس، فدعّمت الصفوف من كلا الجانبين بصفوفٍ أخرى، وهجمت الخيالة، واشتبك الجيشان في قتالٍ عنيفٍ.

قاتل جنود النوبات دفاعًا عن الحق، وقاتل جنود حورحور يائسين، وتساقط القتلى مثل مطرٍ من حديدٍ، وقاتل الملك يوحب وسط جنوده، وأدخل الرعب في قلوب قادة حورحور وأفْقدهم معنى القتال، فشعروا بعبثِ ما يفعلونه، وأقدم بعضهم على الاستسلام، فقبلهم الملك حتى يزعزع عقيدة بقيّتهم، وقاتلوا في صفوفه، فمالت الكفة الراجحة إلى جانب جيش النوبات، ودارت دائرة السوء على حورحور، فلمّا رأى الملك يوحب ازدياد عدد القتلى، أشفق عليهم، فنادى فيهم أنْ أوقِفوا القتال والكلّ آمن، وظلّ يردّد النداء والمعركة مستعرة، فتباطأ القتل، واستجاب له بعض الجنود، وتركوا سيوفهم، وجثوا أرضًا، وتكرّر الفعل حتى استشرتْ عدواه في بقية جند حورحور، ورموا أسلحتهم، حتى جثى الجيش بأكمله، فلمّا رأى جنود النوبات ذلك، جثوا هم أيضًا على ركبهم وتركوا أسلحتهم، وخفض الجميع

رؤوسهم احترامًا للملك، فوجد الملك نفسه قائمًا على فرسه والجميع قد ركعوا له، فنزل عن فرسه، وقال:

- أيها الناس، أنا منكم وأنتم أهلي، ارفعوا رؤوسكم ولا تحنوها لأحد، ولا يفرّقنكم أحدٌ بعد يومكم هذا.

فرفع الجميع رؤوسهم وهم يشعرون بعزّةٍ بعد ذلّةٍ، وصافحوا بعضهم بعضًا، وعفا الملك يوحب عن الجميع، فبايعوه على الطاعة، وهتفوا باسمه: "يعيش الملك يوحب، يعيش المنقذ الملك يوحب."

وأفسحوا له طريقًا إلى داخل المدينة، فاطمئن الأهالي لمّا رأوا الملك يتقدّم إليهم ضاحكًا، ففتحت المدينة أبوابها له، وخرج الناس للترحيب بملكهم وهم يهتفون باسمه: "يعيش الملك يوحب، يعيش الملك المنقذ." فشعر الملك يوحب لأول مرّةٍ بحلاوة نصره.

وتحرر الكاهن كاعبر بعدما تركت حورحور القصر بفوضاه واختفت، والتقى بالملك يوحب في ساحة المدينة، فرقّا لبعضهما البعض، واحتضنه يوحب وبكى كاعبر بحرقةٍ، تأمّله الملك وقال:

- تغيّرتَ كثيرًا يا كبير الكهنة، ماذا فعلتْ بك؟

فأجابه كاعبر:

- لا شيء يا سيدي الملك يوحب، لقد دعوْتُ كثيرًا لنلتقى وقد تحقّقت المعجزة ولقيتك، فلا يضرّني شيءٌ بعد اليوم.

وعَمَّمَ الملك يوحب عفوَه على المدينة وعلى الإقليم كله، وأعلن ضمّ الإقليم إلى مملكة النوبات ليصبحا جزءًا واحدًا لا يتجزأ، وفتّش جنودُهُ القصر الأبيض فلم يعثروا على حورحور، التي لاذتْ بالفرار بمجوهراتها وذهبها، فغضب الملك ونشر جنوده بكلّ مكان للبحث عنها، وجاء بعض الفلاحين في اليوم التالي يبلّغون عن عثورهم على حورحور مختبئةً في كوخٍ، بأحد الحقول البعيدة عن المدينة، فقبض عليها وسيقت مقيّدةً إلى الملك، فطالب الناس بشنقها بعد فترةِ حكمها الجائر، وما عاشوه من ظلمٍ وجوعٍ وذُلٍّ.

أراد الملك إذلالها كما أذلّتْ شعبها، ولخيانتها الملك شنوات، وأمر بحبسها داخل قفص والطواف بها في المدينة، فرماها الناس بأقذر ما وجدوا، وسبّوها وأهانوها بقدر المهانة التي أذاقتْهم إيّاها، وقهر الجوع مازال يقرص بطونهم، وتُرِكَتْ حورحور لتبيت ليلتها داخل القفص خارج أسوار المدينة تحت حراسة الجنود.

وأحرق الملك يوحب القصر الأبيض بكلّ محتوياته، ووقف غير بعيد يراقبه وألسنة النار تلتهمه، واجتمع الناس لمشاهدة القصر الأبيض الذي كان يومًا

ما مصدرَ بهجتهم ورمزًا للجمال وهو يحترق وتتهدم إركانه بعدما تحوّل إلى رمزٍ للاستبداد والقهر، لم يهدأ قلب الملك ولا قلب الناس إلّا والنار خامدةٌ، والقصر قد اطلال فوق عرشٍ محطَّمٍ، وحورحور تشاهد تصاعد النيران والأدخنة من خارج المدينة، وتبكي على حالها، وتفكّر في كيفية الخروج من ورْطتها.

الآن أصبح الملك مُتفرّغًا لعقاب حورحور، فتوجّه نحوها ونفسه كانت تُحدِّثه بجعلها تطوف المملكة بأسرها عاريةً، ثم يقطع رقبتها، ويقدّمها طعامًا للوحوش، وقال لها:

- كيف استطعتِ خيانة الملك شنوات والارتماء في أحضان تاضوس؟!

- إنني لم أخنْهُ يومًا، وأحبّه كثيرًا، أنت لن تفهمني!

- وما الذي يمنعني من الفهم؟

- كانت أمك من عامة الشعب، وأنت تشبهها.

فقال كاعبر بِحِدَّةٍ:

- والدمُ الملكيُّ ليس نقيًّا كما تظنّين! ودم العامة خير.

فضحكت حورحور وقالت:

- ومَنْ يدافع عنهم رجلٌ من أراذلهم!

فغضب الملك يوحب من قولها، وأمر بقتلها ودفنها في الصحراء بعيدًا، ففعل الجنود.

وفي الليل أوقدوا نارًا وأُنيرت السرج، وأُقيمت الاحتفالات العامّة؛ لتحرير الإقليم وعودته إلى سلطة المُنقذ يوحب، واختار الناس من بينهم حاكمًا عليهم، فأقرّه الملك حاكمًا على الإقليم، وبقيت الشوارع مليئةً بالمحتفلين حتى ساعات الصباح الأولى، واستمرّت الاحتفالات أيامًا وليالي، وقد أعْمَتْهم الفرحةُ باتّحادهم مرةً أخرى عن ضياع قلاعهم على الضفة الأخرى من نهر الضباب، الملك يوحب نفسه الذي شارك في معركة الجسر الذهبيّ لم يكن مُهتمًّا بالحفاظ على مكتسباته هناك قدر اهتمامه بالإقليم، فلمّا أعاد الإقليم إلى سلطته وعاقب حورحور، تناسى مكتسباته قليلا من أجل الاستمتاع بفرحة نصره على حورحور.

بعدها يفكر في إكمال غزو أبيه الذي لم يكتمل، رغم خفوت رغبته في بدء قتالٍ جديدٍ أشد وطأة، ربما سيأكل الأخضر واليابس تاركًا الأرض عجفاء.

وتزيّنتْ مدينة قصر لاستقبال ملكها المنقذ، وخرج الناس أفواجًا، وخرجت نوبة الصغيرة تتمشى معهم؛ لاستقبال الملك على مشارف المدينة، فمرّ الملك من بينهم والناس تهتف باسمه وتهديه الورود، وتنثر عليه حبات القمح، ففرح الملك يوحب أشدّ الفرح بتجمُّع الناس إليه، وقابل زوجته

وسط الزحام، فنزل عن فرسه وحيّاها وترجلا معًا واختلطا بالجموع، فحملوهما على الأعناق معترفين بفضلهما، فأحسّ الملك وهو بين شعبه يشعر بحبهم له أنه أقوى ملك على الأرض.

وتأمّل الجموع المحتشدة لتحيّته، حاملا هم حياتهم ومعيشتهم، وفكّر في أمنهم وأمن أسرهم، الذين من حقهم أنْ يعيشوا في مملكةٍ تتحلّى بالأمن والسلام، وداهمته أسئلةٌ كثيرةٌ ولا بُدّ من سؤال واحد يُجاب، فدخل قصره واختلى بكاعبر بعدما أعادهُ إلى منصبِ كبيرِ الكهنة، وقال الملك:

- مات الملك شنوات، وفقدْتُ الرغبة في إكمال غزو مملكة السيوات، وفي الوقت نفسه أريد الحفاظ على الأراضي التي اكتسبناها بالقوة.

- لقد عارضتُ فكرة الغزو منذ البداية، ولا يستطيع أحد الحفاظ على ملكٍ ليس من حقّه.

- لا تنسَ أنهم الذين بنوا جسر الذهب لغزونا بغتةً! فدافعنا عن أنفسنا واستولينا على أرضهم.

- نعم، أعلم ذلك! لكنهم مثلك كانوا يريدون الحفاظ على مملكتهم، ويعتبروننا أعداءهم، مثلما نعتبرهم تمامًا، ونحن طيبون، وهم كذلك.

- إذًا، فمَن المخطئ ومَن الصالح؟!

- لا أعلم، فقد وُلدنا والصراع بيننا مشتعل وعلى أشده، ولم نعرف سببًا واضحًا لهذا العداء.

- يا كاعبر إنّ عقلي حائرٌ بين التراجع والصمود.

- عداوة ليس لنا يد بها، لا نزجيها، ولا نعمل أيدينا في عداءٍ جهلنا سببه.

- سيقول السفهاء إنني ضعيفٌ، فيُستهان بي.

- أعلم أنه سيحزنك ما يقولون، لكنّ القوة والهيبة يكمنان في تحكيم العقل وضبط النفس، وليس في الاندفاع الأهوج لتوافق رأي الناس.

وفي النهاية، رأى الملك يوحب أنّ أمن مملكته مرتبطٌ بحصن شنوات الجديد مع وقف توغُّله في الأراضي السيواتية، وسَيَّرَ إليه خمسة آلاف جنديٍّ؛ لمؤازرة قوّاته هناك بقيادة كبير القادة الجديد حاتر، لكنّ كبير القادة نارمر قد سبقه وأحكمَ الخناق على الحصون الثلاثة المتبقية، وتحت الضغط سقط الحصن الشمالي والأوسط، وعَفَا كبيرُ القادة نارمر عن الأسرى، وسمح لهم بعبور نهر الضباب، فعبر جميعهم النهر، وانضم من نجا منهم إلى حصن شنوات، وتفرّغ نارمر لإسقاط حصن شنوات الذي يذكِّره بأشياء يَوَدُّ لو تُنْسَى، وتفاوَض مرةً أخرى مع قائد الحصن على التسليم وتراجعه إلى ما وراء النهر، فَأَبَى قائد الحصن لمّا وصلته أنباء انتصارات الملك يوحب، ففقد السيواتين صبرهم، وتخلّوا عن ضبط النفس، وقذفوا الحصن

بالحجارة وكراتٍ من نار، فصمد النوباتين ودافعوا عن الحصن بشراسة وهم عطشى، والجوع يقرص بطونهم، فتعجّب كبير القادة نارمر من صمودهم في الوقت الذي يحترق فيه الحصن ومصيرهم الموت، وبعد قصفٍ عنيفٍ حدثتْ ثغرةٌ في جانب الحصن الغربيّ، فاندفع منها السيواتين إلى داخل الحصن كسيل عرم قد جرف النوباتين أمامهم، فلمّا أوشك الحصن على السقوط فتح لهم نارمر مخرجًا، يقود إلى الجسر، فلما شاهد قائد الحصن نهايته ونهاية جنوده أمر بالانسحاب إلى الضفة النوباتية، وهناك جمع قوّاته وأعاد تنظيمهم، وأرسل إلى الملك يوحب يُعْلِمُهُ بسقوط الحصن؛ كي يرسل له مددًا، لم يكن يعلم أنّ الجيش الذي أرسله الملك إليه على وشك الوصول.

رابط أمام الجسر؛ لصدِّ أي محاولة لعبور الجيش السيواتي النهر، والحسرة والخزي يأكلاه؛ بسبب موت جنوده وضياع الحصن الجديد، وقد شهد معركة الجسر مع الملك شنوات، وشارك في بناء الحصن.

وبعد وصول المدد، حاول كبير القادة حاتر عبور الجسر، فباءتْ محاولته بالفشل، وخسر الكثير من قوّاته، فأدرك عبث كل محاولات عبور النهر واستعادة الحصن، ووجودهم على الضفة الأخرى من جديد، فانتظروا وصول الملك يوحب لإدارة القتال بنفسه.

انتاب نارمر سؤال وسط هذا الخضم المتلاطم من المعارك، فقد خَطَرَ السؤال نفسه على قلب الملك يوحب أيضًا وهو في طريقه إلى الجسر... ماذا لو انتصرنا؟ ماذا لو استردّ الطرف الآخر عافيته وهاجم من جديد كما حدث معهم؟ كيف يكون الحال يومها؟

وهل يصلحُ نهر الضباب بعد اليوم ليكون جدارًا عازلًا يقي المملكتين شرور بعضهما؟

توصّل نارمر إلى حقيقةٍ مُرَّةٍ، أنّ عليه القتال طوال عمره؛ كي يُبْقِي مملكة النوبات في معزلٍ آمنٍ بعيدًا عن السيواتين، فإذا توقّف القتال، عاد التهديد، أو التوصُّل إلى اتفاقٍ يَقِي المملكتين ويلات الحروب والدمار، فقد ولد أبوه وقاتل ومات والحرب مازالت مشتعلةً، لم يطفئها الدم ولم تطفئها الأرض، ولا شيء قادر على إخماد هذه الحرب حتى الآن.

وبعد وصول الملك يوحب أرض المعركة، تكافأ الطرفان، وأوقَفَ الطرفان إطلاق النار دون اتفاقٍ مسبقٍ، وساد بينهما حالةٌ مريبةٌ من الهدوء لا يتبعها سلام، ولم يطالب أحد بالتفاوض، وتساءل الجميع: ماذا سيحدث بعد ذلك؟

توقّفت الحياة تمامًا في المَمْلَكَتَيْن، ونذر ريعهما للمجهود الحربي، وسادت حالةٌ من الانتظار المميت، يتحينون الفائز بهذه الحرب الضروس التي

انتقلت عدواها من جيلٍ إلى جيلٍ، لم ينتظر الناس المكاسب، فكلّ همِّهم هو إنهاء الحرب، لا يريدون انتصارًا ولا يريدون هزيمةً؛ وهذا بسبب إدراكهم عبث هذه الحرب وعدم جدواها، وقد استمرت عقودًا، وكان إثمها أكبر من نفعها، وتكبّد الطرفان ما لا يمكن تعويضه على مدار سنوات الحرب الطويلة، اطمئن الناس مع غلبة الغمّ أنه لن يستطيع طرفٌ البغيَ على الآخر، مادام كلاهما يسيطر على طرف الجسر الخاصّ به.

ضباب النهر شاحبًا ورقيقًا، تكاد تأكله الريح، والنهر هادئًا، ينخفض مستوى مياهه كلّ مساءٍ، والأسماك تنفق وتطفوا على السطح، فامتلأت الأجواء برائحةٍ عفنةٍ، فتعجّب النوباتين والسيواتين مما يحصل معًا!

لأول مرّةٍ يجمعهم النهر على شيءٍ واحدٍ، ووقف الأكبر سنًّا من كلا المملكتين في اندهاشٍ وذهول، فلم يُسمع بهذا في الأولين، وقد حدثوهم بخلاف ذلك، فتأول الناس أنّ الآلهةَ غاضبةٌ عليهم، ولا بُدّ من الذبح وتقديم القرابين؛ لإرضائها؛ فلا تصيبهم لعنةٌ.

وكبير القادة نارمر لا يعتقد بمثل هذه الأشياء منذ صغره، فهو ضعيف الإيمان بتعدُّد الآلهة، ويُوَحِّدُ الإلهَ الذي يلجؤون إليه وقت الشدائد، لكنّ الكهنة أقاموا الطقوس وقدموا القرابين إرضاءً للآلهة وإرضاءً للنهر.

واستدعى الملكُ يوحب كبيرَ الكهنةِ لمّا كثر اللغط؛ ليأخذ برأيه، فارتعش كاعبر من انخفاض النهر، ورِقّة الضباب وانحساره فوق المياه، فقال:

- لا شكّ أنّ الآلهةَ غاضبةٌ واللقاء حاصل.

فقال الملك:

- ماذا تقول يا كبير الكهنة؟

فتنهَّدَ كاعبر بتؤدٍة، وقال:

- لندخل خيمتك يا سيدي الملك يوحب؛ لأحدِّثُكَ بما أعلم.

فلمّا اختلوا ببعضهما، ظَلَّ كاعبر يلتقط أنفاسَهُ وينظر إلى سقف الخيمة، ويرتشف جرعاتٍ من الماء، فقال الملك بنفاذ صبر:

- هات ما عندك يا كاعبر، فإنني لا أطيق على الجهل صبرًا.

- سيدي الملك يوحب، عشت طويلًا وأنت تظنّ أنّ أخاك مات، وأمك ماتت من بعده!

- هذا ما قاله الملك شنوات وأقرّه الجميع؟

- قال الملك شنوات هذا لحاجةٍ في نفسه قضاها وقد أقرّه الجميع خوفًا منه، والحقيقة غير ذلك.

فتنهد يوحب باستياء وفتور:

- فلتتحدثْ بإيجازٍ، فلن يكون أسوأ ممّا فات، وقد سئمت الحوادث.

فاقترب كاعبر من يوحب وتحدث فيما يشبه الهمس:

- أراد الملك شنوات أنْ يهبك وأخاك إلى حورحور، فخافتْ أمكم نوبة، وفرّتْ بكما إلى المعبد، فأشَرْتُ عليها بالاحتماء بجبل النور تحت رعاية سيدي متاح، فأدرككم تاضوس عند النهر، وقتل أمك، وجاء بك إلى الملك، وزعم أنّ أخاك سورابي قد ماتَ، فلم يصدقه الملك شنوات، وأرسلني إلى سيدي متاح؛ كي يدلّني على مكانه، فقال لي قوليْن، الأول قد قُلْتُهُ في حينِهِ، والثاني أقسم عليَّ ألّا أحدّث به أحدًا.

فبرقت عين يوحب من صدمة الخبر، وانفعل على كاعبر:

- قُلْهُ يا كاعبر، فقد مات كبير العرافين.

فوقف كاعبر حزينًا، وقال:

- حقًّا يا سيدي؟

- نعم!

- فلتُرضيكَ ولتُكرمك الآلهة يا سيدي متاح.

توقف الحديث بسبب بكاء كاعبر سيده، وبعد فترة ضاق صدر الملك وقال:

- الآن أخبرني بما أخبرك به متاح، وأصدِقْني القول.

فحاول كاعبر لملمة شتات نفسه، وإرجاء حزنه إلى وقت آخر:

- طيلة مدة حبسي عند حورحور وأنا منشغلٌ بالتفكير في هذا الأمر، ووَدَدْتُ لو ألتقيه، فنتحدّث ثانيةً حوله، وبما أنه قد مات وتغيرت الأحوال، فلن أكتم عنك شيئًا، قد قال لي: "سوف يلتقي الأخويْن عندما يجفّ النهر ويلتقي الجمعان! فلا تحاولْ إيقاف الحرب" وأخبرني أيضا " أن اثنين من قواده سوف يجلسون على العرش وضوء الشمس مسلط عليهم، ويحكمون باسم الإلهة"

- ومعنى ذلك يا كبير الكهنة أن شخصا ما سوف يقاسمني ملكي! كلامك هذا أصابني بالحيرة.

- لا أعلم يا سيدي الملك فقد أخفى علي سيدي متاح الكثير.

- لكن النهر جافّ، وقد التقى الجمعان مرّات؟!

- أظنّ أنّ اللقاء الذي كان يقصده سيدي لم يَحِنْ موعده بعد.

- لكنني يا كاعبر كرهتُ الحروب والموت، ولا خير في حرب.

- الحرب التي تُخرِجُ الناس من الظلام إلى النور خير، الحرب التي تحرِّر الناس من العبودية وتجعلهم مخيّرين خير..

فسكت الملك حرجا، ثم قال:

- هل أخي سورابي يشبهني، فأعرفه إذا التقيته؟

- لا! لم تكن ملامحكما متطابقة، كانت عيناه تبرقان.

- وكيف سأعرفه يا كاعبر؟!

- لا أدري.

قام الملك من مجلسه وسار ناحية كاعبر وقال:

- لا تخبر أحدًا بهذا السر مهما حدث.

- أمرك يا سيدي الملك يوحب.

وقبل أن يغادر الملك سأل كاعبر:

- وهل نقدّم قربانًا للنهر؟

- لا! النهر ليس إله.

يخفى كاعبر شيئا أشد خطورة، قاله له متاح في اقصى مكان في الصومعة، فضل كتمه في صدره حتى تظهر علامته الأخيرة.

أصبح عبور النهر بعد جلح الضباب أشد صعوبةً، وكما كان الضباب قديمًا عائقًا في وجه كلّ مَن يحاول عبور النهر، فقد أصبحت الجيوش التي ترابط على ضفتي النهر أشد منعةً، لتجبر الآخر على المكوث مكانه، أدرك الملك يوحب أنّ الحربَ باقيةٌ، وسوف يطول أمدها، فأمر بتشييد حصنٍ من ناحيته فوق مدخل الجسر، دون بوابة جهة النهر، وأمر كبير القادة نارمر بتشييد حصنٍ على جهته، متقدمًا قليلًا على حافّة النهر؛ كي يسهل الدفاع عن الجسر.

فجاء كاعبر إلى الملك منزعجًا يشكوه الحصون قائلًا:

- هذه الحصون تمنعك من لقاء أخيك!

- تقول النبوءة، إنني سألتقيه في الحرب! أليس ما نحن فيه حرب؟!

- وتقول أيضًا: لا تحاول وقف الحرب!

- أتهذي يا كاعبر! أتريد مني أنْ أخلي سبيلهم وملكي؟! ومَن علّمك أنني أريد لقاء أخي؟!

- إنه توأمك! لماذا قد لا ترغب في لقائه؟!

- أتريده بعد كل هذا العمر أنْ ينازعني في الملك؟!

فبهت كبير الكهنة، وأخفض رأسه، فأردف الملك:

- لولا أنني أحفظ جميل صنعك مع أمي، لقطعتُ رأسك، اذهب إلى المعبد، ولا تغادره أبدًا حتى آتيك.

فغادر كاعبر آسفًا على ما أصبح عليه يوحب، يشعر أنّ هذا العالم الذي عذّبه، ورحل عنه أصحابه لم يعد صالحًا للعيش، في حال أنّ الأخَ يكره أخاه، ورياح التغير التي تهبّ في المملكة تهدّد وجوده، فقرّر الاعتزال داخل مدرسة الشلّالات بقيّة حياته؛ لِيَنْعَمَ بالسَّكينة، فستأذن الملك، فأذن له.

النهر العجوز الذي شاب على الثوران قد صار مُستكينًا، ولم يعد من معالمه شيء غير مجرى عريض، قاعه يشبه مُستنقعًا ضحل، وكثافة الضباب تزداد وتقل حسب حالة الطقس وغيم السماء، وأشعة الشمس تنساب على الحصنين تضيء كليهما، وتتخلّل بين الضباب فكأنه غيمةٌ شفافةٌ.

جزت الأحراش والنباتات من كلا الجانبين حول الحصنين وبامتداد أميال كي لا تكون المنطقة ساترًا لغير المرغوب بهم. فأصيبت الضفاف بالقَرَع.

ومضت الأشهر، وشيد الحصنان، فأصبح الجسر الذهبي كأنه جسر يربط الحصنين ببعضهما لا كطريق فوق النهر، ومع تلاشي الضباب وانكشاف تحرُّكات كل طرف أمام الآخر، تجمّد الموقف على ما هو عليه، فأبقى الملك يوحب كبيرَ قادته حاتر على الحصن، وعاد إلى عاصمته.

النوباتين هادئون، لا تثير تحرُّكاتهم أيُّ شكوك، لكنّ بعض القادة السيواتين الذين عملوا تحت إِمْرَةِ الملك يونسي وسنورع المخلصين لهم، وشهدوا الهزيمة المنكرة التي تعرّضوا لها غاضبين من سياسة نارمر السلمية، فجمعهم نارمر وتناقش معهم في الأمر، فأجمعوا أمرهم على عبور النهر ومحاربة النوباتين، فقال نارمر:

- أتحبّون الحرب وقد كفوا أيديهم عنكم؟

فقال قائدٌ قاتل بجوار سنورع:

- دحرناهم بقوّتنا! ولولا بأسنا ما توقّفوا إلّا على أبواب قصر سيو.

وقال آخر:

- أنت تعلم يا كبير القادة أنهم سوف يعاودون الكَرَّةَ إنْ سنحت لهم فرصة، فيجب أنْ ندمّرهم ونستأصل شأفتهم.

وقال حاتسنو:

- يا كبير القادة لا نعتقد أنّ النوباتين سيتركوننا بسلامٍ، يجب أنْ نملك حصونًا على ضفتهم؛ لتكون مانعتهم إذا حاولوا مهاجمتنا من جديد.

فأجابهم كبير القادة:

- إنّ الحرب مكلّفة، وقد خسرنا الكثير من الأرواح، واليوم نحن آمنون في أرضنا، فماذا لو جنحوا للسلم؟

- لن يجنحوا للسلم ما داموا فيها.

اختلى حاتسنو بنارمر، فتباسطا معًا في الحديث، وكان نارمر يخشى ارتكاب خطأ قاتل مثل خطأ سنورع، بالرغم من اقتناعه بضرورة تأمين ضفّته من الجهة المقابلة، وقال حاتسنو:

- ممَّ تخاف؟ وقد صمدْتَ أمام جيش النوباتين بأكمله يوم موقعة الجسر، ونجوْتَ منهم، وتَعْلَمُ المنطقة جيدًا.

- نعم! لكنني لم أعبر يومها راضيًا، وعبور النهر هو انقطاعٌ عن أرضنا.

- لتكن المعركة الأخيرة؛ لِتُئمِّنَ غدر النوباتين إلى الأبد، حتى أنت غير مقتنع أنهم قد رضوا بأرضهم.

- وكيف نعبر إليهم والطريق مسدودة؟

- لا بدّ من إيجاد حلٍّ لهذه العقبة.

ففكّر نارمر طويلًا في حلٍّ ناجعٍ، وظهرت تعابير وجهِهِ قاطبةً؛ لتعذُّر إيجاد هذا الحل الذي يرضيه ويرتضى به قواده، وبعد فترةٍ لا يعلم نارمر طالت أمْ قصرت، قال لحاتسنو:

- هل تستطيع يا حاتسنو عبور النهر بِعِدَّةِ آلافٍ من الجنود.

- أظن أنني أستطيع!

- هل تستطيع أمْ لا؟

- لا يا سيدي.

فاقترح عليه حاتسنو بناء مدرَّعةٍ كبيرةٍ، يكون ظهرها من المعدن يختبئ داخلها الجنود، ويخرجون على الجسر لإحداث نقبٍ في سور النوباتين، ومِن ثَمّ اقتحام الحصن، وبالرغم من أنّ الدفاعَ عن المدرّعة وعبورَ الجسر يصعُبُ فعلهما في وقتٍ واحدٍ، إلّا أنّ نارمر قد وافق، وباشروا خطةِ الهجوم، وبعد أيامٍ وفي ليلة ظلماء فتح السيواتين بوّابتهم المُطلّة على الجسر واندفعوا منها بكثافةٍ، تحرّكت المدرعة الكبيرة يتقدمها حاملي الدروع، فحاول النوباتين من فوق الأسوار صَدَّ الهجوم والدفاعَ عن أرضهم، والجسر يهتز ويرتعش، واستحال لونه الذهبي إلى لون الدم، تحوّل إلى مزرعةٍ من جثثِ السيواتين، وسقط الكثير منهم في النهر، لم تكد المدرعة تصل إلى سور الحصن حتى أغدق عليها النوباتين بول الشياطين وأحرقوها، فتركها الجنود وتراجعوا محترقين، وباءَ الهجومُ بالفشل الذريع.

لم يتحدّثْ أحدُ القادة عن الهزيمة، ولم يناقشهم نارمر حولها، وصمت الجميع عنها حزانى، كأنها لم تحدث، فقد أحيت داخلهم ذكريات أليمة، ومن

ليلتها والكلّ ساكت، ونارمر لم يكن يتبرّم أو يتذمّر من سباتهم، ولا تزعجه السياسة السلمية التي ينتهجها.

(4)
نهر النين

مضت الأشهر، والسيواتين يروحون ويجيئون، والنوباتين عاكفون على الأسوار، وقد ارتضى كلُّ طرفٍ بما امتلك من الأرض.

علم نارمر أنّ حب سنار عادتْ إلى بيتها في نورس، فذهب لرؤيتها، فوجد جادوس حاضرًا، فاتفق معه على الزواج من حب سنار، لكنهما أَجَّلَا العرسَ حتى تحسُّن الأوضاع قليلًا.

وتجوّل نارمر وحب سنار وسط الحقول وتسابقا بالخيل، تمهّلَ نارمر قليلًا، فسبقتْهُ حب سنار، فتباهتْ بنصرها وهو فرحٌ بها، ثم عادا إلى بستانها يتناجون فيما بينهم، قال لها نارمر:

- ما حملك يا حب سنار على المجيء؟

فابتسمت حب سنار، وقالت:

- أتعلمُ وتحبُّ أنْ تسمع الإجابة منّي؟

- نعم.

فقالت حب سنار على استحياء:

- نعم، لقد اشتقتُ إليكَ كثيرًا.

- وأنا تركت جنودي، وجئتُكِ مشتاقًا.

ساد بينهما صمتٌ جميلٌ، تخلّلتْهُ نظراتٌ كثيرةٌ لبعضهما، وبَسْماتٌ عذبةٌ، ثم قالت حب سنار:

- نارمر، ماذا بقي لك من حظّ الدنيا بعدما أصبحتَ كبيرَ قادة السيوات.
- أتزوّج المرأة التي أحبّ، ونعيش في حصن الغابات المظلمة، وننجب أطفالًا.
- أهذا ما تبقّى لك من حظّ الدنيا؟!
- نعم، وأنتِ يا حب سنار ماذا تبقّى لكِ من حظّ الدنيا؟
- صنيعة معروف تفعلها لإحلال السلام بين الأمتين، النوباتية والسيواتية لا يؤدونها إليك، حتى يكون عقبهم في عقبك.

صمت نارمر قليلا وتأمل السماء:

- أنا أرغب في السلام يا حب سنار، لكن النوباتين ربما لا يرغبون!
- ذاق النوباتين مثلما ذُقْنَا من عضد الجوع ومآسي الحرب ومرارة الفقد.

فتعجّب نارمر من قولها وهي ما هي عليه، وراغبة في الانتقام لموت أبيها، فقال:

- لمَ يا حب سنار قد غيّرتِ رأيكِ تجاههم وتجاه الحرب؟!

- لن يفيد الانتقام يا نارمر، وأخاف أنْ أفقد المزيد ممّن أحبّ.

- كنتُ أفكّر جديًّا في حلٍّ ينهي هذه الحرب، خاصّةً ونحن نعود دائمًا إلى نقطة البداية، لكنّ قد تَوَلَّى حكم النوبات شابٌّ مندفعٌ وطموحٌ، قد يرفض السلام؛ لتحقيق ذاته.

- حاوِلْ يا نارمر، أريدكَ فقط أنْ تحاول.

اتّجه نارمر إلى سيو؛ للقاء الملك؛ لشرح الوضع له، ومناقشة فكرة السلام معه، فانزعج الملك، وقال غاضبا:

- أتريدني أنْ أسلّم على قاتلي أبي وألّا أنتقم منهم؟! بئس الرأي رأيك!

- لقد انتقمنا منهم يا سيدي الملك، ولم يبقَ منهم مِن أحدٍ، والخير في السلام.

صمت الملك قليلًا، ثم قال:

- سوف يتحدّث الناسُ، وسيقول السفهاءُ بأنني قد تخلّيتُ عن ثأري!

- إنّ الحرب قد أذاقت الناس مرارةَ الفقد وشدّةَ اليُتْمِ، ولم تَعُدْ تعنيهم ثارات لن تغنيهم من جوعٍ أو تُؤَمِّنهم من خوفٍ.

- وهل طلب النوباتين مهادنتنا؟

- لا! لكنني سوف أعرض عليهم الصلح.

- أحبَبْتُ أبي الملك يونسي كثيرًا، وقد أوصاني عليكَ، سأُلَبّي لك طلبك هذه المرة، وإنْ أخطأتَ، سوف أستبعدك.

- كما تشاء يا سيدي الملك.

أما الملك يوحب فكان غاضبًا؛ لفَقْدِ ممتلكاته في السيوات، وعاجزًا عن كلّ الاحتمالات، وأخفقتْ نوبة في التخفيف عنه، فأشارت عليه بالإقامة عدة أيام في الإقليم الأوسط؛ للراحة وزيارة المعابد هناك، فرضخ لها يوحب، ورحلا معًا، واقتسما الدار الملحقة بمدرسة الشلالات مع كاعبر، وتصافيا، وطرح كاعبر ما كان يحمله في صدره تجاه يوحب، لكنّ يوحب الحزين على خسارته وضياع الجسر وزاهد الآن في الدنيا، مازال يخشى أخاه الغائب الذي ظهر له من العدم، ويخشى ظهوره إلى العلن، يشعر نحوه بمشاعرَ متضاربةٍ، أحس كاعبر بما يدور في خلد الملك، وقد ربّاه وليدًا، فقال له:

- ماذا أنت فاعل بأخيك إنْ لقيته؟

- إنه أخي! لكنني لا أريد قلاقل أخرى في مملكتي.

- لا يستطيع أحدٌ أَخْذَ مكانك، فالترحيب بأخيك وإكرامه شيء آخر لا يرتبط بأحقِّيته في العرش.

- وما أدراك يا كاعبر أنه لن ينازعني في الملك؟

- أنتم من أصْلٍ كريم، طيّبٍ وشريفٍ، ولن تفعلا ذلك.

وفي نهاية مدة إقامته، نصحه كاعبر بالالتفات إلى الرعيّة والنهوض بهم، وتحسين أحوالهم المعيشية، وتجديد دماء المملكة بعد سنواتٍ من السبات والجُمود، فلمّا رجع الملك إلى قصره، أمر ببناء مدرسةٍ كبيرةٍ؛ لتعليم الأطفال، وأمر بإنشاء مدينةٍ جديدةٍ وسط المملكة؛ تكون حلقةَ وصلٍ بين الإقليم والعاصمة قُصر، أطلق عليها طيبه، مع وجود فائضٍ كبيرٍ في خزينة المملكة يغطي تكاليف البناء.

ومع تناسي الجميع الحرب، أرسل نارمر إلى حاتر يريد مقابلة الملك يوحب؛ لطلب الصلح، فاندهش حاتر وأمْهَلَهُ، وأرسل إلى الملك يوحب يُخبِره بطلب السيواتين العجيب، فلمّا جاء الرسول، ارتاح قلب يوحب وجنح للسلم، واستشار كاعبر، وكان فَرَحُهُما أكبرَ مِن أنْ يثيرَ فضولَهما الشكوكُ حول نوايا السيواتين، وتناسوا نصيحةَ كبير العرافين بعدم محاولة إنهاء الحرب، وذهب كاعبر إلى حصن الجسر بأمرٍ من يوحب؛ ليشهد المفاوضات بنفسه.

أرسل نارمر حاتسنو لمعرفة مدى جديّة النوباتين في إحلال السلام بينهما، فالتقى حاتسنو بحاتر الذي لا يعتني كثيرًا بأمر السلام والحرب، فخرج من عندهم كما جاء، وقلقهم باتَ متزايدًا نحوه، وأخبر حاتسنو نارمر بما استنْتجه، فلم يقتنع نارمر بما قال، وقرّر الذهاب في المرّة القادمة؛ ليستوضح الأمر بنفسه.

فالتقى بحاتر على أنه مبعوثٌ من قِبَلِ كبير قادة السيوات، وقال:

- يقول كبير القادة نارمر، لقد كلّفتْنا وكلّفتْكم الحرب الكثير، وجرّعتْنا الألم.
- قرار الحرب والسلام بيد الملك يوحب، كما أخبرتُ المبعوث السابق، وأرسَلَ الملكُ كبيرَ الكهنة للتفاوض معكم بالنيابة عنه.
- هل تظنُّ الملك يوحب يقبل التصالح؟
- الملك يوحب ذكيّ فطن، وسوف يفعل ما فيه الخير لمملكته.
- إذًا، أريد أنْ أقابل الملك؟
- فَلْتَتَحَدَّثْ مع كبير الكهنة أولًا.

فدخل كاعبر المجلسَ، فألف نارمر، وأحس نحوه بشعور غريب، وقال:

- هل أنتم جادُّون في رغبتكم في السلام؟

- نعم! ما كنا نطمع في غير أرضنا.

- لكنكم حاولتم اقتحام الحصن، وهذا ليس تصرُّف قومٍ يريدون السلام؟!

- نريد أنْ نَأْمَنَ جانبكم؛ كي لا تفكّرون في الكَرِّ علينا كدأبكم دائما، لكننا تناسينا الماضي ونطالبكم بفعل المثل.

هذه العينان وهذه الجبهة ليست غريبةً عن كاعبر، يقسم أنه قد رآها من قبل، لكنّ ذاكرته تخونه، وقد وهن بصره، فطلب من نارمر الاقتراب منه، فاقترب، فطالبه بالاقتراب أكثر، فتأمّل كاعبر ملامحه جيدًا، فداهمته رائحةُ ذكرى قديمة، قد أعادتْهُ إلى الخلف، فرأى نفس العينيْن والجبهة تقتحمان عليه معبد النوبات خائفةً على طفليها، فأثار التشابه فضوله، وأدخل الشكّ قلبه حول هويّة هذا الفارس، فسأله:

- ما هو اسمك أيها الفارس؟

- سنورع.

- وما سبب اختيارك لتتفاوض معنا؟!

- يعتقد كبير القادة نارمر أنني أحسن التصرُّف!

- ألهذا السبب فقط اختارك كبير القادة؟

- أيجدر وجود سبب آخر؟!

- لا أنا فقط أتساءل..! هل وُلِدْتَ في مملكة السيوات؟

- لا أعلم! لكنّ والدي من مملكة السيوات.

فازداد شكّ كاعبر، ولم يشأ أنْ يزيد مخاوف نارمر نحوه، وطلب منه المبيت معهم الليلة، فوافق نارمر دون اعتراض، فهو أيضًا يحس نحو كاعبر بشعور غريب، يريد التأكُّد منه، وفي الليل تسامرا، وسأله كاعبر عن أبيه وأمه، فقال نارمر:

- لقد كان أبي قائدَ فرقةٍ صغيرةٍ في الجيش، وكانت أمي امرأةً بسيطةً تفلح الأرض، وقد مات والدي منذ أعوام.

- هل أمك التي تتحدث عنها هي أمّك التي أنجبتْكَ؟

- ماذا تريد أنْ تعرف بالضبط يا كبير الكهنة؟ لقد أثارتْ أسئلتُكَ حفيظتي؟

- أنت تشبه شخصًا كنت أعرفه، الشبه بينكما كبير، بحيث لا يمكن تجاهله، وإنك لَتحمل روحها!

- رُوح من؟!

- روح أمه.

- هل تظنّ أننا شخصٌ واحدٌ؟

- نعم أظنّ ذلك! ألم تُثِرْ ملامحُكَ النوباتية فضولَكَ يومًا، فتسأل عنها؟

- سأصدقك القول أيها الكاهن؛ لأنني أحببْتُكَ، لقد وجدني أبي رضيعًا داخل حدود مملكة السيوات، وقد رُبِّيتُ في بيته في سيو، ولا أعلم غير ذلك.

فعرف كاعبر أنه هو، يرث طباع أمه نوبة، فأرسل إلى الملك يوحب يحثُّه على المجيء فربّما عثر على أخيه، فلمّا حضر الملك، قَصَّ عليه ما حدث، فقال له يوحب: أَسْتَدْعَيْتَنِي من أجل شكوكٍ قد تكون كاذبة؟! فأجابه كاعبر بأنه متيقِّنٌ بأنه أخوه سورابي، فباتَ يوحب ليلته فوق جمرٍ يقلقه، وقلبه مضطربًا يتلعثم بين الابتسام والعبوس، فأرسل مبعوثًا إلى كبير قادة السيوات يطلب مقابلته برفقة الفارس سنورع، ونصح كاعبر الملك بعدم إخبار الفارس سنورع أيَّ شيءٍ عن نسبه قبل الجزم بهويته؛ كي لا يخاف ويحتاط.

وتخلّف كبير القادة، وذهب نارمر ثانيةً بصفته المبعوث، وكانت مقابلته كُلُّ ما يهمّ يوحب وكاعبر في هذا الوقت، فلمّا دخل نارمر عليهم، عرفه يوحب، وقال:

- كأنك أنت قائد المقدمة الذي واجهتك في معركة يوم الجسر؟!

- نعم يا سيدي الملك، وأغبطك على مهارتك الكبيرةِ، كِدْتَ تقتلني أكثر من مَرَّةٍ.

فقال كاعبر:

- مِن حسن الحظ أنّ أحدكم لم يقتل الآخر، وإلّا خسرنا ما لا يمكن تعويضه.

اضطرب الملك يوحب من مقابلة أخيه، وطلب منه حضور ملك السيوات وكبير القادة للتفاوض، فاعتذر نارمر عن حضور الملك؛ لصعوبة ذلك، وأخبره بأنّ كبير القادة مفوّضٌ من الملك.

فلمّا غادر نارمر، قال يوحب:

- أشعر أنه هو يا كاعبر! والتقينا يوم التقى الجمعان أول مرّةٍ!

- وأنا أيضًا أحسُّ ذلك يا سيدي، وأنا سعيدٌ بمشاعرك هذه.

واجتمع نارمر بحاتسنو، وأفضى بعاطفته الغريبة نحو الملك يوحب، وبإحراجه الشديد من هذا الشعور الذي يقرّبه من أعدائه كأنهم أهله! فاندهش حاتسنو، وقال له: هذا الشعور النبيل نابعٌ من قلبك الطيب وحسن مَنْبَتِكَ، فلا تبتئسْ.

وبعد أيامٍ، طلب نارمر مقابلة الملك يوحب مرة أخرى خارج أسوار الحصن، وذهب لمقابلته بصفته كبيرًا للقادة بصحبة حاتسنو، فلمّا رأوهم ظنّوا أنّ

حاتسنو هو كبير القادة، فقدم نارمر نفسه بشخصه، فغمرتهم الفرحة وقال الملك:

- لماذا أخفيْتَ عني حقيقتك؟

- عذرًا يا سيدي الملك يوحب، فقد كُنْتُ أجهلك، ولم أكنْ أعرف حسن خلقك.

- أحسنْتَ التصرُّف أيها القائد نارمر، وأظنّ أنْ لا شيء قادر على إعاقة السلام بيننا، فأنا وأنت وُلِدْنَا سويًّا، لا ندري عن هذه الحرب شيئًا، ويجب ألّا نتقاتل بعد اليوم، فنحن إِخْوَةٌ.

- هذا صحيح يا سيدي الملك، نحن إِخْوَةٌ، ويجب إخماد نيران هذه الحرب الشعواء.

- إذًا، أنا أدعوك لزيارة قُصر والتعرف على عاداتنا وتقاليدنا.

- هذا شرفٌ كبيرٌ لي يا سيدي الملك.

رجع الملك إلى مدينة قُصر؛ لإعداد المملكة لاستقبال كبير قادة السيوات وأخيه سورابي، وعَلِمَت المدينة بأمر السلام، فنزل عليهم الخبر كَبَلْسَمٍ شافٍ لكلّ جراحهم ومشاكلهم، وتناسوا آلامهم والسنين العجاف التي عاشوها، حظى نارمر بشعبيّةٍ كبيرةٍ؛ لقبوله إحلال السلام، وتزيّنت المدينة؛

لاستقبال نارمر استقبالاً كبيرًا يليق بمكانته في قلوبهم، وكانوا مُتشوِّقينَ لرؤية هذا القائد السيواتي الذي جازف وقبل المجيء إلى النوبات، وتخيّلوهُ كأنه مبعوث من الآلهة يَقِيهم شرور الحرب ووَيْلاتها.

وجاء نارمر في موكبٍ عظيمٍ، وخرج الناس والملك وحاشيته لاستقباله، فلما التقي الجمعان تجمّع الناس حولهما، ونثروا عليهم حبّات القمح، وتسابق الناس لإطعام نارمر مِن خُبزهم كدليلِ حبّهم له، وكي لا يخونهم، فأكل نارمر من خبزهم، وشكرهم على كرمهم وجودهم، وتواصلت مراسم الاستقبال حتى أبواب القصر الملكيّ.

استراح نارمر ليلته، وذهب صباحًا بصُحبة الملك لزيارة معبد النوبات، وتفقّداه، فأبدى نارمر إعجابَه الشديد بالمعبد الذي لم يَرَ مثيلًا له، وفي بهو الغرفة المُقدّسة بدأ كاعبر الحديث:

- لتشهد علينا الآلهة، ولتبارك خطواتنا، ولتمجدكما.

فقال الملك لنارمر:

- ما هي طلبات ملك السيوات؟

فقال نارمر:

- إننا نرغب في السلام، وكفى.

- ونحن لا نريد غير العيش في سلام.

فقال كاعبر:

- إذًا، فأنتم متّفقون.

فقال نارمر:

- لكننا نريد أنْ نتأكَّد من التزامكم بقرار السلام، وعدم مخالفته.

- إنّ قرار السلام نابعٌ من داخلنا، وليس عجزًا منّا أو خوفًا منكم، لذلك سوف نلتزم به وسنراقب أنفسنا.

- عذرًا يا سيدي الملك، أنا لم أقصدْ شيئًا، وأعلم أنك سوف تلتزم بكلمتك، لكنني أريد أنْ أرجع إلى ملك السيوات بميثاقٍ غليظٍ.

- وما الذي يضمن لنا التزامكم أنتم بالسلام؟

- كما قلتَ أنت يا سيدي الملك، إنّ السلام نابعٌ من داخلنا، والالتزام بالسلام نابعٌ من الإيمان به، وإيماننا بالسلام عظيم، ويمكن أنْ ترابطَ قوّاتٌ من عندكم وقوّاتٌ من عندنا داخل حصني الجسر، للتأكُّد من التزام الجميع.

- لا! لا يكون هذا أبدًا! أتحْتَلُّ قوّاتُكم حصني بموافقتي؟!

- إذا كان هذا الحلُّ لا يناسبك، فَلْتُخْلِ كلَّ الحصون من القوّات، إلّا العدد القليل بغرض الحراسة.

فتدخّل كاعبر:

- لِيُحافِظْ كلُّ طرفٍ على حصونه، وكل فترةٍ يُرْسَلْ مبعوثٌ للتأكُّد مِن أنّ كلَّ شيءٍ طبيعيٌّ.

فقال نارمر:

- رأيٌ جيِّدٌ، ولا شيء فيه.

فوافق الملك يوحب، فكيف يرفض ومَنْ يُحدِّثه هو أخوه، وقال:

- هذه الإجراءات ليست رادعة! إنني أريد أنْ أحافظ على السلام داخلكم، فلا تتغيّر نواياكم تجاهنا.

فقال نارمر:

- سوف نُبْقِي الوُدَّ بيننا.

فقال كاعبر:

- هذا أمرٌ يَسِيرٌ، وحَلّهُ عند الأولين.

- وما هو يا كاعبر؟

- يتزوّج الملكُ يوحب فتاةً من عائلةِ ملك السيوات، وملكُ السيوات يتزوّج فتاةً من عائلةِ الملك يوحب.

فأَعجب الاقتراحُ نارمر، فقال الملك يوحب:

- فَلْتَتَزَوّجْ أنت أيضًا يا نارمر؟

فضحك نارمر، وقال:

- أنا أحب فتاةً من نورس، وسوف أتزوّجها فور عودتي.

فقال كاعبر:

- لِيَكُنْ ذلك، ويُقام عُرْسُك هنا في قُصر؛ لِنثْبتَ للجميع بما لا يَدَعُ مجالًا للشك ابرام ميثاق الصلح بيننا.

وبعد أيامٍ، سافر نارمر إلى سيو، وأخبر الملك باتفاقه مع الملك يوحب، فأقرّه الملك، ثم توجّه إلى نورس؛ للقاء حب سنار التي فرحت كثيرًا لإن عُرسِها سوف يقام في قُصر حاضرةً مملكة النوبات، وأنّ زواجَها سوف يكون أيقونة للسلام بين المملكتين.

نقب النوباتين بابًا في جدار الحصن المطل على الجسر، وفتحوه على مصرعيه أمام السيواتين، وزُيِّنَ الجسر بالورد للعروسين، فَبَدَا بريقُ الذهبِ تحت أشعة الشمس الحارة أشدِّ لمعانِهِ، وأكثر بهجة، ومرّتْ قافلةُ

العروسين بألوان زاهية، والجنود فوق الأسوار تتفرّجُ عليها، وفي قُصر أُعِدَّ القصرُ الملكيُّ لاستقبالهم، وإقامة العُرس تحت سماءٍ صافيةٍ ونجومٍ ساطعةٍ تزيّنها.

رحّبتْ نوبة بحب سنار وزيّنتْها لعريسها، وأُعجبتْ حب سنار بمزاجِ نوبة فأحبَّتْها، فَظَهَرَتَا مثل أُخْتَين حقيقيتين.

تناسى يوحب كلَّ مخاوفه، واندمج في الحفل، وفرح باجتماعه مع أخيه بعد سنواتٍ من التيه وبعد تفرُّقهم أطفالًا، ونوبة كانت سعيدةً لسعادة زوجها، وشعرتْ أنّ يوحب شخصٌ آخر مرحٌ لا يحمل للدنيا هَمًّا، لم تكن تعرف أنّ نارمر أخوه، لكنها تحسّ بقربهما من بعضهما، حتى وإنْ حاول يوحب إخفاء الحقيقة وتضليلها، لكن نوبة لم تهتم كثيرًا بحقيقة العلاقة بينهما، وانسجمتْ مع الأجواء حتى لا يعكر صفوها شيء.

نارمر سعيدًا بانتصار الخير في قلوب كلًّا من السيواتيون والنوباتيون، بعدما دعاهم الشيطان ليكونوا عكس ما هُمْ عليه، ونجح في ذلك لسنين، فرح باجتماعه بحب سنار وليفة روحه وحبه الباقي، وحب سنار هي الاخرى لا تصدّق فرحتها، واطمأنتْ على حياة أختها، وحياة أهلها أجمعين، وحياة كلّ الناس في المملكتين، وتحقق السلام بأفضل طريق لم يكونوا يتخيلونه من وقت قريب.

وبارك كاعبر العروسين، وأَتَمَّ مراسم الزواج بنفسه، كان يحس بسكينةِ روحٍ وصفاءٍ داخليٍّ، كان مؤمنًا بأنه قد أَتَمَّ مهمَّتَه التي خُلِقَ من أجلها، التي حدثه عنها كبير العرافين متاح، ولم يتبقَّ له غير إخبار نارمر بحقيقته، ووسط الاحتفالات أحسَّ بإرهاقٍ شديدٍ، فتنحّى جانِبًا، وجلس يستريح، وهو ينظر إلى سورابي ويوحب فَرِحًا بهما.

وبين الاحتفالات والأفراح، وكثرة العازفين والراقصات، وسط نسمات السلام والسكينة، ونفحات الحب المفعمة بالحيوية والاشتياق، نظر نارمر إلى حب سنار يستكثرها على نفسه، ونظرتْ حب سنار إليه بإكبارٍ تَوَدُّ لو تُخَبِّئُهُ عن عيون كل الفتيات؛ فيكون لها وحدها، وعند منتصف ليلةٍ مضيئةٍ عامرةٍ بالبهجة والسرور دخل العروسان جناحَهم المُخصّص لهم، واستمرت الاحتفالات حتى الصباح، ولم تَخْفُتْ بالدخول.

وبعد سبعة أيام قضاها نارمر مع العروس، طلب زيارة مقابر الملوك النوباتين، فأذن له يوحب، بل ورافقه بصحبة كاعبر إلى جَبّانة الموتى، مَرُّوا على كل الملوك العظام السابقين، يسمعون حثيث الماضي، وعبق التاريخ، الاختلاف بين الملوك يتجلّى في تباين أبهة وعظمة مقابرهم، فلمّا بلغا المقبرة الأخيرة، مقبرة الملك شنوات، توقّفوا أمامها طويلا ينظرون إليها بتعظيم، ورجعوا بذاكرتهم إلى الوراء غير بعيد، يتذكرون أيّامًا قد خَلَتْ يودوا نسيانها بمآسيها وكروبها.

سجد الملك يوحب لأبيه، ففعل مثله نارمر، ثم كاعبر، وبعدما انتهوا، قال كاعبر:

"هذا تأويل رؤيا أبوكما من قبل، قد جعلها اللّه حقًّا"

***

أُخليت الحصون على كلّا الضفتين بطول مجرى النهر، وفُتِحَ جسر الذهب أمام عبور الناس، مِن وإلى المملكتين بِحُريّةٍ تامّةٍ ودون دفع أي رسوم، فأصبح الحصنان بأسواره العالية مثل نُصْبٍ لبوّابتي الجسر، ونشطتْ حركة التجارة بين المملكتين، ومضت السنين والناس تتنقّل بأمانٍ، فثار النهر بعنفٍ وقوّةٍ لم يسبق لها مثيل مغيرًا مجراه القديم، ونحت في أرض النوبات مجرًى رئيسًا دون فروعٍ أخرى، شاقا طريقة نحو الشمال، وأصبح نهرَ الضبابِ والنهرَ الأوسطَ بِرْكَتَيْن من الطين جفتا مع مُضِيِّ الأيام، شَقَّ الثائِرُ الجديدُ أراضي جديدة لم يطلّها الماء من قبل، ووصل إلى أراضٍ بعيدةٍ خصبة ومستوية، فهاجر الناس إليها من كلا المملكتين بحثا عن الرزق هناك، فزادت مساحة الرقعة الزراعية.

اختلط النوباتيون والسيواتيون معًا في قرًى واحدةٍ، وتزاوجوا من بعضهم البعض، فاشتبكت الأنساب، مكونين مجتمع واحد جديد.

***

وقف الملك يوحب وكبير قادة السيوات نارمر وكبير كهنة النوبات كاعبر يتأملون النهر الجديد، الأكثر رحابةً وفَيْضًا من الأنهار السابقة التي قد جَفَّتْ، فقال كاعبر:

- يجب أنْ تُطلقَ عليه اسمًا جديدًا يا سيدي الملك.

فقال الملك يوحب:

"سيحمل الحروف الأولى من أسماء الثلاثة، أمّنا نوبة، يوحب، نارمر، سوف يُدعى النهر نهر النين"